سارة النمس

جيم

رواية

دار الآداب

جيم

سارة النمس

دار الآداب

2020

كتبتُ روايةً كاملة، وعندما انتهيتُ منها،

عجزتُ عن كتابةِ إهداءٍ يليقُ بمحبَّتكما في قلبي،

ذلك ربَّما لأنَّني بارعة في تحريفِ الكذِب بالحقيقة،

وفاشلة في التعبيرِ عن مشاعري بالكلمات!

إليكما وحدَكما، أُهدي هذا الكتاب..

أسماء ووداد

.

إنّ قلبَ الإنسان حفرة مليئة بالدم، وأولئك الأحباب الذين ماتوا يلقون بأنفسهم على حافَّة الحفرة وينهلون من الدم،

وهكذا يعودون إلى الحياة.

(كازانتزاكيس)

السفر الأوَّل

(والاعترافات الخطيرة)

اللَّهُ الذي قاطعتهُ منذ سنواتٍ قليلة، اعتدتُ التحدُّثَ معه كما لو كان صديقي الوحيد الذي يعرِفني أكثر ممّا أعرف نفسي، تواصلتُ معه في جميع حالاتي؛ فإذا كنتُ حزينًا شكوتُ لهُ همِّي، وإذا كنتُ مبتهجًا مازحتُه كما لو كان جالسًا على الكرسيّ المقابل. كان إيماني بهِ قاطعًا ومطلقًا، ولا مجال لشكٍّ صغيرٍ أن يتسلَّل إلى رأسي.. واليوم، ما عدتُ أحدِّثه، ليس لديَّ ما أقوله له! لن أطرح عليه ذلك السؤال الذي يطرحه الناسُ في المصائب: لماذا أنا؟

بالمقابل، لا أملك حافزًا لأتسوَّل منهُ السعادة المشتهاة، ما عشتهُ من الألم قتل فيَّ أيّ إحساسٍ بالفرقِ.. انتهى كلّ شيء، ولم يعد لحياتي أيّ جدوى.

كلَّا.. لم أصل إلى مرحلةِ الإلحادِ بعد. كنتُ فيما مضى مُسلِمًا صالحًا أدافع عن معتقداتي باستماتةٍ؛ ولم أعتقد يومًا أنَّني سأصبح الرجل الذي يتكلَّم في هذهِ اللحظة. اليوم، وبعد أن أعادت الحياةُ تشكيلي، لم أعد أدافع عن فكرتي بالشراسةِ نفسها. لأنَّني بعد عشر سنواتٍ قد أكونُ شخصًا أنا نفسي إذا قابلتهُ لن أتعرَّفَ عليه! تغيَّرت علاقتي باللَّه كثيرًا؛ ما زلتُ أؤمن بوجوده، لكنَّني توقَّفتُ عن التقرُّب منه بالأفعالِ الجيِّدة، قناعة منِّي بأنَّه لن يقبلها من رجلٍ مثلي، كما أتخيَّله منشغلًا بمسائلَ أهمّ، فلا أصدِّق أنَّ اللَّه سيترك مشاغل الكونِ ليتفرَّغَ للإصغاءِ إلى مسخٍ قامَ بأذيَّةِ كلّ من حوله! لطالما قلتُها لأصدقائي، إن غفر اللَّهُ لي ما فعلته في حقِّ أحبَّائي، فأنا لن أغفره لنفسي؛ وإن أرسلني إلى جنَّته، فسأعتصم أمام أبوابها، وأطلب منه أن يقذف بي إلى الجحيم لآخذ عقابي كاملًا.. أريدهُ أن يُنكِّلَ بجسدي، يُذيب جلدي، يُطعمني الشوك، يصبّ في جوفي كلّ ما هو مرٌّ وحارق. سأتحمَّل العذاب وسأجدُ لذَّة في تلقِّيه، لأنَّني في تلك اللحظةِ فقط ربَّما قد أُسامحُ نفسي على ما فعلت!

أتجرَّعُ الشرابَ سيّءِ المذاق، وأفكِّر في هذا الجسدِ الذي أسكنه. أفكِّر في قلبي يخفق نبضات منتظمة في جسدِ رجلٍ تافه، وأفكِّر في معدتي، في كبدي، في كليتيَّ وخلاياي، ثم في جميع المرضى الذين يُتقنون تذوُّق الفنّ، ويعرفون كيف يعيشون الحياة ولا يستطيعون بسبب أعضائهم المريضة. أنتفعُ بجسدٍ يتمتَّع بصحَّةٍ جيّدة من دون أن أفعل به الصواب، من دون أن أزاول مهنة لائقة، أو أمارس الحبَّ مع امرأةٍ استثنائيَّة، ولا أمتلك حتى رفاهيَّةَ التنقُّلِ به سائحًا في مدنٍ أحلم بزيارتها.. فلماذا ما زال اللّه يُبقيني حيًّا؟ كما يبقي على الذُّباب والفئران والصراصير، مخلوقات مزعجة يكرهها الناس ويضطرّون للتواجدِ معها، لأنَّهم لا يملكون القدرة على إبادتها نهائيًّا! ماذا عنكِ؟ كيفَ ستتحمَّلين الوقت الذي سنقضيهِ معًا؟ هل ستصبرين أم ستهربين؟ سأقصّها عليكِ حكايتي، ولا أطلب منكِ سوى الصبر وألَّا تحاولي إيجادَ الأعذارِ لي. كوني قاسية عليَّ ولا تُبالي، فأنا أستحقّ من العالم أيّ شيء سوى الرحمة.

وهران

- ١ -

عشتُ حياتي كلّها في مدينة وهران التي اكتفيتُ بها وأخلصتُ لها، كما لو أنَّني تزوَّجتُ المدينة زواجًا كاثوليكيًّا. في الواقع، أنا رجلٌ يُخلصُ لكلِّ الأشياءِ التي يحبُّها، لا أستبدلُ ساعة يدي ولا نوع عطري ولا ماركة البنّ، وأستمرُّ بارتداء قميصي المفضَّل حتى يبهت لونه. إذا وقعتُ في غرامِ أغنيةٍ، فإنَّني لا أَمَلُّ من الإصغاءِ إليها، وإذا قرأتُ لكاتبٍ وأحببتُ عمله، فإنَّني أغفرُ له إخفاقاته الأخرى. أنا الزبونَ الدائمَ في كلِّ مكان أشتري منه حاجياتي، وقد أتناول العشاء نفسه إلى الأبد بلا تذمُّر. لستُ الشخص الذي يغيِّر أصدقاءه أو حبيبته بدافع الفضول والتجديد، ولا أعرف إذا كانت هذهِ ميزة يشترك فيها جميع مواليد برج السرطان؛ تمسُّكهم وتشبُّثهم بما يحبُّونه. وعلى سيرة الأبراج، وُلدتُ في اليومِ الأوَّل من شهرِ جويليه، في يومٍ كان شاقًّا

على والدتي الطيِّبة كلتوم ، اسمُها الأصحّ لغويًّا كلثوم، إلَّا أنّ الاسم في مدينتنا شائعٌ كما كتبتُه، إذ ينطقونهُ هكذا بحرفِ التاء.

بعد الحادثِ الذي تعرَّضتُ له ووفاةِ والدتي، قرَّرتُ البحث عن نفسي في مكانٍ آخر؛ وبما أنَّ شابًّا إفريقيًّا أعزب مثلي لا حظَّ له بالعيش في بلدٍ أوروبيّ، قرَّرتُ الاختباءَ في ذيلِ هذهِ البلاد! في أبعد مدينةٍ وآخر نقطةٍ جغرافيَّة فيها.. مدينة صحراويَّة اسمُها تمنراست. سأعيش في صحراء قاحلة، مع أُناسٍ يجهلون من أكون باللاجدوى نفسها، أعمل وآكل وأنام، وأتمدَّد تحت الشمس الحارقة علَّني أموت بضربةِ شمس.. أجل، لا شيء يُغريني كالانتحار، على الرَّغم من تحفُّظي على هذا المصطلحِ السخيف الذي لا يسعُ معنى أن يُنهي إنسانٌ بائسٌ حياته بشجاعة. كنت جبانًا جدًّا، حاولت وفشلتُ؛ ربَّما لأنَّني في لاوعيي ما زلتُ أحبُّ الحياة قليلًا، ولم يتمكَّن اليأس من قلبي كلِّيًّا.

إنَّها الساعة الثامنة صباحًا، ولستُ قادرًا لا على مغادرةِ الفراش ولا العودةِ إلى النوم. أريدُ البقاءَ مستلقيًا إلى الأبد من دون أن أحتاجَ إلى

الوقوف لأملأ معدتي بالطعام، ومن دون أن أضطرّ للجوءِ إلى الحمّامِ لإفراغِ جسدي من الطعامِ الشهيّ الذي حوَّلته أمعائي إلى شيءٍ آخر كريهٍ ونتن. أتأمَّلُ غرفتي.. في حالةٍ كارثيَّةٍ من الفوضى؛ على الأرضيَّة أعقاب سجائري مبعثرة، وتحت الطاولة زجاجات كحول فارغة، والذباب يحلِّق في أرجاءِ الغرفةِ بحيويَّةٍ مُزعجة، ورائحة المجاري تصل إلى أنفي من النافذة التي نسيتُها مفتوحة.. أنهض أخيرًا إلى الحمَّامِ، وأُخرج عضوي من السروال القصير، نسيتُ أنِّي ما زلتُ أملكُ واحدًا! فأنا ما عدتُ أستخدمهُ إلَّا لأجل إفراغِ السوائلِ من مثانتي. أتوقَّف عن قضاء حاجتي في اللحظةِ التي تربكني فيها الطرْقات العنيفة على الباب. لا بدَّ من أنَّها صاحبة البيت رحمونة التي ستردِّد الأسطوانة نفسها؛ إمَّا أن أدفع أجرة هذا الشهر أو أن أرحل. عابسَ الوجه أفتحُ لها، وقبل أن تفتحَ فمها أقول: سأرحلُ اليوم.

هذهِ السيِّدة أرملة تُقيمُ في الشقَّةِ المقابلةِ لي، وتملك المسكنيْن. سيِّدة أربعينيَّة تُعاني من حَوَلٍ في عينها اليسرى، صوتُها مرتفعٌ وفيه بحَّة مزعجة، لديها مؤخَّرة ملفتة بامتلائها، يُقال أوَّل ما ينظر إليه الرجل

ببديهته عندما تُدير المرأة ظهرها هو مؤخّرتها، ولا أعتقد القائل أخطأ بهذا الشأن. لم أفكِّر يومًا بإغوائها، إذ ليست على الإطلاق امرأة أرغبُ بمشاركتها السرير، وربّما هي تكرهني لهذا، فالمرأة تحسّ.. ربّما أحسَّت باشمئزازي منها، أو لأنّها تكرهُ التحديق إلى وجهي القبيح. فلأعترف بأنّني لا أمتلك وجهًا جميلًا يُغري النساء بالهيامِ والتقبيل. وربّما هي تكرهني بسبب فقري فحسب، أو لكلِّ هذهِ الأسباب!

تُقْلعُ حافلتي إلى تمنراست في الثامنة مساءً. لديَّ نهارٌ كاملٌ لتوديع حبيبتي وهران، أوّل مكانٍ فكَّرتُ بتوديعه هو خلفيَّة العمارة! أعيشُ في حيٍّ كبيرٍ يُعرف باسمِ مارافال، ولكنَّه يُكتبُ في وثائقنا حيّ العثمانيَّة ، عندما تقفُ في ساحةِ place d’arme التي يتوسَّطها تمثال برونزيّ لملاكٍ يحدِّق إلى الأرض، ستجدُ مسرح عَلُّولة إلى يمينك، ومقابلك أسدان يحرسانِ البلديَّة القديمة. من هناك، في وسعك ركوب الترامواي باتِّجاهِ السينيا، وتتوقَّفَ في مفترق شرفاوي. من يمين ذلك المفترق، يبدأ حيّ مارافال، بدءًا بلوريه روز إلى بيتي وياغموراسن. قلتُ بأنَّ أوَّل مكانٍ رغبتُ بتوديعه هو خلفيَّة العمارة. عمارتنا

الكبيرة: كلّ شرفاتها أماميَّة، وأمَّا من الخلف، ففيها نوافذ طويلة فقط. كانت لي عادة لا أرغب بالحكم عليها الآن، هي التلصُّص على جيران الطابق الأرضيّ! أتجوَّل خلف العمارة وأدخِّن سجائري أمام نوافذهم، بينما أُصغي إلى حواراتهم. نعم، لقد كنتُ بائسًا لذلك الحدّ، إلى حدِّ التلصُّص على أناسٍ لا يعنون لي شيئًا، فقط لأنَّني أشعر بالوِحدة.

لن أتحدَّث الآن عن جميعِ الجيرانِ الذين كنتُ أتلصَّص عليهم، لأنَّني مع مرور الوقت، فقدتُ اهتمامي بهم. سأتحدَّثُ عن جارةٍ واحدةٍ اسمها ناديا ، أتت من مدينةِ معسكر المجاورة؛ وفيما كان معظم القادمين من المدنِ الأخرى يخفون أصولهم ويزوِّقون لهجتهم ليبدوا من أهل المدينة؛ كانت ناديا تعتزّ بانتمائها ولم تهذِّب لهجتها. يُخفي القادمون أصولهم لتجنُّبِ التصنيف، وتلك التهمة الشهيرة التي تقول بأنّ النازحين شوَّهوا أصالة وهران بتخلُّفهم. كلُّ قادم غريب من مدينة أخرى ينادونه بالقلِّيط، وهي كلمة تشبه لقيط في تركيبتها. لكي يقبلك الوهرانيّ، عليكَ أن تُثبتَ له بأنَّك وُلدتَ في مدينته، وتتحدَّث

بلهجةٍ مُتقنة بلا خطأ يفضحُ منبتك، وتحفظ الأسماء القديمة لأزقَّة المدينة وأسماء عائلاتها وكلابِها وولاتها. أفكِّر بـ ناديا التي سكَنت بمفردها في تلك الشقَّة، ثلاثينيَّة عزباء، تبدو بجمالها في بدايةِ العشرينيَّات. تعيشُ حياتَها كما لو أنَّها لا تعيش في مجتمعٍ عربيٍّ، تدخل بيتها في وقتٍ متأخِّر، وترتدي ما يحلو لها من تنانير قصيرة وجوارب مخرَّمة. تعرَّفتُ عليها عن طريقِ والدها الذي شرحَ لي بأنَّها هنا من أجل دراسةِ العلومِ السياسيَّة، ومنحني رقمَ هاتفها لأقوم بخدمتها فيما يتعلَّق بالإصلاحات المنزليَّة، على أن يُرسل لي أتعابي عبر حوالةٍ بريديَّة.

كنتُ كلَّما دخلتُ بيتها وجدتُها بروبِ البيت، روب بكُمَّيْن طويليْن تحزمه على جانب خصرها، ويصل إلى قدميْها الصغيرتيْن ويُخفي كلّ جسدها. كان مُغريًا على نحوٍ قاتل؛ إذ كان الثوب الطويل يغذِّي مخيِّلتي، فلا أعلم ما الذي كانت تلبسه تحته! أعود إلى بيتي هائجًا، أتخيَّلُ نفسي أفكّ عقدة حزامها وأتلمَّس جسدها بيديَّ الخشنتيْن. ناديا، التي لا هي بالنحيفة ولا هي بالممتلئة، مناسبة تمامًا لذوقِ

شابٍّ جزائريّ؛ الجزائريّ الذي يفضِّلها وسطًا في كلِّ شيء، فلا بدينة ولا نحيفة جدًّا، ولا قصيرة ولا طويلة، ولا بيضاء حتى الشحوب ولا سمراء كلّ السواد. أمَّا عن مزاجها، فهي هادئة غالبًا، ذكيَّة من ردودِها المختصرة وابتساماتِها المائلة، تحضِّر لي القهوة وتُريني ما عليَّ إصلاحه، ثم تنصرف وتغلق الباب على نفسها. هل أكذب وأقول بأنَّني لم أتمنَّ ترك ما في يدي وأتبعها لأفتحَ ذلك الباب المغلق وأُلقي بنفسي عليها، حتى تفقد وعيها من الشبق والشهوة؟ ما الذي كان يمنعني؟ إحساسٌ بأنَّني لم أكن أعجبُها؟ بالإضافةِ إلى عهدٍ ضِمنيّ قَطَعْتهُ لوالدِها الذي حلَّفني برحمةِ الغالية بالاهتمام بها كأخٍ وحراستها من الطامعين فيها، ولعلَّني كنتُ أحدهم.

تحدُث السعادة عندما تتَّصلُ بي لحاجةٍ ما، فأقفز من فراشي، وأحاول أن أبدو أنيقًا من دون إظهار الجهدِ الذي بذلتهُ في ذلك. دقائق سريعة وتجدني أمامَ بابِ بيتها جاهزًا لخدمتِها. وعندما تختفي ناديا، أحاولُ رؤية أكبر عددٍ من الأشياءِ في بيتِها، أُخزِّن في ذهني تفاصيل أعود إليها لاحقًا وأنا بمفردي، كتلك اللوحةِ الغريبة في

الصالون ومحاولة تخيُّل الانطباع الذي تتركه في نفسها. أرى الورد موجودًا دائمًا في بيتِ ناديا، تقلِّم نهايات أغصانه، وتجدِّد ماءه وتغذِّيهِ بالسكَّر.. أداعبُ السجَّاد بيدي، السجَّاد الذي تمشي عليهِ ناديا بقدميْها حافيتيْن.. عرفتُ أمورًا كثيرة عنها من خلالِ زياراتي القصيرة؛ نوعِ بُنِّها المفضَّل، وماركة الشامبو، ونوعِ سجائرِها، والشوكولاتة وفاكهتها المحبَّبة، وأنَّها تُصغي إلى القرآن بتلاواتٍ أندلسيَّة فقط! تقرأ الروايات باللُّغةِ الفرنسيَّةِ فقط، والكثير من الكتب السياسيَّة، وتقتني الكثير من التماثيل: ملائكة، فراعنة، بوذا، أفارقة.. وكأنَّها ترغبُ بجمع العالمِ بأسرهِ في تلك الشقَّة الصغيرة.

اعترفتْ لي بأنَّها لا تعيشُ حالة حبٍّ ولا تُفكِّر بالزواج. لم أكن أجد ما يدفعني للتلصُّص عليها، لا أسمع سوى رنينِ الأواني أو حديث التلفزيون. ثم فجأة، بدأتْ تواعدُ رجلًا جديدًا يوصلها بسيَّارةِ الأودي حتى باب العمارة، ينتظرُها صباحًا ويُعيدها مساءً.. وهكذا، وبلا مقدِّمات، تزوَّجت، وانتقل الشابُّ ليُقيم في شقَّتِها. لم يأتِ موكبٌ لأخذها، ولم نرها تخرجُ بفستانِ الزفاف، ولم أفهم لماذا قرَّر الشابُّ

الثريّ العيش معها في هذا الحيِ البائس! حقدتُ عليها كأنَّها خانتني.. ناديا التي لم تكن يومًا حبيبتي، ولم تمنحني أملًا كاذبًا إلّا بعينيْها المحتالتيْن. رحتُ أبرِّر لنفسي كراهيَّتي لها بأنَّها لم تُعجب بي لفقري. ومنذ بدأ يعيش معها، أدمنتُ تلصُّصاتي عليهما، فأصغي إلى حديثهما في أثناء العشاء، وتُدهشني بذاءتها معه، وكيف يجعلها تطلق تلك الضحكات من قلبها.. أصغي إلى شجاراتهما العنيفة، وتروقني شراستها في الدفاعِ عمَّا تؤمنُ به، وتُذهلني قدرة زوجها العالية على التجريح بما لا يتوقَّع سماعه أحد! كان في النهاية يصالحها، وكنتُ أصغي وأحسده.

أدور ببطءٍ دورةً أخيرة حول العمارةِ، أُودِّعُ جيرانًا لم أكن أحبّهم ولا أكرههم، لأبدأ جولتي في المدينة. هنا، في هذهِ الحديقةِ العامَّة، كنتُ أحبُّ قراءة الجرائد على ضفافِ بحيرة البطِّ التي يبدو دائمًا ماؤها أخضر. وهذهِ ساحة بلاص دارم الشهيرة، أوَّل مكانٍ جلسنا فيهِ مع أبي عند نزوحنا من مدينة تيارت. أتسلَّلُ من الساحةِ إلى حانة سان جيرمان لأشرب كأس الويسكي الأخير من يدِ النادلة، التي تبدو كما

لو أنَّها وُلدت في الجحيم! أتَّجهُ بعد ذلك إلى لاكاتيدرال؛ الكاتدرائيَّة القديمة التي تمَّ تحويلها إلى مكتبة عموميَّة، ومنها أعبر شارعَ العربي بن مهيدي إلى شارع خميستي الموازي، لأصل إلى كورنيش جبهةِ البحر. من هناك، تبدو قمَّة سانتا كروز واضحة، تحيِّيني من بعيد وتغريني للذهاب إليها كي أُشعل شمعةً في مغارتها الباردة. المكان الذي تجنَّبتُ الذهاب إليه هو بيتنا القديم في حيّ الحمري. مستعدٌّ للذهاب إلى أيِّ مكانٍ في العالم إلَّا بيتنا القديم في حيِّ الحمري!

ها أنا في محطَّةِ الباهية، أستعدُّ لركوب الحافلة التي ستقلُّني إلى الجنوب. إنَّه اليومُ العاشر من شهرِ جانفييه والجوُّ باردٌ جدًّا. ابتعتُ سندويتشًا يُعرفُ في جميع المطاعم الرخيصة باسم سندويتش سبيسيال، وليس فيه شيء مميَّز؛ خبز يضعون فيهِ بيضًا مقليًّا باللحمِ المفروم وأوراقًا من الخسِّ، بالإضافةِ إلى بطاطا ومايونيز لمن يريد. لفتت انتباهي في ساحةِ المحطَّة شابَّة غريبة الأطوار.. أتناول السندويتش واقفًا بينما أتأمَّلها، تبدو مثل شبحٍ حقيقيّ! بالكادِ تبدو امرأة، وليس فيها شيء من علاماتِ الأنوثةِ. شابَّة نحيفة ترتدي ملابس واسعة

كلّها سوداء، كأنَّها بلباسها الواسع، لا تريد أن تفصح عن تفاصيل جسدها. المرأة التي توضح لكَ معالم جسدها، تريدكَ أن تلاحظَها وتقدِّر جمالها. وأمَّا أن ترتدي العكس، فهذا يعني أنَّها تحجب عنكَ مفاتنها، وترفض منك أيَّة محاولة للإعجابِ أو الاشتهاء! واللافت فيها هو شعرُها الكثيف الأسود الذي يخفي ملامح وجهها. أراها الآن تدفعُ المال مقابل علب بسكويت اشترتها، وفي أثناء ذلك، أُلاحظ سقوط مفكِّرة من حقيبتها من دون أن تنتبهَ لها. مشيت خلفها ولحقتُ بها لأكتشف بأنَّ هذه المسافرة ستستقلُّ حافلتي، وربَّما هي متَّجهة إلى إحدى المدن التي سنتوقَّفُ فيها. أخفيت المفكِّرة وأنا أقول لنفسي: «سأرى أوَّلًا إن كانت مسافرة بمفردها أو مع أحدهم. ستكونُ المفكِّرة حجَّة جيِّدة للتعرُّفِ عليها».

سأنتقي الآن مقعدي في الحافلة من أجلِ رحلةٍ طويلة. مئات الكيلومترات وعشرون ساعة سأقضيها في هذهِ الحافلة. وجدتُ مقاعد شاغرة، الأوَّل إلى جانب رجل بدين يرتدي عباءة صحراويَّة لونها بنفسجيّ، وكان يشغل مقعده ونصف المقعد إلى جانبهِ. بحثت

بعينيَّ عن تلك الغريبة التي مفكِّرتها بحوزتي، فرأيتها تجلس في الصفِّ السادس بين صفَّيْن فارغيْن من المقاعد. تنظرُ الغريبة من خلفِ زجاج النافذة بهدوءٍ مخيف، متجمِّدة في وضعيَّتها بلا حركة، كأنَّها كائنٌ من عالمٍ آخر. تقدَّمتُ منها وسألتُها بخجل مصطنع:

- مساء الخير.

- ...

- هل تحجزين المقعد لأحدهم؟

- ...

التفتت أخيرًا! وها أنا أراها عن قرب. استغرقت ثانية واحدة في تفحُّصي ثم هزَّت كتفيْها وعادت إلى التحديقِ إلى النافذة، حركة الكتفيْن تعني بأنَّها لا تحجز المقعد لشخصٍ آخر، وأنَّها لا تكترث لأمري، أو تقول من خلالِها: «اذهب إلى الجحيم». رأسُها الشامخ يوحي بالاعتدادِ بالنفس، فهي تنظر من طرفِ عينها من دون أن تُدير رأسها استدارة كاملة. فلأتحدَّث الآن عن عينيْها، عينانِ واسعتان

خضراوان بحدَّةٍ مخيفة تلمعان في عتمةِ الليل، كأنَّهما مصباحان مستديران من الخضرةِ المضيئة، وكأنَّها أنثى لفهدٍ أسود. عندما يرغب الفرنسيُّون بتصنيفِ هذا الجمال، فإنَّهم يقولون عنه la beauté sauvage أي الجمال المتوحِّش! ستغيِّر هذهِ المرأة حياتي كلّها بأفكارها، هذه الصبيَّة المخيفة التي لا تهابُ أحدًا، المرأة التي تلقَّت أضعافَ العذابِ الذي تلقَّيت، ستكونُ بطلة حكايتي.

- ٢ -

- أقول مساء الخير؟

- . . .

هزَّت كتفيْها، ففهمتُ بأنَّها لا تُمانعُ جلوسي إلى جانبِها، ولا تهتمّ.. ليس فيَّ ما يجذبُ اهتمامَها، وكلّ ما تُبديه رغبة بالتحديقِ الأبديّ إلى تلك النافذة التي لا تُطلُّ على شيءٍ غير الليل!

- ما بكِ؟ هل أنتِ خائفة من السفرِ بمفردكِ في هذا الليل؟ لهذا تلتصقين بالنافذة بهذا الشكل؟

التفتت إليَّ، ورمقتني بنظرةٍ فارغة!

كنتُ سأُعيدُ إليها مفكِّرتها اللعينة، وأختفي في مقعدٍ بعيد، وأنسى رغبتي الغامضة بمعرفتها. انتظرتُ منها تحيَّةً فاترة على الأقلِّ، أو سؤالًا بسيطًا يتمثَّل في ماذا أريد؟ ولكنَّها لم تنطق حرفًا واحدًا لمخاطبتي. إنَّها ترفض حتى قول مساء الخير، وكأنَّ مخاطبَتي ستكون خطيئة ترتكبها في حقِّ نفسها، ولا يجبُ على من مثلها الاختلاط بمن هم

مثلي. كلَّا، لا تبدو ثريَّة من مظهرها، ولكنَّ طريقتها في التصرُّفِ فضحتها! نظرة الاحتقار هذهِ، النفور العنيف ممَّن هم مثلي لا يأتي إلَّا منهم.. هؤلاء القومِ الذين يضعون حاجزًا غليظًا بينهم وبين قومِ الطبقةِ الأخرى.. أيّ امرأة غيرها من طينتي كانت لتردَّ السلام على الأقلِّ وتتصرَّف بطريقة طبيعيَّة، وربَّما هذهِ الغريبة التي أحاول اختراق صمتها، لو خاطبها رجلٌ أنيق لتعاملت معه بطريقةٍ مختلفة.. غضبي من أسلوبها جعلني أفكِّر بإذلالها بعض الشيء قبل أن أُعيد لها المفكَّرة:

. كنت أرغبُ بأن أُعطيكِ شيئًا لكِ عثرتُ عليه، ولكنْ، بما أنَّكِ لستِ مهتمَّة، سأحتفظ بهِ. (حرَّكتُ المفكَّرة في يدي وانسحبتُ إلى مقعدٍ في الخلف). وما إن رأت مفكَّرتها الخضراء بين يديّ حتى اتَّسعت عيناها، واشتعلتا برغبة استعادةِ ما كان لها. وقفت بهدوء وجلست إلى جانبي:

. لم أعرف بأنَّك كنتَ تنوي إعادة شيء يخصُّني، ظننتكَ من هؤلاءِ الغرباء الذين يتطفَّلون على كلِّ امرأةٍ وحيدة يقابلونها..

. ...

. أعطني مفكَّرتي لو سَمحت.

. إنَّها مفكِّرتي الآن، عثرتُ عليها وأصبحت لي. هل هناك ما يُثبت بأنّها لكِ؟ هل كتبتِ فيها اسمكِ ورقم هاتفكِ؟

. لماذا تطلبُ ما يُثبت وأنت قصدتني بنفسك لتُعيدها إليَّ؟

. نعم، كان هذا قبل أن أتلقَّى تلك المعاملة السيِّئة منكِ.. لقد استخسرتِ فيَّ حتى ردّ التحيَّة. ماذا كان سيحدث لكِ لو رددتِ مساء الخير؟ هل كان سينقص منك شيء؟

. شرحتُ لكَ لماذا لم أردّ، واعتذرت..

. كلَّا، لم تعتذري بعد..

. هل عليَّ الآن أن أقبِّل رأسك لتُعيدها إليّ؟

. أريد اعتذارًا صادقًا فقط، وأعتقد أنَّني أستحقّه، لأنَّني لم أضايقك في شيء.

.Je suis trés désolée monsieur .

أعدتُ لها مفكّرتها، فعادت بارتياحٍ إلى مقعدها بعد أن اعتذرت لي باللغة الفرنسيَّة. لم أُخطئ في انطباعي عنها.. اعتذارها باللغة الفرنسيَّة دليل على انتمائها إلى الطبقة الأخرى من المجتمع على الرَّغم من ملابسها المتواضعة.. هم هكذا معظمهم، يدرسون في مدارس خاصَّة، ويتحدَّثون بأكثر من لغة، ولكنّ اللغة الفرنسيَّة هي لغتهم المفضَّلة.. اللغة التي يتنفَّسون ويتعاملون بها. لم أعد لإزعاجها ومخاطبتها.. على الرَّغم من أنَّني رغبت بذلك، وعلى الرَّغم من البداية السيِّئة للتعارف، هناك ما جذبني إليها، جاذبيَّة عاصفة وغامضة تتحلَّى بها، بالإضافةِ إلى جمالها، مع كلّ ما فعلته لتدفنه وتُخفي إلى أيِّ حدٍّ هي فاتنة، فقد فشِلت في ذلك فشلًا ذريعًا.. كانت من نوعٍ خاصٍّ من النساء.. امرأة إذا صادفتها تُجبركَ على أن تُدير عنقك لتلتفت لها مرَّةً ثانية.

أدار السائقُ مفتاح الحافلة، وسمعنا جميعًا صوت المحرِّك وشعرنا باهتزازاتِ الحافلة. أغلق المحاسبُ البابَ, واستدارت الحافلة لتُغادر المدينة. الناسُ يبسملون ويتوكَّلون على اللَّه، وتلك الجميلة تحدِّقُ إلى

النافذة منبهرةً بالعتمةِ وأضواءِ المدينة، التي ننسحبُ منها شيئًا فشيئًا باتِّجاهِ الجنوب. شغَّل السائقُ موسيقى مغربيَّة، وأنا أتأمَّلُ من الخلفِ تفاصيل الغريبة وحركاتها من دون أن أجرؤ على الاقتراب, إلَّا بعد انقضاءِ ساعتيْن، عندما توقَّف السائقُ ليشتري كوب قهوة.. انتهز بعضنا الفرصة للنزول، وأنا أمرّ بها، سألتُها إن أرادت أن أجلب لها معي شيئًا من المقهى، فطلبت قارورة ماء.. عندما عدتُ بالماء، لم أستطع منع نفسي من التطفُّل. سينقضي المزيد من الوقتِ قبل أن أعرفها، عليَّ أن أجرِّب حظِّي معها مرَّةً أخيرة:

ـ هل تُمانعين إذا جلستُ إلى جانبكِ ورافقتكِ في هذهِ الرحلة؟

ـ المشكلة هي أنّك إذا جلست سترغبُ بالتحدُّث، وأنا أفضِّل أن أقضي هذهِ الرحلة نائمة.

جلستُ، وواصلتُ الحديث إليها:

ـ لكنَّكِ لم تنامِي منذ أقلعت الحافلة.

ـ هل كنتَ تراقبني؟

ـ ليس تمامًا، أحيانًا كنت أرمي بصري نحوكِ..

ـ اسمعْ.. إذا أردتَ الجلوس هنا فاجلس، ولكنْ لا تتحدَّث معي!

قالت ما قالته، وأشاحت بنظرها إلى النافذة.

ـ ولكن لماذا؟

ـ ...

ـ ما الذي يزعجكِ بشأنِي وأنتِ لا تعرفينني؟

ـ ...

ـ ماذا لو كنتُ بحاجةٍ إلى أن تسمعيني فقط؟ لم أتحدَّث مع أحد منذ سنةٍ كاملة.

ـ ...

ـ أنا يا أختي رجلٌ هاربٌ إلى مكانٍ لا حياة فيه لأُعاقبَ نفسي على خطاياي. لو تعلمين أيّ الحماقاتِ ارتكبتُ لما سمحتِ لي بالجلوس إلى جانبكِ. أُعاني منذ سنوات، لأنَّني آذيت كلّ الذين أحببتهم وكان

آخرهم والدتي. كيف أسامح نفسي على ما فعلته بها؟ لقد قتلتُها.. هل تفهمين ماذا يعني قتلتُها؟ قتلتُ أكثر إنسانةٍ أحبَّتني.

ـ قتلتَ أمّك؟

ـ قتلتُ أمِّي..

ـ كيفَ قتلتَها؟ لماذا؟

ـ تسبَّبتُ في موتِها، وهذا الذنب لا يتوقَّفُ عن تعذيبي.

ـ احكي لي..

ـ سأحكي لكِ كلّ شيء. ولكنْ قبل أن أبدأ الحكاية، دعينا نعود بالشريط قليلًا لنتعارف على الطريقةِ الكلاسيكيَّة، إذا كنتِ لا تمانعين، اسمي لمين، أنتِ ما اسمكِ؟

ـ جيم.

ـ ماذا يعني هذا؟

ـ ألف، باء، تاء، ثاء، جيم!

. اسمكِ حرف؟! هل هو اسمكِ الحقيقيّ، أم أنَّهم ينادونكِ جيم؟

. هو اسمي الحقيقيّ، الحرف المشترك بين اسم والديَّ جهاد وجنّات، كان شاعرًا وكانت روائيَّة، أرادا اسمًا خاصًّا لابنتهما. هذه هي حكاية اسمي التي مللتُ من شرحها لكلّ من يُقابلني.

. لماذا كنتِ ترفضين إجابتي عندما كنتُ أسألكِ؟

. لماذا توقَّعتَ أن أُجيبكَ؟ أنا لا أعرفك. وحتى بعد تعارُفنا هذا، بإمكاني التوقُّف عن الحديث متى فقدتُ اهتمامي به، وفي حال ما ألححت سيضطرّ أحدنا لتغيير مكانه.

. لن تفعلي..

. يعتمدُ هذا على مهارتكَ في قولِ الحكاية!

. بل يعتمدُ على سعةِ قلبِك. ثم لدينا رحلة طويلة أمامنا، فلماذا لا نتحدَّث؟ دعينا نقتل الوقت، وفي اللحظةِ التي تغادرين فيها هذهِ الحافلة، بإمكانكِ أن تفرغي رأسكِ من حكاياتي.

تجاهلتني في البداية حتى أتعبَ من الكلامِ وأغيِّر مكاني. تمسَّكتُ بخياري، علمتُ بأنَّها ستلتفتُ إليَّ في النهاية. أحسستُ بأنَّ مجيئي ورحلتي وفكرة سفري إلى تمنراست، كلّ هذا حدث عن سبق تخطيطٍ إلهيّ لأقابلَها. لقد عرَّيتُ لها جرحي وعاهتي، وهذا ما جذب اهتمامَها وجعلَها تُذيبُ الجليد بيننا، وربَّما في أعماقِ قلبِها، أحسَّت بأنَّني لستُ رجلًا سيِّئًا كلّ السوء. لن أقوم بإيذائِها، بل سأحتويها كلَّها كما ستحتوي جُرحي. عندما قلتُ لها إنَّني قتلتُ أمِّي، تسمَّرت نظراتُها وفتحت فمَها وهي لا تصدِّق بأنَّها تجلسُ بمحاذاةِ قاتلٍ. حدَّقت إليَّ بعينيْن واسعتيْن ترغبُ بالغوص في رأسي وتصفّحِ ذاكرتي بلهفة، لتعرف قصَّتي كلّها في ثانيةٍ واحدة.

أدار السائقُ مفتاح الحافلة، وسمعنا جميعًا صوت المحرِّك وشعرنا باهتزازاتِ الحافلة. أغلق المحاسبُ البابَ، واستدارت الحافلة لتُغادر المدينة. الناسُ يبسملون ويتوكَّلون على اللَّه، وجيم تحدِّقُ إلى النافذة منبهرةً بالعتمةِ وأضواءِ المدينة، التي ننسحبُ منها شيئًا فشيئًا باتِّجاهِ

الجنوب. شغَّل السائقُ موسيقى مغربيَّة، ورحتُ أتأمَّلُ يدَ جيم الموضوعة على حقيبتها؛ يدٌ شاحبة، أصابع نحيفة، أظافر مقوَّسة، خاتمٌ فضِّيّ واحدٌ على شكلِ ثعبانٍ يلتفُ حول إصبعها..

. قلتِ والدكِ شاعرٌ وأمُّكِ روائيَّة؟ هل هما معروفان؟

. أمِّي توفِّيت قبل أن تنشر روايتَها الأولى، ووالدي اعتزلَ كتابة الشعرِ بعد وفاتِها. لا أحد منهما اهتمَّ بأن يكونَ معروفًا، كانا يكتبانِ لنفسيْهما..

. أنا آسف بشأن والدتكِ، كم كان عمركِ عندما توفِّيت؟

. تسع سنوات! تسع سنواتٍ فقط.

. ما زال رحيلُها يؤلمكِ..

. عدا رحيلها المبكِّر، تؤلمني أشياء كثيرة..

. ومن أينَ أتيتِ؟ لستِ من وهران، لكنتكِ عاصميَّة.

. أتيتُ من فرنسا، عشتُ كلّ حياتي هناك.

ـ عشتِ كلّ حياتكِ هناك وتتحدَّثين لهجتنا من دون أن تلوي لسانكِ ولا تتعثَّري بحرفِ القافِ، الخاءِ أو العين، لا شيء في نبرتكِ أوحى إليَّ على أنَّكِ غريبة عن هذه البلاد؟

ـ في بيتنا، لم نكن نتحدَّث سوى بلهجتنا الجزائريَّة، والإنسانُ لا ينسى لغته الأولى.

ـ هل سيكونُ سؤالي عن عمركِ لائقًا؟ أراكِ صبيَّة صغيرة، وتتحدَّثين كعجوزٍ عجنت الحياة وخبزتها!

ـ عمري أربعة وعشرون عامًا، ولم أعجن الحياة، بل هي التي عجنتني، وأعتقد أنَّ عمر الإنسان لا يُقاسُ بالوقتِ الذي قضاه في هذا العالم، بل بكمّ الألمِ الذي تلقَّاه فيه.

جملتُها الأخيرة فتحت شهيَّة فضولي. أنا أيضًا تملَّكتني اللَّهفة لتصفُّح ذاكرة رأس هذه الصغيرة، هل هو اليتمُ وحده ما شوَّه طفولَتها أم

أحداثٌ أخرى؟ ثم هل هناك ما هو أشدُّ مرارةً من اليُتم؟ أن تولد وليس لكَ حضن تأوي إليه؟ أمٌّ تُطعمك، تُغطِّيك، تُزرِّر معطفك، تُناولك ملعقة الدواءِ، تُساعدك على إنهاء فروضك المنزليَّة؟ أنا أيضًا اختبرتُ اليُتم. كنتُ أرغبُ بإخبارِها بأنَّه قبل أن تموتَ أمِّي، فقدتُ والدي في سنٍّ مبكِّرة، وافتقادك للوالد يشبهُ بأن تُقيم في بيتٍ لا سقف له ولا أبواب، لا أحد في العالم بوسعه حمايتك من قسوةِ الآخرين.

- ٣ -

عشتُ الفقر منذ نعومةِ أظافري، ولكنْ ما يفعله الفقر هو إطالة أظافركِ وتقويتها، ويضاعفُ كراهيَّتكِ لهذا العالم، ويجعلكِ تتساءلين لماذا الحياةُ ليست عادلة؟ لماذا ليس مُتاحًا لجميعِ الأطفال أن يأكلوا اللحم كلّ يوم؟ أن يلتحقوا بالمدارس؟ أن يحصلوا على ألعابٍ يتسلّوا بها كغيرهم؟ وترينَ بأنَّ العالم يتَّسعُ لنا جميعًا، وعلى الرَّغم من أنَّ الإحصائيَّات التي تقول بأنَّ عدد الدجاجِ أكثر من عددِ الناس على وجهِ الأرض، يأكل واحد من الناسِ عشر دجاجاتٍ في الشهر، وآخر لا يأكلُ قطعة دجاج إلَّا في المناسبات، وكلّ ذلك بسببِ الأوراق التي لطَّخناها بالألوانِ وسمَّيناها نقودًا. نعم، رزم من الأوراقِ الملوَّنة قد تغيِّر حياةً بأسرها، وقد تُسهِّل حياة إنسان وتُعيقُ حياة آخر حتى يموت.. كنَّا العائلة التي يصعب عليها الحصول على رزمة الأوراقِ الملوَّنة تلك!

عن ماذا أحدِّثكِ؟ عن عقدةِ الموزِ مثلًا؟ كنَّا نمرّ على البائع الذي يقف خلف طاولة الموز، وكنت أتجاوزه وأدير عنقي وأستمرّ بالتحديقِ

إليه. تجرُّني أمِّي من يدي وتُدير رأسي، فثمنه كان أغلى ممّا يتحمَّله جيبُ أمِّي. كبرتُ وأكلتُ الكثير من الفاكهة، لكنَّ الموز ما زال فاكهتي المفضَّلة بسبب حرماني منه في طفولتي.. أتذكَّرُ أيضًا كم كنَّا نأكلُ المعجَّنات، لأنَّها الأرخصُ ثمنًا في السوق. أمَّا اللحمُ العزيز، فنستمتعُ برائحتهِ وهو يُطهى في المرقِ أو المقلاة، ونجلسُ في المطبخ ننتظر استواءه بصبرٍ، ثم نأكله على مهل ونمصّ العظم، ونلحسُ الطبقَ الذي قدَّموا لنا اللحم فيه.. كبرتُ ودعتْني إحدى عشيقاتي إلى مطعمٍ إيطاليٍّ فخم، ودُهشتُ حين لم أجد في لائحةِ الطعام إلَّا أصناف الباستا بأسعارٍ خياليَّة! قلتُ لها: «كيفَ ندفع مبلغ ألف دينار مقابل معجَّنات تُباع في السوق بأربعين دينارًا؟» قالت: «يقدِّمونه مع الجبن والفطر والكريمة»! وأكلتُه كارِهًا ومُكرَهًا. فهمتُ بأنَّ أيَّ تصرُّفٍ تقومُ بهِ مكرهًا تحتَ تأثير الضعفِ والذلّ لن تقوم بهِ حين تُصبحُ حرًّا ومُخيَّرًا.

كنتُ أبيع العلكة في الصيفِ، وفي أحد أيَّامِ عملي، أزعجتني معدتي بتقلُّصاتها، إنَّه ألمُ الجوع.. ألمٌ يجعل كلّ حواسّكِ وتفكيركِ يتركَّزُ على

لقمةٍ تقذفين بها إلى جوفكِ، حاجةٌ حيوانيَّة تجعلكِ تتصرَّفين بخسَّة وتجلبين العار لنفسكِ.. ألمٌ لا يعرفهُ سوى الفقراء والمساجين. عندما يجوع الآخرون، فإنَّهم يفتحون الثلَّاجة ويحضرون شيئًا يأكلونه، أو يوقفون سيَّاراتهم ويبتاعون أكلًا جاهزًا. ساقتني معدتي إلى شارعٍ مليء بالمطاعم، ففعلت بي تلك الروائح ما تفعله رائحة الويسكي بشخصٍ مدمنٍ على الكحول. وقفتُ أمام آنسةٍ مدلَّلة أعرضُ عليها العلكة. كانت تجلسُ تحت شمسيَّة خارج المطعمِ تتناول طبق سمكٍ، وقبلت شراء قطع علكٍ بطعمِ النعناع كي ينتعش فمها بعد تناول وجبتها، وكان كلبُها جالسًا بمحاذاة ساقِها، يفتح فمه، فيسيل لُعابه، وكنتُ أفتح فمي تمامًا كالكلب، وكاد لعابي يسيل! رأيتها تحمل سمكة حمراء متدلِّية لتُطعم كلبَها، وفي تلك اللحظة، وأنا أُعيدُ لها ما تبقَّى من النقود، تمنَّيتُ في قلبي لو وُلدتُ كلبًا يعيش في منزل هذهِ الآنسة الثريَّة!

هل ستشمئزِّين منِّي إذا عرفتِ بأنَّني كنتُ أنبشُ قمامات الأثرياء؟ أختارُ ڤيلَّا جميلة وأذهبُ إلى قمامتها وأنبشُ الأكياس كأيِّ قطٍّ

متشرِّد. أعثر أحيانًا على فاكهةٍ نصف فاسدة، أو فخذ دجاجٍ مشويٍّ، وما يشبه هذا وذاك.. جرَّبتُ التسوُّل مرَّةً واحدةً. رأيتُ سيِّدةً تغلق سيَّارتَها وتتجهُ إلى السوبر ماركت، وكنتُ أشتهي تذوُّق قطعة شوكولاتة. ذهبتُ إليها، وقلتُ: «يا خالتي، أريد خمسين دينارًا لأشتري قطعة شوكولاتة!» وبالكادِ نظرت إليَّ وهي تمتنع قائلة: «اللَّه ينوب». رأت أمِّي ذهابي إليها، رأت وجهي الذليل وأنا أطلبُ منها قطعة نقديَّة. انتظرتْ رحيلَها وهرولت إليَّ غاضبة، دخلتْ معي المحلّ وسحبت ورقة نقديَّة هي كلّ ما كانت تحملُ في تلك المحفظة، واشترت لي عشر قطعٍ من الشوكولاتة الغالية. شعرتُ بتأنيب الضمير، قلتُ لها: «لا يا أمِّي، أرجوكِ، واحدة تكفي، لا ما عدتُ أُريد شيئًا، دعينا نخرج»، لكنَّها رمقتني بنظرةٍ حادَّة تعني بها اخرس. لما عدنا إلى البيت، أرغمتني على أكل الشوكولاتة، ورفضت مخاطبتي، ثم قالت أسامحكَ بشرطٍ واحد: ألَّا تمدّ يدكَ مرَّةً أخرى إلى أحد، أُريدُ من ابني أن يكون رجلًا، هل تُريدني أن أخجل بك؟ هززتُ رأسي نافيًا وبقوَّة. ومنذ ذلك اليوم، توقَّفتُ عن نبش القمامة، وتوقَّفتُ عن مدّ يدي للآخرين.. ما زال طعم الشوكولاتة مُرًّا في فمي.

- وأينَ كانَ والدكَ طيلة هذا الوقت؟

- تحتَ التراب!

توفِّيَ حينما كان عمري سبع سنوات في شتاءِ 1994، وأكثر ما أذكرهُ عنه بوضوح هو جنازته! كانت كابوسًا حقيقيًّا لطفلٍ لم يمهّد لهُ أحد خسارته الفادحة. رأيتُ أمِّي منهارةً على الأرض ببطنِها في الشهر الثامن من حملِها بأختي إكرام، تنوحُ بعينيْن متورِّمتيْن من البكاء. أرى النساء يندبن وجوههنَّ ويعدِّدن خصال المرحوم، بينما أشعرُ بالخوف والحزن وبالرغبةِ بالهربِ من المكان. وعندما جلبوا أبي، لم يسمحوا لي بإلقاءِ نظرةٍ عليه، لأنَّه ماتَ مذبوحًا!

أنتِ لم تعيشي في الجزائر خلال سنواتِها الدامية. عشر سنواتٍ كاملة من الحربِ الأهليَّة، نزفنا فيها دماءنا حتى ما عدنا نعرفُ مَن يقتلُ مَن. لا بدَّ من أنّكِ سمعتِ عن التفجيرات التي استهدفت الأسواق والمحطَّات، وسمعتِ عن المجازر التي كانت تمحو قرًى بشيوخها وأطفالها وحيواناتها، قرية كاملة يتمّ تصفية سكَّانها! هل سمعتِ عن رُضَّعٍ كان يتمُّ غليهم في القدور؟ وعذارى كنَّ يُغتصَبن بعصيّ المكانس؟ هل

سمعتِ بأنَّهم كانوا يقتحمون جميع الأماكن، المقاهي، البارات، صالونات الحلاقة، ويقتلن العرائس في فساتينهنَّ البيضاء؟

كنّا نعيشُ في قريةٍ اسمُها قرطوفة، تبعد ستَّة كيلومترات عن مدينةِ تيارت التي تضرَّرت كثيرًا من الحرب بسبب طابعها الجبليّ الوعر الذي كانَ وكرًا للجماعاتِ المسلَّحة. ستجدين اختلافًا في تسميةِ هؤلاء بحسبَ الانتماءِ السياسيّ. في عام 1992، ألغى المجلس الأعلى للأمن الانتخاباتِ التشريعيَّة بعد الفوز الساحق الذي حقَّقته الجبهة الإسلاميَّة للإنقاذِ. لم نكن نعيش زمنَ الانتخاباتِ المزوَّرة في ذلك الوقت.. ولم يحسب كلٌّ من الجيش والحزب الحاكم بأنَّ الشعب سيتجاوب مع فكرةِ الدولة الإسلاميَّة العادلة التي ستغيِّر ملامحَ البلادِ وتقمع حرِّيَّاتَ الأفرادِ عن طريقِ الإكراهِ في الدينِ.. كانت الجزائر في طريقها لارتداءِ ثوبِ أفغانستان الأسود.

تمَّ اعتقال آلاف الإخوان من أعضاءِ حزب جبهةِ الإنقاذ وتصفيتهم ونفي رموزهم. وكردٍّ فعلٍ، قاموا بدعوةِ المواطنين إلى الالتحاق بالجبال لأجل محاربةِ الطغاة. في البداية، كانوا يستهدفون الثكنات العسكريَّة

والحواجز الأمنيَّة، ويركِّزون على تصفيةِ رموز الحكومة، كلّ من يعمل معهم وباسمهم؛ عساكر، شرطة، جنود، موظَّفون في الدوائر والبلديَّات. وبعد ذلك، بدأت الدائرة تتَّسع إلى عائلاتِ المعنيِّين بالأمر، زوجاتهم، أطفالهم، أشقَّائهم، ثم أصبح كلّ من ليسَ معهم ضدَّهم. وعودة إلى التسمية، ستجدين ممَّن يتبنَّى فكرهم يسمِّيهم مجاهدين، والآخرون الذين يروْن في تمرُّدهم عنفًا وتطرُّفًا يسمُّونهم ببساطة إرهابيِّين. الحكومة أيضًا لم تقصِّر في تصفية أهالي الإرهابيِّين انتقامًا وضغطًا، حتى الذين لا شأن لهم بالحرب، فالشابُّ الذي التحق بالجبل، يتمُّ خطفُ أمّه أو أبيه وتعذيبه والتنكيل به. لقد خسرنا في هذهِ العشريَّةِ الكثير من الأبرياء الذين لا ذنب لهم سوى أنّهم وُلدوا في المكان والزمنِ الخطأ.

في الشتاءِ الذي خسرنا فيهِ والدي، كنَّا قد نزحنا من قريتنا إلى مدينةِ وهران. باع أرضهُ، واستسلمَ للفقر، وصرف كلّ ماله ليشتريَ بيتًا يتألَّف من مطبخٍ وغرفتيْن في حيِّ الحمري. ذهبَ أبي لاستخراجِ وثائق تلزمه من هناكَ، أنهى أشغالهُ نهارًا وسهر برفقةِ صديقٍ له في

سيَّارةٍ أضواؤها مطفأة في إحدى ضواحي قرطوفة. كان صديقه يشربُ عبوة بيرة وأبي يدخِّن سجائره. أرسلا شابًّا يافعًا ليحضر لهما الطعام. وبعد دقائق من ظهور الشابّ، ظهر أربعة رجال ملتحين يُشهرون أسلحتهم. أسقط الشابُّ الكيس ورفع يديْه، وأقسم لهم بأنَّه لم يكن يدخِّن ولا يشرب معهما، بل أحضر الأكل لقريبه فقط.

أقسم لهم الصديق الثمل بأنَّه لن يضع في فمه قطرة خمر بعد اليوم، ولكنَّ وقت التوبةِ كانَ متأخِّرًا. أمَّا أبي، فلم يقل شيئًا، إذ قرأ في عيونهم نهايته. لم يمنعه ذلك من محاولةِ الفرار، ركض طمعًا في رصاصةٍ ساخنة تُنهي حياته بسرعة، لكنَّهم بخلوا عليه حتى بهذا الموتَ السريع. أطلقوا عليه الرصاص في ساقيْه، ثم التفتوا ليبدأوا بالصديق، فسخَّنوا كوبًا من الزيتِ وصبُّوه في فمهِ، ثم بتروا أصابع أبي قبل أن يبدأوا بذبحهِ بمنشارٍ فصلَ رأسه عن جسده. الشابُّ كان يشاهدُ كلّ هذا وهو يرفعُ يديْه كما أمروه. روى للجميعِ كيفَ مات أبي وصديقه بعد أن أخلوا سبيله.

قلتُ: «كان الوقتُ شتاءً، والبردُ في تلك القرية الجبليَّة لم يكن يُحتمل، لذا كلٌّ من والدي وصديقه كانا يرتديان جلَّابيَّتيْن منسوجتيْن من وبرِ الجمل. علَّقوا جلَّابيَّة أبي في شجرة، وثبَّتوا رأسه وحدهُ فيها، تاركين جسده على الأرض في مكانٍ يبعد بضعة أمتار، وفعلوا الشيء نفسه برأس صديقه على شجرةٍ أخرى. كلّ هذهِ الحكاية بتفاصيلِها المريرة سمعتُها في جنازةِ أبي، ولا شيء في رأسي عنه غير هذهِ التفاصيل القاتلة!

إذا أردتُ التحدُّث عن الذكرياتِ التي تجمعني بهِ، فلن أجد ما ينبغي قوله كأيِّ ابنٍ يحملُ في ذهنه ذكريات واضحة. لم يكن والدي أبًا رائعًا ولا أبًا سيِّئًا. كان رجلًا عاديًّا، لا يضربني، وفي الوقت نفسه لا يحتضنني. لم يكن يقسو عليَّ ولا يلعبُ معي.. هل تعلمين لماذا قد يكونُ الأبُ باردًا لهذا الحدّ؟ حاولتُ أن أجد أعذارًا لائقة لبرودهِ، وفهمت بأنَّه الفقر الذي يجعلُ الإنسان منشغلًا عن عيش علاقته الطبيعيَّة بأحبَّائه. لقد أجهدَ والدي نفسه بالعمل ليوفِّر لنا اللقمة، لم

يدرس ولم تكن بحوزته شهادات. لذا، كان يعمل في كلِّ شيء.. في البناء وفي دهن البيوت والسمكرة، يخرجُ صباحًا ويعرضُ خدماته على معارفه في المقهى، يعمل ويعود متعبًا، يفكِّر بمستقبلي وبمستقبل أختي إكرام النائمة في رحمِ أمِّي.. يضربني فقط حين أحصل على علاماتٍ متدنِّية في المدرسة: «هل تريدُ أن تصبح حمارًا مثلي؟» هذهِ هيَ الجملة الوحيدة الذي أسمعها في رأسي واضحة بصوتهِ!»

- ٤ -

لو كنَّا إنسانيْن فارغيْن من الأحزان لتعارفنا بطريقةٍ أخرى، كأن أطرحَ عليكِ تلك الأسئلة التقليديَّة عن الموسيقى والكتبِ والأفلام.. عاداتكِ، هواياتكِ، ماذا تحبِّين وماذا تكرهين؟ عن دراستكِ وتخصُّصكِ ومكانِ عملكِ، كنتُ لأسألكِ أيضًا عن أوَّل حبٍّ وأوَّل قبلةٍ وتفاصيل المواعيد الغراميَّة! وكنتِ لتسألي كلّ مرَّة ماذا عنكَ؟ حتى نكوِّن انطباعًا قبل الاستسلام لمشاعرنا وأحكامنا عن بعضنا. ولكنْ لا، اللَّه جمع مخلوقيْن متعبيْن ليضع كلٌّ منهما رأسه على كتفِ الآخر.. ليحاول كلٌّ منهما ترميم كسور الآخر، أنتِ لم تقولي شيئًا بعد، ولكنَّني أراها انكساراتكِ في عينيْكِ، أتصفَّحها جروحكِ الغامضة، نحن هنا يا جيم لنتعافى بالاعترافِ كأولئك المرضى الذين يقبلون بالتنويم المغناطيسيّ من أجل الغوص في ذكريات بعيدة، نرفضُ العودة إليها ونحنُ في اليقظة.

سكتنا، أتعبني الكلام وأرهقها الإصغاء.. لم أكن أنوي الحديث عن والدي، وجدتُ نفسي أستعيدُ كلّ ما عشتهُ في ذلك العمر وما سمعتهُ في جنازةِ أبي. إذا كان بعض الأولياء يخوِّفون أبناءهم بفكرةِ الغول، فلم يكن شيء يرعبني كطيفِ أبي ورأسهِ المعلَّق في الجلّابيَّة البُنِّيَّة. تطلَّب منِّي الأمر سنوات حتى تصالحتُ مع فكرةِ غيابهِ واغتيالهِ بذلكَ الشكل.. كنتُ بحاجةٍ إلى فاصلٍ من الصمت أُلملم فيهِ شجاعتي لمواصلةِ الحكاية..

اقتربتْ منِّي جيم واضعةً برأسِها على كتفي، فرحتُ باطمئنانِها لي، إنَّها ترى فيَّ ما يؤهِّلني لصداقتِها. كم عاشت من العمرِ حتى تختمر كلّ هذهِ الأحزان في قلبِها؟ أخرجتُ هاتفي ووصلتُ السمَّاعات، وضعتُ واحدة في أذني والثانية في أذنها، وبدأتُ بتشغيل الموسيقى.. أغنية لفيروز. لم أكن أحبُّ هذهِ المطربة، أرى الناس يدمنون صوتَها من دون أن أفهم لماذا! والإنسانة التي فتحت قلبي لأغانيها كانت جارتي ناديا، كنتُ أنشغل بالإصلاحاتِ في بيتها على صوتِها. وحينها، بدأتُ أركِّز في الكلمات وأربطها باللحن، حتى وجدتني ذات

صباح أدندن أغنية لها؛ ومنذ ذلك الوقت، أصبحتُ مدمنًا آخر على صوتِ فيروز: «من يوم تغرّبنا وقلبي عم بيلمّ جراح/ يا ريتا بتخلص هالغربة تا قلبي يرتاح/ يا ريت منرجع نتلاقى وتفرح بِينا الدار/ وقلوب الكانت مشتاقة لا تحن ولا تغار».

سقطت قطرة على يدي، رفعتُ وجهَ جيم ورأيتُ الدموع الشفَّافة تغلّف عينيْها الحزينتيْن: «هذه الأغنية تذكّرني بأمّي»، أنتَ لا تتذكَّرُ جيّدًا ما جمعكَ بأبيك، أنا أذكر كلّ لحظةٍ عشتُها مع أمّي، في رأسي ذكريات واضحة وقويَّة عنها..

- يبدو أنّكِ لم تتعوَّدي يومًا على غيابِها..

- لأنَّها حاضرة دائمًا في قلبي، حتى جهاد لم يحلف يومًا برحمتِها، بل بحياتِها، والذين يتعاملون معه يصدِّقونه ويثقون به ما دام قد ذكر جنَّات على لسانه!

- وبلا شكّ لم يتزوَّج بعدها!

ـ ليته تزوَّج، عذَّبني بها كما عذَّبتْه! ظلَّ يقارنني بها ويرغبُ بأن أكون نسخة عنها في لباسها وحديثها ومشيتها، وكلَّما اخترتُ ذوقًا مغايرًا وتصرَّفتُ على طبيعتي كرهني واشمأزَّ منِّي، لأنَّني أقتل ذكرى جنَّات. أرادني ناعمة مثلها، كان صوتُها خفيضًا وبالكادِ يُسمع، وكنتُ مختلفة عنها كلّ الاختلاف؛ طباعي حادَّة ومزاجيَّة وأتحدَّث بصوتٍ مرتفع، ممَّا يجعلني في عينيْه أفتقر إلى الأنوثة، وممَّا يجعله يخجل بي أمام معارفه وأصدقائه.

ـ أتشبهينَها لهذا الحدِّ؟

ـ وجهي نسخة عن وجهها، حتى الشامة الصغيرة فوق حاجبِها الأيسر موجودة في وجهي!

فتحت حقيبة يدها وأخرجت صورةً لوالدتها، فأضأتُها بضوء هاتفي لأتأمَّلها جيِّدًا. كانت السيِّدة جنَّات تجلس على أريكة خضراء بمحاذاة جيم وعمرها ثلاث سنوات، ترتدي ثوبًا أزرق على الطراز المغربيّ. رأيتُ السيِّدة جنَّات تميل نحو ابنتِها وهي تعانقُها باسمة. كبرت جيم لتكون أمّها، الشعر الأسود نفسه، العينانِ الواسعتان،

اللون الأخضر، الشفتان الصغيرتان في امتلاء، لكنَّ الانطباع التي تتركه السيِّدة جنّات بأنَّها امرأة دافئة، متصالحة مع نفسها، مقبلة على الحياة، يختلف عن الانطباع الذي تتركهُ جيم، فهذه الأخيرة صلبة، حادّة، باردة في التعامل، متشائمة وقليلة الابتسام! أعدتُ لها الصورة، فرمَقتها جيم بنظرةٍ غامضة، نظرة تحمل الكراهية والحبّ معًا. تأبَّطتْ ذراعي مجدَّدًا، وأعادت وضع رأسِها على كتفي. عادت إلى صمتها، وعدنا إلى سماعِ الموسيقى التي كسرت سكون الليل وأضاءت العتمة بنغماتها.

- ٥ -

أمّا أنا، فلم أعرف هذا الفقرَ الذي تحدَّثتَ عنه! كلّ ما كنتُ أطلبه أحصلُ عليه، كلّ لعبةٍ ألهو بها أكسرُها لأحصل على أخرى أغلى منها، وفي خزانتي, فساتين بكلِّ الألوان وعشرات الأحذية والقفّازات. كنَّا نرتاد مطاعم فخمة، ونذهب إلى السينما ومسارح الأوبرا. بالطبع, كنّا معنيِّين بما كان يحدث في الجزائر من تفجيرات ومجازر في أثناء الحرب، فترى أمِّي تضع يدها على فمها متأثِّرة, ويلعن أبي الإسلاميِّين. وبعد انتهاءِ النشرة الإخباريَّة, نتابع حياتنا كأنَّ شيئًا لم يكن! كلَّا، لم أختبر ألمَ الجوعِ، وقد تستغربُ إذا عبَّرتُ لكَ عن حسدي! كنتَ طليقًا في الشوارعِ، بينما كنتُ أسيرة البيت، ممنوعة من التجوُّل حافية, ومن تلطيخ ملابسي بالتراب، وعليَّ أن أبقى دائمًا نظيفة وعاقلة وبعيدة عن أماكن الخطر.

وُلدتُ في مدينةِ بجاية ، في اليومِ الأخير من شهرِ مايو. عشتُ فيها ستّ سنواتٍ فقط، ثم رحلنا إلى فرنسا. والدي جهاد أوقاس أمازيغيّ

أبًا عن جدّ، رجلٌ نحيفٌ وطويلٌ، لديه جسدٌ شابٌّ لا يشيخ، وملامحهُ حادَّة تمنحُ الانطباع بأنَّه جادٌّ وصعب، وعينان عسليَّتان تحت كلٍّ منهما أربعة خطوطٍ من التجاعيد، وأنف طويل وشفتان رفيعتان. لم أره يومًا يعقد ربطة حول عنقه أو يضعُ ساعةً على يده، ولم يخلع خاتم الزواج حتى بعد وفاةِ أمِّي بسنوات. لديه يدان جميلتان مثل أيادي الأطبَّاء الناعمة، وبرعَ في التحدُّثِ باللغة الفرنسيَّةِ والإنجليزيَّة، ودرس اللغة العربيَّة في جامعةِ الجزائر العاصمة، حيثُ قابلَ أمّي وأحبَّها..

حدث لقاؤهما الأوَّل في مكتبةِ الجامعة. تأمَّلَ امرأة جميلة تتجاوز باب المكتبة، راقبَ تنقُّلها من جناحٍ إلى آخر حتى أنهت جولتَها، لملم أوراقه كيفما اتَّفق وتبعَها ليعرفَ عنوانَها، ظلَّ يتعقَّبُها ستَّة أشهرٍ كاملة كظلِّها، علمَ في أثنائها بأنَّها تدرسُ اللغة العربيَّة أيضًا، واسمُها جنّات زياني ومن أصولٍ تلمسانيَّة. أصبحَ مهووسًا بها، في الأسواق يُراقبُ جولاتها ويتأمَّل ما تضعُ يدها عليه، ويلحقها وهي تذهب إلى الحمّامِ الجماعيّ، ويجلسُ في المقهى المقابل يترقَّب خروجها حتى يراها تغادره

بوجنتيْن ورديَّتيْن. لطالما كان أبي حريصًا على روايةِ علاقتهِ بأمِّي بالتفاصيل، ثم فهمتُ لاحقًا لماذا يُعيدُ عليَّ ما أعرفهُ مسبقًا، وكأنَّه بتلك الإعادة يمرِّن نفسه على الحفظ مثلما يفعل المصلُّون وهم يردِّدون الآيات القرآنيَّة كلّ يوم حتى تصبح جزءًا راسخًا في الذاكرة.. سألته لماذا انتظرتَ ستَّة أشهرٍ كاملة لتبوحَ لها بمشاعرك؟ فأجاب:

«وقتنا لا يُشبهُ وقتكم، في وقتنا كنّا نستمتعُ بذلكَ التروِّي، نتركُ الحبَّ يتخمَّر في قلوبنا، ونسمحُ له بإطلاقِ جذورهِ فينا حتى يصبح استئصالهُ منّا بعد ذلك قاتلًا، وتُصبح مسألةُ الارتباطِ بإنسانٍ نحبُّه مسألة حياة أو موت». كان أبي يبحثُ في النساءِ عن بطلتهِ الخاصَّة، بطلة بفتنة آنّا كارينينا أو إيمّا بوڤاري، بطلة حنونة مثل شارلوت غوته، وملهمة مثل إلزا لويس آراغون.. يبحثُ عن امرأةٍ استثنائيَّة يعبدها حتى آخر يومٍ من حياته، تفجِّر طاقاته وتُلهمه كتابة الشِّعر، وكانت تلكَ المرأة جنّات.

كثيرًا ما انتقدتُ الحبَّ العنيف الذي حمله لها، وقلت: «ربَّما لم يكن أكثر من افتتان، لأنَّ أوَّل ما شدَّكَ إليها هو جمالُها، لم تنقِّب في

دواخلها ولا تعرَّفتَ على عقلها، مكثتَ ستَّة أشهرٍ تلاحق امرأةً تجهلها»، قال: «التعارفُ حدثَ خلال ستَّةِ أشهرٍ من التلصُّص، هل تحسبيني كنتُ أركض وراءها لأتأمَّل انحناءاتها؟ لا أنكرُ أنَّني تفحَّصتها من رأسها إلى أذنيْها حتى كعب قدمها. لكنْ، إضافة لذلك، تعرَّفتُ على ذوقها في كلِّ شيء، انتبهتُ لمداخلاتها في المحاضرات، وكوَّنتُ في ذهني تصوُّرًا قويًّا عنها».

ستَّة أشهرٍ وأنا أكتبُ فيها قصائدي. وفي يوم جمعتُ فيهِ شجاعتي لأحدِّثها، كسرت قلبي، رأيتُها جالسة في حديقةِ الجامعة تُعيدُ لفَّ الشالِ الأبيض، تحجَّجتُ بالروايةِ التي كانت تحملُها لسيمون دو بوفوار، عنوانها «المدعوَّة»، وسألتُها: «هل تسمحين لي بطرحِ سؤالٍ ليس من شأني؟» كان ردُّها قاسيًا ودافئًا في الوقتِ نفسه، قاسيًا من ناحية مضمون الردّ، ودافئًا بالطريقةِ التي تحدَّثت بها. أجابت بنبرةٍ حنونة: «ولماذا تسمحُ لنفسك بطرحِ سؤالٍ ليس من شأنك؟» قلتُ: «لأنَّني قارئ، والقرَّاء فضوليُّون تمامًا كالكتَّاب الذين يؤلِّفون هذهِ الروايات». ردَّت: «ما دام السؤالُ يتعلَّقُ بالكتابِ لا أُمانع»، قلتُ:

«لقد قرأتُ هذهِ الرواية باللغةِ الفرنسيَّة وكرهتُها.. لم تحرِّك في نفسي حتى الفضول لمعرفةِ نهايتها!» ردَّت: «ما وجدتُه سيِّئًا وجدته فاتنًا، تلك العلاقة الثلاثيَّة المشبوهة شدَّت حواسِّي لالتهامِ الحكاية؛ وأمَّا ما يجعلني أقرأ الكتاب، فلأنَّ إحدى شخصيَّات هذهِ الرواية تشبهني».

ـ عن أيِّ شخصيَّةٍ تتحدَّثين؟

ـ لا أرغبُ بالإفصاحِ عنها..

ـ ماذا لو عثرتُ عليها بنفسي؟

ـ أنتَ لا تعرفني!

ـ لو عثرتُ عليها كيفَ ستكافئينني؟

ـ أنت، ماذا تريدُ؟

ـ أريدكِ أنتِ!

ـ اطلُبْ مكافأة منطقيَّة، أنا لستُ شيئًا تريدهُ فتحصل عليه.

ـ ماذا لو جرَّبتِ؟ نتواعد وتصبحين حبيبتي..

ـ لديَّ حبيب!

رتَّبت خصلاتِ شعرها الأماميَّة، وحملت أوراقها بين ذراعيْها، ووقفت تتأهَّبُ للرحيل:

ـ إنّها كازافيير!

التفتت إليَّ مندهشة، آخر ما انتظرتْهُ من هذا الرجلِ الغريب أن يعرِّي شخصيَّتها في بضع دقائق. هي التي تحسبُ نفسها غامضة تكرهُ من يكتشفُ أسرارَها التي تنسجها ببراعة، كيف لقارئ غريبٍ لم يكمل قراءة رواية أن يعثر بهذهِ السرعةِ على شخصيَّةٍ تطابقُها؟

ـ نعم، تُشبهينَها بعض الشيء، مزاجيَّة مثلها، لا يمكن لأحدٍ في العالم أن يتنبَّأ بمزاجكِ، الأمر يشبه أن يتنبَّأ أحدهم بالطقس في فصلِ الربيع. هل تحبِّين أن أعدِّد لكِ وجوهك؟ وجهكِ الغاضب بشفاهكِ المنكمشة؟ وجهكِ الحزين الجاهز للبكاء؟ وجهكِ الحيويّ كطفلةٍ

استيقظت للتوّ؟ وجهكِ الهادئ كصفحةِ البحرِ صيفًا؟ وجهكِ الهازئ المستفزّ؟.. أعرفها كلّها وجوهكِ.

. منذ متى؟

. نحنُ ندرسُ في الجامعةِ نفسها، التخصُّص نفسه، أنتِ فقط لا تلاحظين أحدًا سواكِ.

. تتّهمني بالنرجسيَّةِ الآن؟

. يحقُّ لامرأةٍ مثلكِ أن تنشغل بنفسِها..

. لستُ كذلك. أنا فقط لا أتطفَّل على أشخاصٍ لا أعرفهم..

. لا وقت لديَّ لأُراقب أيًّا كان، أنتِ خاصَّة.

. أنتَ تتذاكى، ولكنَّني في النهاية أؤَكِّدُ لك بأنَّني لم أكن أكذب حين قلتُ لديّ حبيب!

. سأقبلُ بالصداقةِ إذا سمحتِ..

- بشرطٍ واحد، لا تُخاطبني حتى أخاطبك.

- وكيفَ يتواصلُ الأصدقاء إذن، يا جنّات؟

- وتعرفُ اسمي؟ بوسائل كثيرة كالرسائل يا؟

- جهاد!

- آخر ما ينقصني مشكلة مثلكَ يا جهاد..

رغبتُ بخنقها لتُعيد ابتلاعَ ما قالته، حسبتُها أقلّ حدَّة وأكثر بساطة، قست عليَّ بأكثر من ردٍّ واحد، ولم تزدني قسوتُها إلَّا تعلُّقًا بها. كنتُ أريدُها هكذا صعبةً ومستحيلة، تضعُ بيني وبينها العوائق لتوهمني بأنَّ الوصول إليها مستحيل! كان بإمكانِها أن تمنحني رقم هاتفِ بيتِ خالتها، أو تقترحَ عليَّ أن نتقابل من وقتٍ لآخر.. لكنَّها اختارت الورق والرسائل، اختارت أكثر الوسائلِ دفئًا وحميميَّة. راهنت عليَّ مراسلًا جيِّدًا، وعلمت بأنَّ لديَّ الكثير لأقولهُ لها.

* * *

ظنّت جنَّات أنَّها ستجدني مفتونًا بجمالِها، لم يحدث شيء من هذا! منذُ اعترافي لها في الحديقةِ، ابتعدتُ عنها كأنَّ ذلك الحوار لم يحدث بيننا. مرَّ شهران ونحنُ على ذلك الحال.. علمتُ بأنَّ أيَّ إطراءٍ إضافيٍّ منِّي سيجعلني أخسرها. مَنْ مثلُها تريدُ رجلًا معتدًّا بنفسه، لا رجلًا منهزمًا يبكي ليلًا أمام نافذتها. أحببتُ عذابي اللذيذ الذي اخترتهُ لنفسي حتى وصلتني رسالة منها عبر صديقةٍ مشتركة لنا اسمُها ديهيا، وهي أمازيغيَّة مثلي، ومن المدينةِ التي جئتُ منها. بدأت رسالتها بـ: «صديقي جهاد»، واعتذرت لي فيها عن فظاظتها، ولمحت إلى إعجابٍ خفيٍّ من خلال سعادتها بالتعرُّف على رجلٍ مثقَّف. حاولت أن تكون رسميَّة قليلًا كما تكتبُ الصديقاتُ بحذر، وكتبت لي عن متاعبِ الحياة وشوقها لبيتهم في بلدةِ الغزوات ، عن الوحشةِ في العاصمة، وبأنَّ المطربة فيروز هي صديقتها الوحيدة..

في رسالتي الأولى لها، نزعتُ قلبي من صدري، وجلستُ في المقهى لأكتب، منعزلًا عن الموسيقى وأيّ شيء سيجعلني أبدو عاطفيًّا. كنتُ جافًّا بالطريقةِ التي يكتبُ فيها أستاذ رسالة لطالبته ولا يرغبُ

بالتورُّط بمشاعرها بأيِّ شكل. أبديتُ إعجابي بلغتِها وشفافيَّتها في الكتابة، نصحتُها باستغلال وحدتِها في موهبة خاصَّة كالكتابةِ. وعن الفنِّ، حدَّثتها عن مغنّيةٍ جزائريَّة تُدعى رينات لورانيز تمَّ التعتيم على صوتِها بسبب ديانتها اليهوديَّة.

كانت تكرهُ القراءةَ لفردريك نيتشه، وكنتُ أعدُّهُ معلِّمي. قالت هو مجنون بلا جدال، لكن لا يُعقلُ أن نقدِّر كلّ ما يخرجُ من أفواه المجانين على أنّه حكمة!

كانت أيضًا تستمتعُ بقراءةِ الروايات التي كُتِبت بلغةٍ شاعريَّة، وطلبتُ منها أن ترمي تلك الروايات من يدها وتبدأ بقراءةِ رواياتٍ حقيقيَّة! فالرواية لا ينبغي أن تكونَ شعرًا، لأنّنا لو رغبنا بترجمةِ روايةٍ لتلك الروائيَّة إلى لغةٍ أخرى وصفَّيناها من الزوائد الشعريَّة، فلن يبقى من الروايةِ شيء! طلبت رأيي مرَّةً في قصَّة طويلة، قلتُ لها: «عليكِ إعادة كتابةِ هذهِ القصَّة عشر مرَّاتٍ لتصبحَ قصَّةً جديرة بالقراءة». عدَّدتُ لها أخطاءها بإيجاز: المقدِّمة تصلحُ لمقال، واللغة فائضة بحاجةٍ إلى التكثيف، مثل التفاصيل التي لا تهملينها تصلحُ للروايةِ، تتحدَّثين

أكثر ممَّا تتحدَّث شخصيَّاتكِ. تساءلت من أينَ لي أن أتحلَّى بهذا الحسِّ النقديّ؟ أخبرتُها بأنَّني على الرَّغم من ذلك لم أتمكَّن من كتابةِ قصَّة واحدة، لأنَّني أُدرك انعدام موهبتي في كتابتها.

لم تتحمَّل جنَّات جفائي لوقتٍ طويل، وسرعان ما بدأت تتذمَّر من الرسائل الجافَّة التي أرسلُها: «وكأنَّ أحدهم أجبركَ على كتابتها واضعًا مسدَّسًا على رأسك، فإمَّا أن تكونَ صديقًا حقيقيًّا أو لا تكون! أنتَ تتحدَّث كرجلٍ آليٍّ، توقَّف عن التفكير بكلِّ جملةٍ قبل كتابتها إليَّ، أُريدكَ صادقًا وعفويًّا ودافئًا قليلًا فقط، لستُ أطلبُ أن تكتبَ فيّ شعرًا! أنتَ تُربكني، وهذا يجعلني أحسُّ بعدمِ الارتياحِ في أثناء الكتابةِ لك، كم عليّ أن أعتذر عن فظاظتي لتغفرَ لي؟»

برَّرتُ لها: «كنتِ واضحة يا جنَّات منذ البداية في رسمِ الحدود، لهذا حاولتُ أن أكونَ صديقًا جيِّدًا من دون أن أتجاوزَ حدودي. وبما أنَّكِ وبَّختني منذ لقائنا الأوَّل على طرحِ أسئلةٍ لا شأن لي بها، كيفَ أردتِ لي أن أسمح لنفسي بالتوغُّلِ في حياتكِ؟ بالإضافةِ إلى كلِّ هذا، أنا رجلٌ يتعاطى في علاقاتهِ إمّا بالأبيض أو بالأسود، لم أبرَع يومًا في دور

الصديق، وها أنا أتمرَّن بفضلكِ على أن أكونَه». ولكي أُذيب الجليد، حدَّثتها عن القرية التي كبرتُ فيها، طفولتي وعلاقتِي الفاترة بوالديَّ اللذين ما عادا يفخران بي لأنَّني لستُ متديِّنًا مثلهما. يُزعجهما كثيرًا أنَّني لا أصومُ رمضان، ولا أعترفُ بالقرآن كتابًا سماويًّا، ولا بالكتبِ الأخرى.. أمَّا حبيبتي جنَّات، فكانت مخلوقةً من نور، امرأة طيِّبة وروحانيَّة تجدُ لذَّة في الصلاةِ وحرمان نفسها من أشياء خدمةً للهِ والإنسان، تحسُّ بمعاناةِ الآخرين على نحوٍ مفرط، تحملُ قلبَ قدِّيسةٍ، قلبًا كبيرًا يسعُ العالمَ كلّه. احترَمت اختلافي عنها، وفي الواقع لم يكن اختلافًا جوهريًّا، إذ طالما آمنتُ باللَّهِ وأحببتهُ من دون أن أفرض على نفسي الارتباط بدينٍ معيّن

- ٦ -

ـ والدكِ جهاد لا يُشبه أمّكِ جنَّات في شيء، وأنتِ يا جيم هذا المزيجُ المدهشُ بينهما! كنتُ أرى أمّكِ الجميلة تعانقكِ في الصورة، وأقول إنَّ جيم شيءٌ آخر، وبعدَ ذلك، رحتِ تصفين لي جهاد وجهًا وروحًا، ورأيتُ في النهايةِ بأنَّكِ ورثتِ عن أمّكِ الصفات الغائبة في جهاد، وورثتِ عنه الصفات الغائبة في جنَّات، لتكوني أنتِ لوحدكِ مخلوقًا جديدًا مختلفًا عن كليْهما..

ـ تمنَّيت لو لم يُنجباني..

ـ لماذا تقولين هذا؟

ـ أقولُ ما أُحِسُّ بهِ بصراحة، أكرهُ تواجدي في هذا العالم، لم يعد فيهِ ما يدهشني.. أعيش هذهِ الحياة، لأنَّني لا أملك خيارًا آخر.

ـ قولي لي.. أين والدكِ الآن؟ لماذا لا يرافقكِ في هذهِ الرحلة؟

ـ هناك، لا يرغبُ بالعودةِ إلى الجزائر.

. وأنتِ الآن وحيدة بلا أشقَّاء ولا أصدقاء؟

. أنا بحاجةٍ لهذهِ الوحدة، لا أُريدكَ أن تأسفَ عليّ.

. ماذا عنّي؟ ألستُ حتى الآن صديقكِ، يا جيم؟

. أنتَ الآن صديقي الوحيد في هذا العالم، صديقي الموقَّت حتى تنتهي هذهِ الرحلة.

. لا تودِّين معرفتي بعد هذهِ الرحلة؟

. ما الجدوى؟

. ربَّما أخدمكِ وقتَ الحاجة مثلًا..!

. أنا لا أحتاج!

. كيف لا تحتاجين؟

. أتحلَّى بالصبر.. الصابرون لا يحتاجون أحدًا، لو مرضتُ مثلًا وكان بحوزتي المال، فسأشتري دواءً يخفِّف ألمي، وإذا لم أمتلك المال لشرائه،

فسأنتظرُ أن يذهب المرض من تلقاءٍ نفسه.. وَقِسْ هذا المثال على ما يشابهه.

. هذا محزن، سيُحزنني ألَّا أقابلكِ مرَّةً أخرى!

. سيُسعدني ألَّا أقابلكَ مرَّةً أخرى، ستظلّ ذلكَ الغريبَ العزيز الذي فتحَ لي قلبه وفتحتُ لهُ قلبي، مثل كاتبٍ لم تقابله قرأتَ كلّ رواياته، أو ممثّلٍ تشاهدُ أفلامه، تعرفه ولا تعرفه، ترى ملامحه، تسمع صوته، تبكي وتضحك معه، ولكنَّكَ لن تجتمعَ بهِ في المكانِ والزمانِ نفسه.. المعرفة التقليديَّة.. اللقاءات الطويلة.. مجهرُ العلاقات الحميمة يجعل التفاصيل تبدو قبيحة!

. ماذا لو قُدِّر لنا أن نتقابل؟ كيفَ تتخيَّلين علاقتنا؟

. ستكونُ رجلًا طيِّبًا لن أُسيءَ له.

. فهمت! إمَّا أن أختفي من حياتكِ لأحتفظَ بمعزَّتكِ، أو أبقى لأكونَ الحاضرَ الخاسر، رجلًا لن تُسيئي إليه ولن تُحسني.

ـ أنتَ تضيّعُ وقتنا بالتحدّثِ عمّا نجهله! تخطِّط من الآن لما سيحدث بعدَ هذهِ الرحلة، قد تنقلبُ هذه الحافلة ونموتُ قبل وصولنا، لينتهي كلّ شيءٍ قبل أن يبدأ.

ـ ستكونُ النهاية المناسبة لكليْنا! نحنُ ننتظرُ هذا الموت منذ وقتٍ طويل.

ـ تمامًا!

أغمضت عينيْها قليلًا وهي تردِّد: «تمامًا». ابتسامتها الخبيثة أثارتني، منذ ركوبنا، لم تحرِّك جيم غرائزي بسببِ لباسها وبرودها، وحتى وأنا أضمّها إلى صدري، لم أفكِّر بأكثر من احتوائها. ولكنْ، وهي تبتسمُ تلك الابتسامة بشفتيْها الممتلئتيْن، اشتهيتُ تقبيلِها. قاطعت جيم تخيُّلاتي وهي تغيِّر الموضوعَ كلِّيًّا:

ـ قل لي بصراحة، ماذا تعرف عن الأمازيغ، أو فلأحدِّد سؤالي أكثر بما أنَّني قبائليَّة، كيف تبدو لك القبائل، وما انطباعكَ عنها؟

. القبائل مختلفون عن غيرهم من الأمازيغ، اممم.. إذا قلتِ لي ذلك الرجل قبائليّ، فسيخطر ببالي أنَّه غير متديِّن، يتباهى بشرب الشراب وبإفطار رمضان علنًا، وسيُخاطبني باللغةِ الفرنسيَّة بدلًا من العربيَّة حقدًا على كلّ ما هو عربيّ!

. من الطبيعيّ أن يحقد على اللغة التي فُرِضت عليه وحَرَمتهُ لسنوات من التعلُّم بلغتهِ الأمّ.. من الطبيعيّ أن يلجأ إلى لغةٍ أخرى فقط ليتحدَّى ما اختارهُ لهُ النظام، ماذا أيضًا؟ كيف تراهم؟

. منفتحون أكثر على الثقافة الغربيَّة، متمرِّدون وعنصريُّون أكثر من غيرهم..

. ربَّما لأنَّهم تأذُّوا أكثر من غيرهم؟

. نعم، تأذُّوا أكثر من غيرهم، لأنَّهم تمرَّدوا أكثر من غيرهم.

. ألا ترى في تمرُّدهم شجاعة لا مثيل لها في المطالبة بحقوقهم؟

. لا أدري.. ما أعرفهُ أنَّهم يرغبون بالانفصالِ عن الجزائر، وهذهِ الفكرة لا يُعقل لأحدٍ منّا أن يقبلها، كما أنَّهم لم يطالبوا بحقوقهم

بطريقة حضاريَّة، فكيف لا يتلقُّون الأذى وهم يخرِّبون المرافق العامَّة ويعتدون على الشرطة؟ هذا غير مقبول في كلِّ بلدان العالم.

. يا إلهي! أنتَ لا تعرفُ كم قبائليًّا مات وكم قبائليًّا تمَّ تعذيبه في السجن فقط كي يعترفوا به ولا يزيِّفوا هويَّته. أنتَ مثل كلّ العرب الذين قابلتهم، لديكم معلومات مضلَّلة عن القبائل، لأنَّكم صدَّقتم ما عرضته شاشات التلفزيون واكتفيتم بما لقَّنكم إيَّاه النظام عنّا.

. لا تغضبي.. أقول ما أعرفه فقط.

. لستُ غاضبة.. لكنْ، سيسرُّني لو أنَّك تبذل جهدًا لفهم المسألة الأمازيغيَّة. هل تعرفُ منذ متى بدأ هذا النزاعُ بين العرب والأمازيغ، يا لمين؟

. الثمانينيَّات..

. بل قبل.

. منذ أن تولَّى هواري بومدين الحكم.

. بل قبل ذلك بكثير، قبل أن تندلع الثورة الجزائريَّة، وقبل أن يظهر حزب جبهة التحرير الوطني. في عام 1949، اجتمعت قيادات حركة انتصار الحرِّيَّات الديموقراطيَّة التي كان يقودها مصالي الحاجّ في فرنسا لمناقشةِ قضيَّة الهويَّة الجزائريَّة، فهم كانوا بصدد توجيه مذكَّرة إلى هيئة الأمم المتَّحدة. وفي أثناء محاولة الصياغة المناسبة، كان مصالي الحاجّ يركِّز على أنّ الجزائر بلد عربيّ مسلم فقط، متجاهلًا أنَّ الجزائر في البدء كانت أمازيغيَّة قبل الفتوحات الإسلاميَّة.. أنتَ هنا لا يمكنك أن تشوِّه التاريخ بهذا الشكل وتكتفي بالجزائر التي تُناسبُ توجُّهاتك الشخصيَّة، فتنتقي ميلادًا افتراضيًّا للبلاد بدءًا من الفتوحات الإسلاميَّة. لا يمكنك وأنتَ تقدِّمها للعالمِ كدولة أن تُلغي ما كانت عليه الجزائر من قبل، كأنَّها كانت أرضًا مهجورة تمَّ اكتشافُها، كما لا يمكنك أن تصفَ الشعب كلّه بالعربيّ المسلم، وهناك فيه من ليس بعربيٍّ وليس بمسلم.

خلال ذلك الاجتماع، رفضت الأغلبيَّة مبدأ مصالي الحاجّ، وطالبوا وصف البلاد بأنَّها جزائريَّة فقط، ولكنَّ الحركة لم تؤمن بالتعدُّديَّة

اللغويَّة والثقافيَّة للشعب. حينها، لم يتردَّد الأمازيغ المنتمون للحركة بالتعبير عن رفضهم لموقف مصالي، بل هناك مبروك بلحسين والصادق حجرس، وثالث نسيتُ اسمه، قاموا بإعداد وثيقة وقَّعوها باسم مستعار، اقترحوا فيها تحديد الهويَّة الوطنيَّة على أساس المواطنة بدلًا من الانتماء العرقيّ والدينيّ. من هناك كانت البداية، من هناك بدأ الأمازيغيّ يتوجَّس من مؤامرةِ محوِ هويَّتهِ، ولكنَّهم لم يبدأوا النضال إلَّا لاحقًا، لأنَّ همّ مقاومة الاستعمار الفرنسيّ والعيش في بلادٍ حُرَّة كان أكبر من أيِّ همٍّ آخر.

. صدِّقيني، لا أعرفُ كلّ هذهِ التفاصيل. أعرفُ بأنّ الثورة عرفت الكثير من النزاعات الداخليَّة ومجازر محزنة، كان يصفّي فيها الأخوة بعضهم بعضًا كلَّما اختلفوا بحجَّة فرضِ النظام والسيطرة على الفوضى والخيانات! ولكنَّ النزاع حول الهويَّة بالذات.. لم أسمع بأنَّه بدأ في ذلك الوقت، فكيف اطَّلعتِ أنتِ المغتربة على كلِّ هذا؟

. كنّا نعيش حياةً جزائريَّة كاملة في الغربة، يا لمين. والدِي من كان يلفتُ انتباهي بنقاشاتهِ إلى هذهِ المواضيع، لا تنسَ أنَّ والدي قبائليّ.

ـ نعم، القبائليّ الذي اختار أن يدرس اللغة العربيَّة.

ـ نعم.. وهذا لأنَّه كان ينتمي إلى عائلة متديِّنة تكنُّ تقديرًا خاصًّا للغة القرآن. وهنا، بإمكانك أن تُعيد التفكير في انطباعك عن القبائليّ الذي يحقد على كلّ ما هو عربيّ.. مِنَ القبائل ملحدون ومسيحيُّون ومسلمون متديِّنون، لا مكان للعنصريَّةِ في قلوبهم، حتى إنَّهم يستخدمون جملة «السلام عليكم» للتحيَّة بدلًا من كلمة «أزول» التي يحيِّي بها الأمازيغ بعضهم بعضًا.

ـ مؤكَّد، أعلم هذا ونحن نعيش مع القبائل في وهران أيضًا. لم أكن أعمِّم، ولكنَّني تحدَّثت عن الأغلبيَّة فقط ومشاكلنا معهم، هؤلاء الذين يرون أنفسهم أكثر تحضُّرًا منَّا وأكثر رجولة وشجاعة، حتى إنَّ أحدهم ممَّن أعرف ادَّعى بأنَّهم وحدهم من حملوا السلاح وقاموا بالثورة، ولولاهم لما تحرَّرت الجزائر! وكلُّنا يعلم بأنَّه في كلِّ بيتٍ جزائريٍّ إمَّا مجاهد أو شهيد، وإمَّا شاهد على تلك الحرب.

ـ نعم، لقد انحرفنا عن الموضوع الذي كنَّا نتحدَّث فيه. منذ ركبنا وأنتَ تتحدَّث عن نفسكَ بسوءٍ وعن آثامٍ لا يمكنك أن تغفرها

لنفسك، قلتَ إنَّك تسبَّبتَ في موتِ أمّك وأذيَّةِ أحبَّائكَ، ووعدتني بأنَّكَ ستحكي لي حكايتك، لكنَّكَ حتى الآن لم تروِ لي شيئًا عن الخطايا.

ـ سأبدأ بذنبٍ يعذِّبني، اقترفته في حقِّ صديقَيَّ مالك وسمير.أريدُ منكِ فقط صبرًا عليَّ، أحبُّ أن أتحدَّث أوَّلًا عن صداقتي بهما قبل الحديثِ عن الذنبِ الذي اقترفته في حقِّهما..

ـ أنا أُصغي.

- ٧ -

تعرَّفتُ على صديقَيَّ سمير و مالك عندما انتقلنا للعيشِ في مدينةِ وهران. مالك الطفل الأسمر ببنيته القويَّة، وسمير الأشقر النحيل بيننا. كنَّا ندرسُ في المدرسةِ الابتدائيَّة نفسها, ونسكنُ الحيّ ذاته، نلعبُ معًا كرة القدم حتى ساعة متأخِّرة من الليل، ونهبُّ للشجارِ إذا تعرَّض أحدنا للمضايقة. الشجارات بيننا لم تكن تدومُ طويلًا، حتى عندما سكنت حيَّنا فتاةٌ جميلة بشعرٍ ذهبيٍّ وعينيْن زرقاويْن كلونِ البحر.. لم نختلف بشأنِها. بدت رهام قادمةً من الجنَّة، بينما كنَّا نتجوَّل أمامها بملابسنا القديمة وأحذيتنا المتَّسخة. علمنا بأنَّها ستكونُ سببَ انهيارِ صداقتنا. ولكي لا نخسر بعضنا، قرَّرنا أن نكرهها، لم نسامحها أبدًا على جمالِها، أصبحنا نُضايقها كلَّما مرَّت، وكانت تغيِّر طريقها لسببيْن: إذا رأت الكلاب أو إذا رأتنا!

أمَّا السرّ الذي سأحدِّثكِ عنه، عدا مالك وسمير.. أنتِ ثالث شخصٍ سيعرفه، وأُخبركِ به لا لشيء، وإنَّما لتعرفِي إلى أيِّ حدٍّ كنّا

إخوة، وسبب المعزَّة التي أكنّها لكلٍّ منهما. في ذلك العمر، كنتُ ضعيفًا في اللغةِ الفرنسيَّة، فنصحتني أمِّي بطلبِ المساعدة من جارنا سليمان الذي يسكنُ العمارة المقابلة. شابٌّ انطوائيٌّ يدرس الترجمة، ويعيشُ مع والدتهِ المطلَّقة. لا تفهمين معدن قلبهِ إذا كان طيِّبًا أو خبيثًا! تحسَّنت لغتي الفرنسيَّة بفضله، وأصبحتُ أُجيد تصريف الأفعال والتحدُّث بلكنةٍ صحيحة. أذكرُ انبهاري بأرائكِ بيتهم الحمراءِ والأرضيَّةِ الملساء من الرخام، وتحفِ النّحاس على رفوفِ خزانةٍ من الخشبِ الأحمر.

كانت والدته غائبة ذات خميس عندما توقَّفَ عن شرحِ الدرس، وبدأ يتحسَّسُ عنقي بيدهِ الباردة. انكمشتُ قليلًا، وتابعتُ قراءة النصّ. وضع يدهُ مجدَّدًا يتحسَّسني. هذه المرَّة، تضايقت وأبعدتُ يده عنِّي، لكنَّه أصرَّ على لمسي للمرَّةِ الثالثة.. جمعتُ كتابي وكرَّاستي لأنصرف، فدفعني إلى الأريكةِ الحمراء، وثبَّت ظهري بيده، وباليدِ الأخرى فتح سرواله، وقام بإدخال عضوهِ في شرجي.. تألَّمت! لم أحتمل دخول عضوه وخروجه، كان مؤلمًا وحارقًا، وكنتُ أصرخ وأبكي؛ وكلَّما تعالى

صوتي، يضغط برأسي على الأريكةِ ليكتم صوتي حتى اختنقتُ بشهقاتي. ابتعد عنّي يتأوّه وسائل أبيض لزج يسيل من عضوه وشرجي. لم أستطع الدفاعِ عن نفسي، وكلّ ما كنتُ أريده الهرب من ذلك البيت..

رفع سليمان سروالي الأخضر، وجمع أدواتي وطردني متوعِّدًا بقتلي إذا بحتُ بالسرِّ. خرجت من بيتهم أبكي وأعرج، رجلٌ غريبٌ رآني أمشي بذلك الشكل، أشفق عليَّ وعرفَ سرِّي.. نظراته أخجلتني. لذا، حاولتُ المشي بطريقةٍ طبيعيَّة أُداري من خلالها عاري، كرهته وكرهت بيته والسروال الأخضر واللغة الفرنسيَّة. عدت إلى البيت ملازمًا الفراش، أرفض تناول الأكل والذهاب إلى المدرسة. لم تفهم أمِّي ما خطبي. تذكَّرتُ تهديدات سليمان، وخفت أن يقتلها، لذلك احتفظتُ بجرحي لنفسي.

أصغت جيم إلى حكايتي ودموعٌ غزيرة تغادرُ عينيْها الواسعتيْن، قالت: «أتفهمُ ما تعرَّضتَ له، التحرُّش يدمِّر أشياء جميلة في قلبِ الطفل، يلوِّث براءته، لكنَّ ما مررتَ به كان قاسيًا. المتحرِّش بي كان

لطيفًا، يعبثُ بجسدي ويُقنعني بأنَّ ما نقوم به ليس أمرًا خاطئًا، كان يُقنعني بأنَّنا نلعب لعبة اسمها لعبة الحبّ! وبسببه، كرهتُ الرجال والحبّ وكلّ ما يتعلَّق به». مسحَت دموعَها، وطلبت منِّي أن أُكملَ:

صبيحة يومِ الجمعة، لم أتمكَّن من مغادرةِ فراشي بسببِ الحمَّى. حاولت أمِّي تخفيض حرارتي بالكمَّاداتِ الباردة، كنتُ أهذي: أنا خائف، يا أمِّي.. لا تتركيني. استعدتُ وعيي لدقائق، ووقفتُ إلى الحمَّام لأقضي حاجتي، وفي طريقي إليه، تغوَّطتُ على نفسي ووسَّختُ ثيابي. وعندما فاجأتني أمِّي في الرّواق، بكيت وخفضتُ رأسي لأُداري عارًا آخر. فكَّرتُ بأنَّ سليمان أفسدَني وأصبحتُ عاجزًا بسببه، وربَّما سأظلّ هكذا كلّ حياتي. أمِّي كلتوم المرأة الصلبة والقويَّة تخيَّلتُ بأنَّها ستضربني على ما فعلت، ولكنَّها ضمَّتني إلى صدرِها، وساعدتني على تنظيفِ نفسي وتغيير ملابسي، ظنًّا منها بأنَّ الحمَّى والزكام ما جعلاني أفعلها في سروالي.

ارتدت جلَّابيتها بعد صلاةِ الجمعة، وذهبت إلى الصيدليَّةِ لتشتري مضادَّاتٍ حيويَّة ودواء يوقف الإسهال. وفي ذلك الوقت، جاءَ مالك

وسمير لزيارتي، ولم يصدِّقا بأنَّني لم أخرج للعبِ معهما فقط بسببِ زكام، ولم يتركاني بإصرارهما حتى عرفا ما حدث. غيَّر الغضب ملامحهما، ولم يتوقَّفا عن سبِّه ولعنهِ، وسرعان ما خرجا لينتقما لي. عندما خَيَّم الليل، رشقا سيَّارة والدتهِ بالحجارة محطِّمين النوافذ والواجهة الأماميَّة.

أصبحا مثل قنَّاصيْن في الحيِّ، يستخدمانِ التيربوليت لرشقه بالحجارة، يختبئان في أماكن لا يراهما ويصوِّبان بحجارتهما عليه. الضربةُ الأولى أصابت كتفه، صرخ وتألَّم وأقسم بأنَّه سيقتل الفاعل، والضربة الثانية فتحت جرحًا كبيرًا في رأسِ استدعى أخذه إلى المستشفى لخياطته. عاد إلى الحيِّ مرعوبًا والضمَّادة الكبيرة تغطِّي نصف رأسِ، ثم انتقل بعدها ووالدته من الحيّ. وبعد رحيلهما، لم نخض في هذا الموضوع مجدَّدًا، وكأنَّه لم يحدث.

* * *

حتى مراهقتنا واكتشافنا لأنفسنا، تقاسمناه من خلالِ مغامراتنا الصغيرة؛ أوَّلُ سيجارةٍ مرَّت على أفواهِ ثلاثتنا، وكذلك البيرة تذوَّقناها معًا.. لم يُعجبنا طعمها ولم يؤثِّر فينا كما كنَّا نأمل. شاهدنا أوَّل فيلم بورنو في مقهى للإنترنت، وبعد ذلك، كان الواحد منَّا يُرسل ما يشاهده من ڤيديوهات إلى الآخرين. كبرنا، وبدت تلك الصداقة الجميلة كما لو أنَّها لن تنتهي، وتوطَّدت أكثر ونحن شبابٌ نزاول دراستنا في الثانويَّةِ التي يعمل فيها والدُ سمير. أحد أخطائي وقتها هو اختياري لشعبة العلوم، لأكون مع صديقَيّ متجاهلًا ميولاتي الأدبيَّة، فقد كنتُ قارئًا جيِّدًا للشعر والفلسفة والروايات العالميَّة.

ادَّخر والد سمير المال لشراءِ منزل أكبر في حيِّ الصدّيقيَّة، لكنَّه غيَّر رأيه في آخر لحظة عندما قطع ذلك الوعد لابنه: إذا نجحتَ في اجتياز شهادةِ البكالوريا، فسأشتري لكَ سيَّارة مرسيدس. نجح كلٌّ منهما، ورسبت بسبب ضعفي في العلوم، وحصل صديقنا على سيَّارة رائعة. بدأ يعلِّمنا كلّ حركةٍ جديدة يتعلَّمها حتى أصبح ثلاثتنا يُجيد السياقة. في ذلك الصيف، قضينا أجمل أوقاتنا ونحن نجوب شوارع

المدينة، نلاحق الجميلات ونفتك منهنَّ أرقام هواتفهنَّ لنسخر من فقرنا بسخريتنا منهنَّ.

مع اقترابِ موعد عيدِ الفطر، اقتربَ موعد الدخول الجامعيّ لمالك وسمير. تواعدنا بعد ساعةٍ من الإفطار لنتسوَّق ونقضي سهرتنا في شاطئ الأندلسيَّات . ألقى سمير بالمفتاح في يدي لأسوق، وجلس إلى جانبي يحدِّق إلى النافذةِ، بينما بدأ مالك يُلقي علينا نكته البذيئة، فالتفتَ له سمير: «يا رجل، اصبر ثلاث ليالٍ أخرى حتى ينتهي رمضان.. ثمَّ عُدْ إلى بذاءتك!» لكنَّه لم يسكت، ولا نحنُ توقَّفنا عن الضحك الهستيريّ، ووحده سمير كان يجاملنا بابتساماتٍ حزينة.

اتَّهمني مالك بالجبن، لأنَّني أسوق مثل امرأة. ولكي أُثبت له إجادتي، امتثلتُ لرغبته وزدتُ السرعة وانطلقت. حاولتُ تجاوز شاحنة كبيرة كانت تحجب عنِّي الطريق، فاصطدمتُ بسيَّارةٍ مسرعةٍ أخرى، للأسف.. لم يكن بإمكاني تجنُّبها. انقلبت بنا السيَّارة. وعندما انتهى كلّ شيء، لم أتمكَّن من تحريكِ ساقي، والتفتُّ إلى سمير الجالس إلى جانبي، فرأيتُ الزجاج مغروسًا في جبينهِ.. ووجهه غارق في الدم يحدِّق

إلى الفراغ بعينيْن مفتوحتيْن. التفتُّ إلى مالك، كان رأسه منحنيًا بين كتفيْه؛ وهواري الصديق الثالث الذي كان يرافقنا، ما زال على قيد الحياة يئنّ. حاولتُ هزّ سمير إلى جانبي، وإيقاظ مالك وأنا أصرخ باسمه، بلا فائدة..

ـ لم يكن ذنبك.. كان يعقل أن تموتَ معهم.

ـ كان يجبُ أن أكون الميّت! لماذا ألقى سمير المفتاح في يدي، ولماذا علّمني السياقة؟ لأقتله؟ الطبيبُ الذي عالجني وصفَ نجاتي بالمعجزة، معجزة عليَّ أن أحمد اللّه عليها، ولكنْ كان ذلك الشيء الوحيد الذي لم يكن بإمكاني شكر اللّه عليه. شعرتُ بالذنبِ لسببيْن: لأنَّني قتلتُ صديقَيّ، ولأنَّني نجوت. هل تتخيَّلين حزني وأنا أعود إلى حيّي بعكّازين لأجد في الحيِّ مأتميْن لأحبِّ إنسانيْن إلى قلبي؟ سمعتُ صوت البكاء والعويل والنحيب يتعالى من بيتيهما. أمرتني أمّي بالتزامِ البيت، ولكنَّني غادرته أتعكّز عكّازي لأقدِّم التعازي وأعتذر. ولكن، كيفَ لأمٍّ أن تغفرَ لي ما فعلتهُ بابنها، يا جيم؟ بصقت أمّ مالك في

وجهي ثم أُغْمِيَ عليها، وأمّ سمير أسقطت عكّازي وحاولت خنقي بيديْها حتى أبعدها عنّي أقاربها. إنَّني قاتل، يا جيم، هذا ما أنا عليه، أنتِ تجلسين بجانبِ قاتلٍ انتقى أفضل ضحاياه وأحنَّهم عليه!

. أنتَ لم تتعمَّد ذلك، لم تقصد قتلهم.. قلبك طيِّب على الرَّغم من كلِّ شيء.

. وماذا أفعل بهذا القلب يا جيم ما دام أعمى.. حتى أنتِ أصبحتُ أخافُ عليكِ منّي.

. لا تقلق بشأني.. إذا تسبَّبتَ لي بالموت كما تدَّعي، فسيكونُ أفضل معروفٍ تفعله من أجلي.

. مهبولة! أَمَا حان وقتُ اعترافِك؟

. ليسَ الآن، ليس قبل أن تقول خطيئتك الأخيرة، سأروي لكَ حكايتي بعد الانتهاءِ من قولِ حكايةِ جهاد وجنّات، وذلك ليس لأنّي منبهرة بوالديَّ، بل لأنَّني امتدادٌ لهما..

وضعت جيم محفظتها على ساقيْها، وأخرجت علبة شوكولاتة غالية فيها نكهات متنوِّعة، ثم وضعت قطعة شوكولاتة في فمها وعرضت عليَّ انتقاء واحدة: هل شاهدتَ فيلم فورست غامب؟

. لا!

. يفتتحُ البطل الفيلم بجملة يقولُ فيها: «كانت أمِّي تقول لي دائمًا بأنَّ الحياة مثل علبة شوكولاتة، لا تعلمُ أبدًا ما الذي ستحصلُ عليه..».

. يتحدَّث عن القدر والمصادفة وما لا نتوقَّعه في حياتنا، كالمصادفة التي جمعتنا الليلة في هذهِ الحافلة!

. أمَّا جهاد، فكانت لهُ فلسفته الخاصَّة. هو يؤمنُ بأنْ لا أحد منَّا يعيشُ تعسًا أو سعيدًا إلى الأبد، بعضنا يبدأ حياته شقيًّا ثم يبدأ باكتشافِ سعادتهِ، والبعض الآخر يفعل العكس.. يعيش نصفَ عمرهِ سعيدًا، ثم يصطدمُ بالشقاء.. هو كان يرى بأنَّه عاش النصفَ الأوَّل من حياتهِ بخير حتى فارق جنّات.

. ماذا عنكِ؟ كيفَ بدأتِ حياتكِ؟ وأيّ نصفٍ منها تعيشين الآن؟

. أنا لم أعرف الفرحَ في حياتي لأتحدَّث عنه، لا أعرفُ ما هو ولا كيفَ سيكون! لم أختبر هذهِ السعادة التي يتحدَّثون عنها في الأفلامِ والروايات..

. لا أصدِّقكِ. الحزن والفرح مشاعر يختبرها كلّ إنسان، تظهر وتختفي، عشتُ اليتم، الجوع، الفقر والتشرُّد، وعلى الرَّغم من ذلك، حصلتُ على فتاتٍ من الفرح وقنعتُ بهِ..

. ألم أقل لكَ بأنِّي أحسدك؟ إنَّني أتحدَّث عن سعادةٍ حقيقيَّة، سعادة كبيرة، كالحصول على شيءٍ كنتَ تظنُّه مستحيلًا، كأن ترفض النوم لأنَّك تخافُ أنَّ ما عشتَه لم يكن حقيقيًّا، وما إلى ذلك.. أقولُ لكَ عشتُ مدلَّلة ونزِقة حتى ما عاد شيء يُبهرني. كنتُ محاطة دائمًا بالمعجبين والذائبين في حضوري حتى أصبحوا مثل دمى أحتفظ بها في خزانتي، أحرِّكهم كيف أشاء، أتدلَّل عليهم، وبعد ذلك، أُبعدهم. ولكنَّني اليوم، فقدتُ اهتمامي نهائيًّا بالرجال، عشقتُ وِحدتي

واكتشفتُ فيها أشياء كثيرة. تتحدَّث عن السعادة. حتى ذلك السلام الداخليّ لم أحصل عليه، عشتُ حياتي كلّها قلِقة، خائفة ومرتبِكة.

ـ قلقة من ماذا؟

ـ ...

ألقت بظهرها إلى المقعد، وحدَّقت إلى سقفِ الحافلة وتنهَّدتْ:

ـ من كلِّ شيء!

.

- ٨ -

حَظِيَ جهاد بمكانةٍ خاصَّةٍ في قلبِ والدتي. كان ينتقي الورقَ الجيّد، ويجرِّب عشرات الأقلامِ قبل الكتابةِ إليها. يختارُ قلمًا لا يؤلمُ أصابعه، لأنَّ الألم يجعل خطّهُ يبدو سيِّئًا، قلمًا لا يسكبُ الكثير من الحبر ولا يشحّ. يعدُّ قهوته ويجلسُ ليكتبَ المسوَّدة الأولى.. يشطبُ سطرًا ويُضيفُ آخر حتى تصبح الرسالة جاهزة. عرضتُ عليهِ كثيرًا أن ينشرَ رسائلهما، وكان رفضهُ قاطعًا كلّ مرَّة: «الرسائل لا تُكتبُ ليقرأها الناس، لا أملكُ جرأة التعرِّي يا جيم، لا يمكنني الوقوف عاريًا وأمنحُ الغرباءَ حقَّ الحُكم والتفرُّج. كيف أحتمل أن يتثاءبَ أحدٌ بينما يقرأ رسالة سكبتُ فيها روحي؟ أو أن يُسيء الفهم ويكوِّن أفكارًا خاطئة عنِّي أو عن حبيبتي؟ ربَّما لو كنتُ روائيًّا لتحايلت على القرَّاء، وكذَّبتُ ما سيصدِّقونه على أنَّها أحداث متخيَّلة، ولكنَّني لم أتعلَّم في حياتي كيفَ أكون كاذبًا جيِّدًا، أقصدُ كاتبًا جيِّدًا.. وُلدتُ شاعرًا، أحوِّل انفعالاتي إلى قصائد مضغوطة، وأكتبُ ما عليَّ كتابته مثل أيِّ حالةٍ

بيولوجيَّة، كأن تنامي لأنَّكِ تشعرين بالنعاس وتأكلي بسببِ إحساسكِ بالجوع. أكتبُ الشِعر بالطريقةِ نفسِها، ليس لأنَّني أريد، بل لحاجةٍ مُلحَّة لا يمكنُ تأجيلها أو إبطالُها».

وعودةً إلى حكايةِ تعارفهما، يذكرُ دومًا فضل صديقتهِ ديهيا : «كنا جالسيْن في الحانة، نشرب ونتناقش في السياسةِ، والمسألة الأمازيغيَّةِ تحديدًا. درست ديهيا اللغة الفرنسيَّة، ولم تغفر لي اختياري لدراسةِ اللغةِ العربيَّة. اتَّهمتني بخيانةِ القضيَّة، لأنَّني أدرسُ لغةً فرضَها علينا نظامٌ همجيّ محا هويَّتنا وأطلق النارَ على أبنائنا في المظاهرات، فقط لأنَّهم طالبوا بحقوقهم بالاعترافِ بلغتهم إلى جانبِ العربيَّة والفرنسيَّة.

إيييييه يا صغيرتي، كنتُ أُنعتُ طوال الوقت بالعميل الذي باع نفسه وقضيَّته. يتحدَّثون عنِّي فيقولون جهاد العربيّ، وصفة عربيّ كانت بمثابةِ مسبَّة. دافعتُ عن نفسي عبثًا، بأنَّني وُلدتُ لأَبَوَيْن متديِّنيْن لقَّناني القرآن الكريم منذ طفولتي، وتلك الآيات سحرتني.. زادتني حُبًّا بها أستاذة اللغة العربيَّة التي بسَّطت القواعد، وجعلت الإعراب يسيرًا، وأهدتنا قصصًا كلَّما حصلنا على نتائجَ جيِّدة. ومن قصصِ

الأنبياء، بدأتُ أقرأ لجبران وإيليَّا أبو ماضي ونجيب محفوظ والمنفلوطي، إلى الشعرِ الجاهليّ والحديثِ، حتى وجدتُ نفسي مأخوذًا باللغةِ العربيَّة، وأكتبُ بها كما لو كانت لغتي الأمّ.

مع ذلكَ، لا أنكرُ بأنَّني أتفهَّمُ سخط أصحابي على خياري في تلكَ الفترة الصعبة، فترة حكم هواري بومدين. هل تعلمين؟ استيقظنا فجأة على قوانين لم نكن بانتظارها، كلّ الوثائق الرسميَّة قرَّروا تعريبها، جلبوا مدرِّسين من المشرق وشيوخ دين من السعوديَّة، كما أصبح الموظَّفُ لا يحصلُ على وظيفة حكوميَّة إلَّا إذا كان يُجيدُ اللغة العربيَّة، وذلكَ محاربةً للغةِ المستعمر الفرنسيَّة التي كانت تُجيدها فئة كبيرة من الشعب. قد تبدو لكِ هذهِ النقطة إيجابيَّة؟ أن يقرِّر القادة محو آثارِ المستعمِر من ثقافةٍ ولغة وكنائس وديانة تبشيريَّة لقيت ترحيبًا لدى بعض العائلات، ستبدو لكِ فكرةً أخَّاذة رسمُ ملامح جديدة لوطنٍ حصل على استقلاله حديثًا. بالنسبةِ لي، لم يكن ذلك ليكون مستفزًّا لو لم يكن على حسابِ لغتنا الأمازيغيَّة وثقافتنا!

كان عليهم أن يراجعوا تصوُّرهم عن الهويَّة، فالجزائر لا يمكن لها أن تكون جزائرَ من دون ذلك التنوُّع الجميل بين ثقافةِ الشاويِّين، واختلافِ الطوارق بعاداتهم ولهجتهم، وبني مزاب في غرداية وعوالمهم، والقبائل بلهجتهم وفلكلورهم. كيفَ لهم أن ينكروا تاريخًا قديمًا بدأ قبل ميلادِ المسيح بقرابة تسعمائة سنة. بن بلّة بعد الاستقلال، ألقى خطابًا شهيرًا، قال فيه: «لا اشتراكيَّة بدون تعريب، ولا مستقبل لهذا البلد إلَّا في العروبة»، وأتمَّ بومدين بعد الانقلاب عليه مهمَّة التعريب على أكمل وجه. هؤلاء العسكريُّون الذين حكموا البلاد خلقوا استعمارًا داخليًّا آخر، واختاروا صورةً للبلادِ لم يقبلوا النقاش فيها، بلدًا أُحاديَّ الثقافة واللغة والدين..

هل تعلمين بأنَّنا في ذلك الوقت خضعنا لقانون يمنعُ على العائلاتِ الأمازيغيَّة أن تُطلقَ أسماءً غير عربيَّة على مواليدها الجدد؟ هل تعلمين بأنَّ قبائل العاصمة كانوا يخشون من النقاش في المقاهي بلغتهم.. لأنَّهم قد يتعرَّضون لحملات اعتقالات، فقط لأنَّ مُخبرًا شكَّ في موضوعٍ لم يتمكَّن من فهمه؟ لهذا، وعلى الرَّغم من الأذى النفسيّ الذي كنتُ

أتلقّاهُ يوميًّا من أصدقائي الحانقين على مجالِ تخصُّصي، إلّا أنّني كنتُ صبورًا ومتفهّمًا، بل كثيرًا ما تشرَّبتُ سخطهم وانقلبتُ على نفسي.. فكَّرتُ بإيقافِ دراستي وتغيير مجالي، ولكنَّ والدِي باركَ خياري، وشجَّعني كلَّما تخاذلت، قائلًا بأنَّ محبَّتنا لهذهِ اللغة شيء ومشاكلنا مع النظامِ مسألة أخرى. كان يقول إن كانت لدينا مشاكل فهي معهم، وليس مع اللغةِ التي يحاربوننا بها، ولم يكن من الشائع في ذلك الوقت أن يفكِّر أبناءِ مدينتي بحكمة والدي وتسامحه. أبي حالة خاصَّة، لأنَّ الظلم لم يدمِّر علاقتنا باللغة العربيَّة فحسب، بل حتى بإخوتنا العرب في المدن الأخرى الذين رحَّبوا بقوانين التعريب.

عودةً إلى صديقتي ديهيا، التي كان اسمُها في الوثائق «جميلة»، واختارت لنفسها اسمًا تناضلُ بهِ، ديهيا التي عرفتها أمازيغيَّة حقيقيَّة، امرأة حُرَّة ومتمرِّدة، يغلي الدمُ في عروقِها إذا تعلَّق الأمر بالظلم.. كم كانت مُحبَّة ومخلصة لأصدقائها على الرَّغم من حدَّتها! قلتُ لكِ من حظِّي أنَّها كانت حلقة الوصلِ بيني وبين جنّات، كنَّا جالسيْن ذلك

المساء في الحانة، فحدَّثتني طويلًا عن عشيقِها المغترب، بعد أن انتقل حديثُنا من السياسةِ إلى الحبّ.. سألتني عن طبيعة علاقتي بجنّات، سحبتُ نَفَسًا عميقًا من صدري، فضحكتْ: «لا أرغبُ بتحطيمِ آمالك، ولكنَّ جنّات تحبُّ رجلًا آخر من مدينتِها، ربَّما يتصالحان في هذهِ الإجازة». فلنقل بأنَّكِ جلستِ شاردة وصفعكِ أحدهم على وجهكِ، كيفَ ستكون ردَّة فعلكِ؟ ستضعين يدكِ على وجهكِ وتتأمَّلينه ببلاهة. بدت لي جنَّات أشهى من السابق. ستُتعبني حتى تقبلَ بي، ولستُ أريدُ عذابًا أشهى من هذا. استعجلتُ بكتابةِ رسالةٍ جديدة محاولًا التلصُّص على حياتها العاطفيَّة من دون أن أُبدِي اهتمامًا زائدًا، لأنَّها إذا لاحظت شغفي بها ستستمرّ بتقليبي على جمرِ الانتظار والترقُّب.

«وهل أمنحُ لنفسي حقَّ التطفُّل عليك من دون أن أمنحكَ الحقّ نفسه، يا جهاد؟ في لقائنا الأوَّل، أخبرتكَ بأنَّه لديَّ حبيب، حبيبٌ لم أحدِّثكَ عنه في هذهِ الرسائل، لم أَرَ في قصَّتي معه ما يستحقُّ الكتابة عنها، هو جارٌ لنا أحببتهُ وأنا أدرسُ في الثانويَّة، أُغرمتُ به

حتى تحوَّل حبُّهُ إلى تملُّك. لم تعد علاقتي بهِ لذيذة كالسابق. يريدُ أن يتزوَّجني ليغلِّفني بقماش أسود، يضعني في علبةٍ يُخرجني ويُعيدني إليها كيفما يشاء. ابتعادي عنه يجعله يفرط في الشربِ والتدخين ويزداد عنفًا. سأكذبُ إذا قلتُ تعافيتُ منهُ تمامًا. أخافُ الهزيمة إذا قابلتهُ مرَّةً أخرى، أراني مغرمةً بالرجلِ الخطأ، أسيرُ إلى هلاكي من دون أن أجدَ طريقة أعود بها إلى الوراء».

لم أرَ فيهِ تهديدًا حقيقيًّا، امرأة قويَّة وذكيَّة مثلُها لن تقبلَ بأن يُطفئ وهجها رجلٌ شرقيّ، يسلبُها حقّها في التنفُّس بحجَّةِ الحبِّ. في رسالةٍ أخرى، كتَبت لي: «أنا في طريقي إلى نسيانهِ». شعرتُ بأنّها من خلالِ هذهِ الجملة ترسلُ لي إشارة الضوء الأخضر لأقترب. حافظتْ على المسافة حتى يَئستْ أخيرًا، وكتبتْ بوضوح: «لا أعرفُ ما الذي يجعلني أتعلَّقُ بكَ؟ تتحوَّل الورقة بين يديّ إلى مرآة لا أرى فيها انعكاسًا لسواي، هل ترى ما أراه يا جهاد؟ هل أنا شفَّافة بما يكفي لترى نفسكَ من خلالي؟»

حينها أطلقتُ شاعريَّتي الحبيسة.. كانت الرسالة بمثابةِ قصيدةٍ نثريَّةٍ طويلةٍ تتدفَّق باعترافاتٍ مكبوتة أجَّلتُها حتى يحينَ مخاضها، قلت لها: «كنتِ عمياء والآن أبصرتِ، منذ البداية رأيتني فيكِ ورأيتكِ تتجوَّلين داخلي، الآن فقط أدركتِ سرّ اللَّه وحكمته، منذ لقائنا الأوَّل علمت.. بأنَّ ما فاضَ في جسدي من روحٍ سكبهُ اللَّه في جسدكِ، كأنَّه عجنَ قلبيْنا من طينٍ واحد ونفخ فينا من روحه بقبلةٍ واحدة. ها أنا أراكِ تتعلَّمين خطواتكِ الأولى، كطفلةٍ أنجبتُها من صلبي، تقف وتقع وتضحك وتهرول، كي تتهاوى بين ذراعيَّ».

- ٩ -

. ماذا حدث بعد ذلك؟

. أصبحا يتواعدان، لكنَّ لقاءاتهما كانت قليلة بسببِ الشجاراتِ المستمرَّةِ بينهما.

. ألم يرَ كلٌّ منهما نفسهُ في الآخر؟ أليس هذا وحده كافيًا للتفاهم؟!

. التشابهُ بينهما خلقَ صدامًا عنيفًا، لا أحد منهما يتقنُ الاعتذار والاعترافَ بأخطائهِ. استمتعا بلعبةِ تعذيبِ بعضهما بعضًا! كان يغار عليها مثلًا، وكانت تصبّ الزيتَ على النار وتجتمعُ بصديقٍ لها بعد انتهاءِ المحاضرة، ولينتقم، يغادرُ هوَ الجامعة برفقةِ طالبةٍ حسناء كالحبيبيْن، ويدُها في يده. إذا حدَّثته عن رجلٍ من الماضي، يحدِّثها عن حبيبةٍ سابقة، وإذا خاصمتهُ أسبوعًا، يخاصمُها شهرًا كاملًا، وهكذا!.. حتى أنهيا دراستهما، ثم تزوَّجا وغادرا البلاد.

. وأنتِ، كيفَ ترين قصَّتهما؟

. قصَّتهما لا تعنيني في شيء! قصَّة حبٍّ كباقي قصص الحبِّ الغبيَّة.

. أنا الغريبُ عنهما، شدَّتني قصَّتهما، وتمنَّيتُ لو قابلتهما معًا، وأنتِ ابنتهما، توقَّعتُ منكِ إبداء إعجابٍ واعتزاز، تردِّين عليَّ دائمًا بما لا أتوقَّعه!

. دعكَ منِّي، حكايتي لم تبدأ بعد.. عدا قتلكَ لصديقيْكَ، ألن تحدِّثني عن خطيئتكَ الثانية؟

. عدا قتل صديقيَّ؟ أوف، يا اللَّه.. طريقتكِ في قولِ ذلك قاسيَة ومزعجة.

. ذلكَ لأنَّني لا أجمِّل كلامي، أقولُ الفكرة كما هيَ في الواقع..

. أساسًا، لا أفهم كيف لامرأةٍ لا تهتمُّ بقصَّةِ والديْها أن تهتمَّ بخطايا رجلٍ بائسٍ مثلي؟

اقتربتْ وحدَّقتْ إلى عينيَّ مباشرةً. اقترابُها منِّي أربكني، بدت كما لو أنَّها ستقبِّلني وهي تطرحُ عليَّ ذلك السؤال:

. ألم تفهم بعد؟ لأنَّ خطايانا متشابهة!!

- ١٠ -

قبلَ عشر سنوات، كنتُ أفكّر بطريقةٍ مختلِفة. ولنقل بأنّني كنتُ أرى الحياة من ثقبٍ صغيرٍ بسببِ الأفكار التي نتشرَّبُها من البيئةِ التي وُجدْنا فيها. يحتاجُ الإنسان لقراءةِ عشراتِ الكتب, ومشاهدة عشراتِ الأفلام, ومجالسةِ عشراتِ الشيوخ ليسمعَ الحكاية من أكثر من فمٍ واحد. نحنُ هنا نكتفي بمصدرنا اليتيم لنتبنّى حقائق لم نتعب في الوصولِ إليها. يقولُ آباؤنا ما قاله لهم آباؤهم، ونصدِّق ما صدَّقوه ونكتفي بذلك، ونرفضُ قبولَ غيره. أفادتني الكتبُ كثيرًا، علَّمتني الشكّ وحبَّ البحث, والركض وراء الحقيقة..

كنتُ من الذين يرونَ أنَّ على المرأةِ البقاءَ في بيتها لتخدم زوجَها وتربِّي أطفالها، ولا وظيفة تناسبُها كالوظيفةِ الطبيعيَّة التي انتقاها اللَّه لها. وكأيِّ رجلٍ شرقيّ، كانت تستفزّني المرأة المتمرِّدة، ويكفي أن أرى سيجارة في يد إحداهنَّ، أو أراها ترتدي فستانًا قصيرًا لأحكمَ عليها بأنَّها مُنحلَّة أخلاقيًّا. تُعجبني الشابَّة المحجَّبة، المؤدَّبة التي تسمعُ الكلام

ولا تُثير المتاعب. أبحث عن امرأة أتحكَّمُ بها، لأنَّني رجل والرجال قوّامون على النساء، حتى عثرتُ على وردة .

الإبنة الوحيدة لوالديْها، أنجباها بعدَ سنواتٍ من اليأسِ والانتظار؛ طلبَ منِّي والدُها أن أجدِّد لهم دهنَ الشقَّةِ، وكنتُ أُجيد زخرفة السقف والجدران.. حدَّثني بفخر عن ذكاء ابنته وأدبِها وتفوُّقها في الثانويَّة، وقيامها بكلِّ شيء في البيتِ إلى جانب فروضها المدرسيَّة. رأيتها عندما كنتُ واقفًا على السلّمِ منشغلًا بدهن الجدار، رأيت شابَّة جميلة ترتدي فستانًا طويلًا وتلفُّ شالًا أسود على رأسِها، تحملُ صينيَّة الغداء. أردتُ التحقُّقَ أوَّلًا من أنَّها تُبادلني الإعجاب، ثم كتبتُ لها رقم هاتفي على قصاصةٍ وضعتها على الصينيَّة بعدما فرغتُ من الأكل.

. وهي، ألم تكن متديِّنة كوالديْها؟

. بل كانت متديِّنة، تصلِّي أوقاتَها الخمسة، ولا تضعُ الماكياج ولا تعدِّل حاجبيْها الغزيريْن. تخرج بثيابٍ فضفاضة، وفي المناسبات، تضعُ

القليل من الكُحلِ، ماذا أقول لكِ.. تحفظ كذلك أجزاءً من القرآن الكريم، وتتصدَّق بمالِها، وتشاركُ في الجمعيَّاتِ الخيريَّة.

ـ مثل راهبة!

ـ تقريبًا.. كلّ ما كانت تسمحُ لي بفعلهِ معها في خلوتِنا هو إمساكُ يدَها، القُبَلُ والعناقات ممنوعة. تديُّنها كان عقبةً عليَّ اجتيازُها لأحصلَ عليها. كثيرًا ما كنتُ أغتاظ وألوذُ بصمتي عنها، تقولُ أنا أيضًا أرغبُ بمعانقتك وتقبيلك، ولكنَّني لن أفعلَ لأنَّ ديننا يحرّمُ ذلك! هذا زِنا، أحتقرُ الزانيات اللاتي يستسلمن في لحظات الضعف.. والآن، تريدني أن أصبحَ واحدةً منهنَّ؟ أتَّهمها: أنتِ في الحقيقة تحبّين رجلًا آخر، تقسمُ باللَّهِ وحياة والديْها بأنَّها لا تحبُّ أحدًا في العالمِ كما تحبُّني. لم أستسلم، ظللتُ ألحّ وظلّت تتمنَّع حتى حصلتُ على القبلةِ الأولى في حديقةٍ عامَّة. تورَّدت وجنتاها، عاتبتْني على ما فعلت، وبكتْ وهي تشعرُ بالذنبِ على الإثمِ الذي ارتكبَته.. هدَّأتُها، وقلتُ لها: لم تكن غلطتكِ.. كانت غلطتي ولن أُعيدَها.

ـ ولم تقبّلها مرَّةً أخرى؟

. ألا تعرفين ماذا يقول المثل الشعبيّ؟ إللي ذاق البنَّة ما يتهنَّى!

دامت علاقتنا سنتيْن. في أثنائها، كنتُ أنتهكُ محرَّماتِها شيئًا فشيئًا. أوَّل شيء سلبتُها إيَّاه كانَ حرِّيَّتَها. عندما لا تعجبني صديقة من صديقاتِها، أُخيِّرها بيني وبينَها، فتختارني. أبرِّر تسلُّطي بأنَّها ليست عشيقة ألهو بها، بل زوجة مستقبليَّة عليَّ امتحانها لأرى إذا كنتُ سأجدُ فيها الزوجةَ الصالحة. أصبحتْ تبادلني القبلاتِ بشغف، وعندما أعانقها تضمُّني إلى صدرِها بقوَّة. خلعتُ لها الوشاح، وداعبتُ شعرَها وشممتهُ. وبعدَ الشعر، تمكَّنتُ من ملاطفةِ صدرِها بيديَّ. أصبحتُ أدعوها إلى بيتنا حين تكونُ أمِّي وأختي غائبتيْن، نستلقي عارييْن ونفعل كلّ شيءٍ، إلَّا ذلك الشيء المهمّ.. تتصل بي وردة بعد كلِّ موعد نادمة على ما فعلناه، قلتُ لها ما دمتِ كلِّ مرَّةٍ تندمين، فلن أضعَ يدي عليكِ بعد اليوم، وبإمكانكِ أن تتوبي وسيغفرُ اللَّهُ لكِ. ومنذ ذلكَ التهديد، توقَّفتْ عن غناءِ الأسطوانةِ بعد كلِّ موعد.

. ولم تمارسا الحبّ أبدًا؟

. كنّا نمارسهُ سطحيًّا، لكنْ في أحدِ مواعيدنا لم نتحمَّل المزيد من التريُّث، كنتُ أعتليها وسألتُها فوافقت، ما زلتُ أذكرُ ذلكَ اليوم جيِّدًا. كان الوقتُ صيفًا وقتَ الظهيرة، دخَّنَّا سيجارة وشربنا بضعة كؤوس ويسكي..

. أصبَحَت تدخِّنُ وتشربُ أيضًا؟

. نعم، لقد أفسدتُها تمامًا! حوَّلتُها إلى امرأةٍ أخرى.. تدخِّن وتشربُ وتسمعُ الأغاني الهابطة، وترقصُ لي بقميصِ النوم، وتفعل كلّ ما آمرُها بهِ.

. وهل تغيُّرها هذا ما جعلكَ تغيّر رأيكَ بشأنِ الزواجِ بها؟

. كنتُ مُعدمًا وعاجزًا عن تحمُّل مسؤوليَّة الزواج. تغيُّرها أزعجني من ناحيةٍ أخرى، تمسّكُها بمبادئِها وقناعاتها كان يأسرني، وما إن غدت سهلةً وممكنة حتى توقَّفتُ عن اشتهائِها..

في تلك الظهيرة، أخذتُها إلى الحمّام، غسلتُ وجهها من الماكياج، بدت لي بذيئة ومثيرة. أنزلتُها بين ركبتيَّ لدقائق، ثم رفعتُها من شعرها

إليَّ مجدَّدًا. رحتُ أقبِّلها بتوحُّش حتى نضجت بين يديَّ، وطلبت منّي أن أفضّ بكارتها.. سالَ القليل من الدم، قطرات صغيرة وباهتة. كانت وردة طيِّبة وكريمة معي، تمنحني مصروفها إذا مررتُ بضائقةٍ مادِّيَّةٍ، وتُعدُّ لي أصنافًا من حلوياتِ العيد وتخبِّئها حتى نلتقي. ربَّما لم أتمكَّن من حبِّها، لأنَّها لم تحرق قلبي! مراضاتها الدائمة لي، تواجدها المستمرّ، كلّ هذا جعل مشاعري تفترُ تجاهها. أتقرَّبُ منها عندما تشتدُّ حاجاتي الجسديَّة، وما إن أقضي حاجتي حتى أتحجَّج بالعملِ وظروفٍ أخرى، ووصلتُ إلى مرحلةٍ لم أعد أرغبُ لا برؤيتِها ولا بسماعِ صوتِها.

قرَّرتُ تركَها. لم تصدِّق بأنَّني سأتركُها حقًّا، حتى أنا لم أعرف كيفَ أبرِّرُ أسبابَ هذا الفراق.. قلتُ لها ببساطة لم أعد أحبّكِ، قالت: بعد كلّ الذي فعلتهُ من أجلك تتركني؟ كيفَ أشرحُ هذا العارَ لوالديّ؟ قلتُ: «كلٌّ منَّا مسؤولٌ عن نفسه، وهل أنا مجبرٌ على الزواجِ منك والعيش معك في بيتٍ واحد كلّ حياتي؟»

ـ لمين، لا تبدو بكلِّ هذهِ القسوة!

ـ لا تخدعكِ ملامحي، أنتِ لا تعرفين شيئًا عن هذا الحَجَر في صدري..

ـ وبعد؟

ـ ألقت بنفسها من الطابق الخامس.

في آخر مكالمةٍ، اقترحتُ عليها بعض الحلول، كترقيع بكارتها عند طبيب نساء. احتدّ النقاش، وهدَّدتني باكية بأنَّها ستُقدمُ على الانتحار إذا فارقتُها.. قلتُ لها، هي حياتكِ وأنتِ حرَّة فيها، عيشي، موتي، لم يعد أمركِ يهمّني، وحدكِ الخاسرة، أيَّتُها الغبيَّة! كسرتُ شريحة الهاتف وانقطعتُ عنها لأسبوعيْن.. قابلتُ صديقًا مشتركًا لنا، استغربَ كيفَ أتحدَّث بمزاجٍ جيِّد، بينما وهران كلّها مقلوبة بسببِ انتحارِ شابَّةٍ جميلةٍ حصلت على أفضل النتائج في امتحان شهادةِ البكالوريا، ثم سألني: هل أنتَ بخير؟ ألم تسمع بوردة؟ لقد رمت نفسها من الطابقِ الخامس، ورفض الإمام أن يصلِّي عليها في جنازتِها، لو ترى يا لمين حالة والدِها تقطِّع القلب!.

تسمَّرتُ في مكاني.. انتحرت وردة بسببي، سلبتُها كلّ شيء، حرِّيَّتها، شبابها، أحلامها، براءتها، وروحَها. لن يحاسبني القانون على موتِها، لكنَّ قلبي فعل. لم أقتلها بيديَّ هاتيْن، لكنَّني دفعتُها إلى الموت بدناءتي. أوقعتها في شباكي مدّعيًا بأنّني رجل جيّد حتى حصلتُ عليها، لهوتُ بها ورميتُها كما تُرمى القمامة. هذهِ إحدى أعظم خطاياي، لتفهمي لماذا قلتُ لكِ في بدايةِ الطريقِ بأنَّني أنا الشيطانُ بعينه، ولا ألمس شيئًا جميلًا إلَّا وأحرقه عن قصد أو غير قصد!

* * *

التهمتني جيم بنظراتِها الغريبة! شعرتُ بأنَّ ذلكَ الضوءَ الأخضر في عينيْها يخترقُ أعماقي. ألقيتُ بظهري إلى المقعد، وأغمضتُ عينيّ. وجدتُها حيلةً جيِّدة للهروبِ منها..

ـ هل ندمتَ على ما فعلْتَه بها؟

ـ كنتُ مثل مجرمٍ ارتكبَ جريمة لم يُخطِّط لها، وجد نفسه مرغمًا على القتلِ فقتل، ولم يستوعب ما فعلهُ إلَّا لاحقًا..

. لو يعودُ بكَ الزمن، هل كنتَ لتتصرَّفَ على نحوٍ مغاير؟

. ولكنَّ الزمن لا يعود، ولا من رحلوا، لذلك لن أطرحَ على نفسي سؤالًا لا فائدة منه.

. أرى أنَّ هذا الحديث الجادّ بدأ يُرهقك، لماذا لا نتحدَّثُ عن نوعٍ آخر من الحماقات؟ كتصرُّفاتٍ غبيَّة قمنا بها في ساعات الضجر ورغبة في المغامرة.. وما إلى ذلكَ!

. لا أستطيعُ أن أتذكَّرَ، ابدئي أنتِ..

. تلصَّصتُ وأنا صغيرة على أبي عاريًا في أثناء استحمامه، وتلصَّصتُ أيضًا على سروالِهِ الداخليّ الذي كان متَّسخًا في سلَّةِ الملابس. أردتُ أن أعرفَ كيفَ هي رائحته.

. لماذا فعلتِ هذا؟

. لأنّه كان كلّ عالمي! وقبَّلتُ مرَّةً زميلًا قبيحًا في الثانويَّة مقابل مبلغٍ ماليّ كبير!

. لم تكوني بحاجةٍ إلى المال!

. كنتُ أريدُ معرفة كيفَ سأحسُّ وأنا أمنحُ شيئًا من جسدي مقابل المال. سرقتُ أيضًا.. ملابس وموادّ غذائيَّة وإكسسوارات. حدث هذا في أعوامِ مراهقتي، وكدتُ أموتُ بجرعةٍ زائدة من المخدِّرات..

. يا إلهي! لم أتخيَّل أنَّكِ قادرة على فعل كلّ هذا..

. هذهِ مجرَّد حماقاتٍ صغيرة، فعلتُ ما لا تستطيع تخيُّله!

. لكنْ هذه ليست مراهقة طبيعيَّة، أعتقدُ أنَّكِ كنتِ بحاجةٍ إلى المساعدة والعلاج. خللٌ في حياتكِ سبَّب لكِ كلّ هذهِ الفوضى، لم يكن الفقر ولا بيئة سيِّئة كالتي كبرتُ فيها، ربَّما اليتم! غيابُ والدتكِ وتقصير والدكِ في الاهتمام بكِ.

. بالعكس، والدي بالغ بالاهتمام بي، ربَّما مبالغته جعلتني أقوم بذلك. دورك، تحدَّث عن حماقاتِكَ الصغيرة..

. اممم.. كسرتُ ذراعَ أختي إكرام لأنَّها أكلت حصَّتِي من الكاتو، خاصمتني أمِّي لأيَّام، ظلَّت تدعو عليَّ: «يعطيك الرّهج، على حبَّة كاتو كسرت ذراع أختك؟». ومن الطفولةِ أيضًا، أتذكَّر هذهِ الحادثة.

كان صديقي سمير يلاعبُ قطَّة مشرَّدة، وأراد حملَها ضدَّ رغبتها، فخدشت ذراعه. أخذه والده إلى المستشفى، وتحتَّم على صديقنا أن يُحقن يوميًّا لمدَّة عشرين يومًا.. كان سمير يُعاني من فوبيا الإبر، يرتعشُ قبل ذهابه، وفي أثناء الحقن. وانتقامًا لمعاناته، انتقمتُ ومالك من القطَّة، تدبَّرنا إبرة وملأناها بماءٍ آسن وحقنّاها.. بعد يوميْن، عثرنا عليها نافقة منتفخة بالقربِ من القمامة.

مارستُ الجنس مع صديقةٍ لأمِّي، أغرتني ولم أستطع صدّها..

ـ كيفَ وجدتَ الجنس معها؟

ـ ممتعًا في اللحظةِ نفسِها ومقرفًا بعد الانتهاءِ منه! لا أعلم كيفَ أشرحُ هذا.. فلنقل بأنِّي أحضرتُ لكِ اليوم طبقًا لا تحبِّينه ولكنَّكِ جائعة، ستأكلينه ثم تتذمَّرين من طعمه.

ـ ماذا تريدُ أن تسمعَ الآن؟

ـ كيفَ جئتِ إلى هذا العالم؟

- ١١ -

كيفَ جئتُ إلى هذا العالم؟ جئتُ برغبةٍ غبيَّة من جنّات التي كانت تحلم بأن تصبحَ أُمًّا. يحلمُ الجميعُ بالحصولِ على الأطفال، ولا أحدَ يفكّر جدّيًّا بمدى قدرتهم على التكيُّفِ مع هذا العالمِ.. يجلبونهم ثم يعرّضونهم لمواجهةِ مشاكلِ الحياةِ المعقَّدة؛ الحزن والكآبة والأمراض والحروب والفقر والزلازل وأخطار الحبِّ والخيانة، وكلّ ما قد يكدِّر مزاجنا! لم يرغب جهاد بإنجابِ طفل، أليست أنانيَّةً لا تُغتفر أن يحاربَ زوجانِ الضجرَ في علاقتهما بتوريطِ طرفٍ ثالث لا ذنبَ له؟ لطالما فضَّل فكرةَ التبنّي ليحتوي طفلًا تمَّ التخلّي عنه، تفهَّمتهُ ووجدتُ فيهِ الكثير من الحقِّ معه.

.كنتُ أتساءل بأيِّ كاتبٍ عدميٍّ تأثَّرتِ! والآن فقط، بدأتُ أفهمُ عمَّن ورثتِ هذهِ السوداويَّة!

رضخَ لرغبة أمّي شرط إنجابِ طفلٍ واحدٍ فقط، ومن سوء حظّي، كان ذلكَ الطفلُ أنا! عندما اكتشفت جنَّات حملَها، لم ترَ علامات الفرحِ على وجهه حتى وهو يرافقها طوال فترةِ الحملِ إلى طبيبِ النساءِ، كما لو لم يكن معنيًّا بما تحملهُ في بطنها. وهذا عذَّبها، هي الحسَّاسة العاطفيَّة، تشاجِرهُ متَّهمة إيَّاهُ بالبلادةِ: «كيفَ للشاعرِ المرهف أن يكونَ خاوي القلب إلى هذه الدرجة؟ كلّ ما تكتبهُ من شِعر عن الطبيعةِ واليتامى والبلادِ الجريحة ليس أكثر من ادِّعاء، أنتَ عديم الإحساس كالخشبِ، عاجز عن حبِّ قطعة منك تكبرُ في مكانٍ آخر». كان إمّا يلوذُ بالصمت، أو يقول: «أنا عاجز فعلًا عن الإحساسِ بهذهِ الطفلة يا جنَّات، ولا يمكنني فعل شيءٍ حيال ذلك. توقَّفي عن إرغامي على أن أكونَ الأبَ الذي ترسمينه في مخيِّلتكِ.. اقبليني بما ترينه عيوبًا مثلما أقبلُ مزاجيَّتكِ وتجريحكِ الدائم لي.»

ـ ولم يتغيَّر بعدَ ولادتكِ؟ وبعدَ أن حملكِ على ذراعيْهِ؟

وُلدتُ في يومٍ دافئ كان عصبيًا على جهاد. جلسَ في قاعةِ الانتظار يرتجفُ وهو يصغي إلى صراخِ زوجتهِ المتواصل، وعندما سمعَ صوتَ

بكائي ولم يسمع صوتَ حبيبته، جفَّ في وجهه الدم من الهلع، فاقتحمَ غرفة التوليد وسط دهشةِ الممرِّضات والمريضات.. وركضَ باتِّجاهِها، يقبِّلُ يدها ويسألُها كيفَ تحسّ، بعدَ ولادتي.. تصرَّف كأيِّ أبٍ جيِّد، ساعدها في الاعتناءِ بي وتربيتي، لكنَّه لم يبدأ بحبِّي حقًّا إلَّا بعدَ وفاتِها. كنتُ أثمنَ ما تبقَّى منها، النسخة الصغيرة منها التي سينتظر بصبرٍ أن تكبر لتكونَها.

عشنا في قريةٍ ساحليَّة جميلةٍ، في جناحٍ تابعٍ لبيتِ جدِّي. بعدَ تخرُّجِ والديّ، عاد إلى مدينته بجّاية، وعادَت أمِّي إلى تلمسان. سارعَ بالزواجِ منها قبل أن يعثر على بيتٍ ووظيفة، وغامرَ بالعيشِ معها في البيتِ العائليّ الكبير. بدأت المشاكل منذ يومِ الخطوبة بسببِ صدامِ الثقافات.. في تلمسان، يدفعُ الخاطبُ مهرًا كبيرًا مقابل الحصول على حسناءٍ تلمسانيَّة من عائلةٍ عريقة! أمّا في المدينةِ التي جاء منها أبي.. يفعلون العكس، يضعُ الخاطبُ مبلغًا كبيرًا على صينيَّة مستديرة، لا يأخذ منهُ والدُ العروسِ إلَّا ورقة نقديَّة واحدة. حينما طلبَ والد جنّات مبلغًا كبيرًا ليجهِّزَ العروس، وجد والدُ جهاد إهانة في ذلك،

وشعرَ بأنَّه بصدد إجراء صفقةٍ يشتري من خلالِها امرأةً لابنه. حلَّت والدتي المشكلة لما تدخَّلت متحدِّية والدَها بأنَّها لا تطلبُ من جهاد سوى خاتمٍ ذهبيّ، وتحضيرات العرس سيهتمَّانِ بها معًا.

تفاقمت المشاكلُ بعدَ انتقالِها للعيشِ معهم. لم تبذل جهدًا لتعلّمِ اللغةِ الأمازيغيَّة، وجدتها لغةً صعبة ومعقَّدة، وأعلنت للجميع في إحدى السهرات بأنَّها لن تبذل عناء محاولة تعلُّم لغةٍ ميّتة لن تحتاجَها في شيء. قالوا لها ما دمتِ تنبذين لغتنا، لماذا نستخدم لغتكِ للتخاطبِ معكِ؟ كانت صريحة أكثر ممَّا يجب، وجاهلة في المراوغة. تقولُ ما يجول في ذهنها كما هو. وكان أبي يدافعُ عنها قائلًا إنَّها ساذجة؛ والأحرى بكم أن تحبُّوها، لأنَّها لا تعرفُ كيفَ تكذب..

آمنت أمِّي بأنَّ الحياة المشتركة مع أشخاصٍ لم نختر العيش معهم بحاجةٍ إلى الكثير من النفاقِ والكذب لتكونَ ممكنة. انطوائيَّتها لأجلِ الكتابة، ورفضُها المستمرّ لتلبيةِ الدعوات والمجاملات الاجتماعيَّة، جعل الجميعُ يكرهها. لكنَّ أبي لم يضغط عليها، وإنَّما طلبَ منها المزيد من الصبرِ حتى سافرا إلى باريس.. ظلَّت جدَّتي تبكي لأسبوعٍ

كاملٍ أثناءَ التحضيراتِ للسفر، تُبقيني عندها كلّ النهار، تدخلُ أمِّي منتصفَ الليل لتأخذني من بين ذراعيْها وتضعني في سريري.. أمتلكُ ذاكرةً جيِّدة، ما زالت صورُ الماضي واضحة مثلَ وجه جدَّتي الموشوم، جسدها النحيف وهي ترتدي الفستان القبائليّ الملوَّن، تعقدُ الفوطة المخطَّطة على خصرِها، تُريني أشجار الزيتون وكروم العنب، والبساتين والدكاكين والسهول والمنعطفات، ولم تدرِ بأنَّها في تلك الأثناءِ التي كانت تجتهدُ لتخزِّن في ذاكرتي تفاصيل الأمكنة، كنتُ منشغلة عن تلكَ التفاصيلِ بها. أصبحتُ أتذكَّرُها كما لو لم تكن امرأةً حقيقيَّة، بل شخصيَّة من رواية أو سيِّدة قابلتُها في حلمٍ قصير ظلَّ ملتصقًا بذاكرتي.

نحنُ أيضًا عانينا من قسوةِ الغربة، شغل أبي وظائف متواضعة قبل عثورهِ على عملٍ يحبُّه، عملَ كنادلٍ وكمحاسبٍ في السوبرماركت وسكرتير لمحامٍ لامع. وبعد استقرارنا في المدينة وتعوُّدنا على نظامها وجوِّها، بدأ أبي العمل في الصحافة من خلالِ ترجمةِ مقالاتٍ وقصص قصيرة من اللغةِ العربيَّة إلى الفرنسيَّة. أمَّا أمِّي، فقد عملت بائعة في

محلٍّ للهدايا لشيخٍ تونسيٍّ. وبعد أربع سنواتٍ من إقامتنا في مدينةِ باريس، اكتشفتْ جنّات متأخِّرة ورمًا في الرحم بعد انتشارهِ في جسدها، فتوفِّيت هناك، ودُفِنت بوصيَّةٍ منها في مدينتها تلمسان.

ـ كيفَ تعامل جهاد معَ خبرِ مرضِها؟

أجرى عشرات التحاليل حتى أرهقَها بشكِّهِ وآمالهِ الكاذبة. انهارت ذات مساءٍ باكية، رمت في وجهه نتائجَ التحاليل وصور الأشعَّة، وقالت له: «يكفي، لقد تعبت، واللَّهِ تعبت، أنا أموت، وعليكَ أن تقبل هذا وتساعدني على تحمُّلِ هذا الألم حتى أرحلَ بسلام..».

ـ وكيفَ كانت علاقتهما في باريس؟ هل ظلَّ يعشقها كالسابق، أم أنَّ الزواج بروتينه قتلَ الشغفَ بينهما حتى أصبحا مثل أيِّ زوجيْن يعانيانِ ضجر العادات اليوميَّة؟

ـ في الواقع، لم أشعر يومًا بأنَّهما متزوِّجان!

...

ـ لماذا سكتِّ؟

. لأنَّني اكتفيت، ما عدتُ أريدُ الحديثَ عنهما، أعتقد أنَّني انتهيتُ من حكايتهما الآن..

. ستبدئين بروايةِ حكايتكِ؟

. مؤكَّد، ولكن ليسَ قبلَ أن تنتهي من قولِ خطاياك! حتى الآن لم تُخبريني كيفَ قتلتَ والدتك؟

. لماذا تهتمِّين بها لهذا الحدّ؟

. لأنَّ تلكَ الخطيئة ما جذبتني إليكَ، والخطايا الأخرى أصغيتُ إليها لأنتظر ما سترويهِ لي عن والدتكِ..

. سأرويها باختصار! لأفيَ بالكلمة وأتخلَّصَ من هذا العبء.

. أشرقت الشمس.. سننزل بعد قليل لنتناولَ إفطارنا كما قال السائق، وبعد أن نصعدَ إلى الحافلة، ستقصَّها عليَّ.

- ١٢ -

توقَّفت الحافلة في قريةٍ صحراويَّة لم نسأل عن اسمِها بعد. بدأ بعض الركَّابِ بمطِّ أطرافهم، وسارع آخرون بالنزول بنشاط. طلبت منِّي جيم التمهُّل قليلًا، لأنَّها تكرهُ التدافع. وكنتُ قد نسيتُ أنَّها عاشت في فرنسا، وليست معتادة على مظاهرِ التخلُّفِ في بلادنا. حدَّقت حولَها بعينيْها الواسعتيْن: «يا إلهي! بإمكاننا ارتكابُ الجرائمِ هنا ونحيا مئة سنة ونموت من دون أن يعرف عنَّا أحد». دخلنا معًا المقهى التابع لمحطَّةِ البنزين. بدت على الرَّغم من إرهاقِها جميلةً كما خلقَها اللَّهُ لتكون. النادلُ الذي تقدَّم ليسمع طلباتنا تسمَّر لثوانٍ يحدِّق إليها بدهشة، بالدهشةِ نفسِها التي جلستُ أُحدِّق أوَّل مرَّة إلى جمالِها المرعب. طلبتُ قهوة سادة وحبَّة كرواسون، أمَّا هي، فلم تكن محدَّدة في طلباتِها، لم تطلب نكهة معيَّنة للعصير، أمَّا الكاتو فقالت أحضر أيّ شيء..

ـ ألا تشربين القهوة صباحًا؟

. أحيانًا أشربُها.

. لا تحبّينَها؟

. لا أحبُّها ولا أكرهها.

. ماذا عن الشاي؟

. أوه! لا توجع رأسي بهذهِ الأسئلة التافهة الآن، ما قلته عن القهوة ينطبق على كلّ شيء، لا أحبّ ولا أكره.. أتناولُ الموجود بلا تذمُّر.

. وهل ينطبقُ هذا أيضًا على الأشخاص والمدن والألوانِ وما إلى ذلك؟

. تمامًا!

. لكنْ ما نحبُّه ونكرهه يحدِّد من نكون، لأنَّنا نختارُ ما يناسبنا ويرفع معنويَّاتنا، ونكرهُ ما ينفِّرنا وما لا يكون جميلًا علينا وحولنا، كأنَّكِ تقولين بأنَّه ليس هناكَ ما يُعجبكِ، وليس هناك ما تنفرين منه..

ـ حسنًا، أنا أجدُ من السخفِ إنفاقُ أموالٍ طائلة على الثيابِ والمطاعمِ، فقط لأنَّنا نستهلكُ أشياء تجلبُ لنا السعادة، بحيث بإمكاننا أن نحظى على قسطنا من السعادة بدون استهلاكِ الأشياءِ بغباء.. أمَّا المدن، فكلّها متشابهة! حتى المدن الرائعة التي تحلمُ بزيارتها، أو تعشقها لأنَّك مررتَ بها زائرًا، ستملُّها إذا عشتَ فيها وحفظت شوارعها ومداخلها عن ظهرِ قلب.. الاعتياد يقتلُ شغف كلّ شيء.. والناس! قل لي ما الفائدة من حبّهم أو كراهيّتهم ما دمنا زائلين؟ الإنسانُ حتى إذا عمَّر فهو لا يُخلّد، لا يقضي على الأرض سوى حفنة من السنوات تتسرَّبُ من جسده بسرعةٍ مذهلة، فلماذا يُرهق نفسه بالحبِّ والكراهية؟ لماذا لا يكتفي بعلاقاتٍ بسيطة بلا دراما ولا معاناة ولا تعلُّق، بل بقبولٍ للطرفِ الآخر كيفما كان وقبولِ رحيلهِ بعد ذلك؟

ـ هل كنتِ هكذا دائمًا، أم أنَّك مررت بظروف جعلتكِ تصبحين كما أنتِ اليوم؟

. كنتُ أحبّ وأكره وأتعلَّق وأنبذ ما لا يروقني، مرَّنتُ نفسي على هذا الحيادِ.

. يعني هذا أنَّكِ ما عدتِ تتألَّمين، لن تتألَّمِي إذا وقعتِ في الحبِّ وتخلَّى عنكِ من يحبّكِ مثلًا؟

. لن أقعَ في الحبّ.. أمَّا عن الألم، فقد تألَّمتُ بما فيهِ الكفاية، ما زلتُ أتألَّمُ بسببِ أمورٍ حدثت في الماضي، ولكنَّني أعدكَ بأنَّني لن أعرف الألم بعد اليوم.. سأتحمَّله وأقاومه وأقهره.

. حين تتحدَّثين عن آلامِ الماضي، ومن خلالِ ما رويتهِ لي عن والدكِ وطباعهِ، بإمكاني تخيُّل حياتكِ على هذا النحو: توفِّيت والدتكِ جنَّات، ومنذ ذلكَ التاريخ، بدأت حياتكِ تتغيَّر إلى الأسوأ، لأنَّ والدكِ لم يسعد بإنجابِ الأطفال، ولا كان مستعدًّا لتحمُّل مسؤوليَّة كهذهِ..

ـ أبدًا.. بعدَ وفاةِ أمِّي، كرَّس والدي ما تبقَّى لهُ من قلب لحبِّي. أحاطني برعايةٍ أموميَّة لا مثيل لها. قلتُ لكَ بأنَّني كنتُ أثمن ما تبقَّى من حبيبته، وها أنتَ تجرُّني لأحكي عنهما مجدَّدًا.

ـ لا بأس، فلنغيِّر الموضوع، هل تقرأين بالعربيَّة، أم بالفرنسيَّة فقط؟

ـ غالبًا بالفرنسيَّة، لكنَّني أفهم العربيَّة جيِّدًا.

ـ وهل يوجد كُتّاب جزائريُّون تحبِّين القراءة لهم؟

ـ لا أكذب عليك، أعرفُ الفرونكوفونيِّين فقط. والكُتّاب القبائل كلُّهم قرأتُ لهم، مولود فرعون، طاهر جاووت، سالم شاكر.. من دون أن أنسى مولود معمّري، هل قرأتَ له؟

ـ للأسف، لم أعثر له على أعمالٍ مترجمة.

ـ عليكَ أن تقرأ له، الدّا مولود كاتب عظيم! ويكفي أنَّه دفع حياته ثمنًا لإيمانهِ بقضيَّة.

. ما أعرفهُ أنَّه ماتَ في حادث سيَّارة؟

. نعم، سقطت على سيَّارته شجرة! أيّ أحمق يصدِّق ميتة كهذه إذا تعلَّق ذلك الموت بشخصٍ يستهدفه النظام، لا لشيء إلَّا لأنَّه يُلقي محاضرات تعليميَّة.

. ألا ترين أنَّكِ تُبالغين في الدفاعِ عن الرموز الأمازيغيَّة؟ ألم يكن مولود معمّري المتسبِّب الأوَّل في فوضى الربيع الأمازيغيّ؟ أليس من حرَّض الطلَّاب أثناء تلك المحاضرات على الخروج إلى الشوارع؟

. مطلقًا! الجميعُ يعلمُ ما حدث. ثمَّة رواية واحدة يردِّدها من يتَّفق معنا ومن لا يتَّفق، في ربيع 1980.. كان مولود معمّري بصدد إلقاءِ محاضرة في جامعة تيزي وزو عن الشعر الأمازيغيّ القديم، وتمّ إلى منْعِهِ من إلقائِها في المدن القبائليَّة فقط. حين تُمنَع من ممارسةِ حقٍّ ثقافيٍّ تافه كهذا، كيف لك ألَّا تغضب وألَّا تثور؟ وكيف لكَ ألَّا تحوِّل هذهِ المطالب الثقافيَّة إلى نضالٍ سياسيٍّ، وأنت ترى رفاقك يُعتقلون في السجون ويعذَّبون ظُلمًا؟ لقد ارتكبَ النظام الجزائريّ أخطاءً في حقِّنا لا يغفرها لهُ القبائل حتى يومنا هذا، حتى بعد أن عدَّل الرئيس اليمين

زروال الدستور، ومنح الهويَّةَ بُعدًا أمازيغيًّا إلى جانب العروبةِ والإسلام، وحتى بعد أن اعترفَ بها الرئيس بوتفليقة لغةً وطنيَّة، وحتى وهو يرسِّمها اليوم ويبرمجها كمادَّة في المدارسِ كافَّة. القبائل لا ينسون الماضي، لأنَّ الماضي تلوَّث بالدمِ والدمع..

. ولكنَّكِ قلتها بنفسك، لقد أجرى اليمين زروال تعديلًا يعترفُ بالبُعد الأمازيغيّ للبلاد، فلماذا ثار الشعب بعد ذلك مجدَّدًا خلال 2001؟ لاحظي أنَّ القبائل على استعدادٍ دائم للاحتجاج والتظاهر وكأنَّهم لا يكتفون! كلَّما لبُّوا لهم مطالب، ظهرت أخرى.. حتى وصل الأمرُ بهم إلى رغبةٍ بالانفصالِ عن الجزائر؟

. لأنَّ النظام كان عنيفًا دائمًا في الردِّ والتعاملِ مع المتظاهرين. في 2001، لم يخرج الناسُ للاحتجاجِ بلا سبب يا لمين. بعد أحداث الربيع الأسود، أصبح الناس يخرجون كلّ عشرين أفريل احتفالًا بالربيع الأمازيغيّ. يلبسون ما يعبِّر عن ثقافتهم، يغنُّون، يتظاهرون ويؤكِّدون حضورهم، بل وجودهم، في هذا العالم. في تلك السنة، اعتقلوا طالبًا جامعيًّا اسمه ماسينيسا قرباح، وقتلوه في مقرّ للدركِ الوطنيّ. خطفوه

حيًّا يُرزق من المظاهرة، وأعادوه قتيلًا إلى والديْه. ذلك الاغتيال الأليم هو ما أشعل شرارة الغضبِ مرّة ثانية، وجعل القبائل يخرجون في تيزي وزو وبجّاية والعاصمة. خرج أشخاص مختلفون للتعبير عن غضبهم، تجد بينهم مثقّفين كما تجد مخرّبين غاضبين لا يمكن السيطرة عليهم. أمّا عن فكرة الانفصال.. صدِّقني، أغلب من أعرفهم يرفضون هذهِ الفكرة، ولا يتخيَّلون القبائل بلا جزائر، ولا جزائر بلا قبائل.

وقفتُ لأدخِّنَ. طلبتْ جيم منّي سيجارة تدخِّنها قبل أن نصعد، تدخِّنينها هنا؟ أمام هؤلاء؟ هزَّت كتفيْها ووضعتها بين شفتيْها بلامبالاة، وراحت تسحبُ أنفاسًا وتُطلقُ أخرى من فمها. حدَّق إليها جميعُ الركّابِ باستهجان، لأنّهم لم يعتادوا على رؤية امرأةٍ تدخِّنُ في مكانٍ عامّ. حتى العاهرة تدَّعي الفضيلة، وهم يقدِّرون لها ذلك التحفُّظ في مجتمع مزدوج لا يمارسُ دعارته إلّا سرًّا. صعدنا إلى الحافلة وعدنا إلى أماكننا، شردتُ أبحثُ عن نقطةٍ أبدأ منها حكايتي عن أمِّي كلتوم.

* * *

هل تذكرين حادث السيَّارة الذي حدَّثتكِ عنه، وخسرتُ فيهِ صديقيّ؟ بعدهُ، حاولتُ الخروج من أزمتي النفسيَّة بالدخول في علاقةٍ عاطفيَّة جديدة كانت بطلتها وردة . عثرتُ على طريقةٍ أهربُ بها من التفكير بالانشغالِ بأيِّ شيء آخر. وبعد انتحارِ وردة، عانيتُ فصلًا طويلًا آخر من الندم، حاولتُ التملُّص منه بإيجادِ عملٍ جديدٍ في السكنِ الجامعيّ كعونِ أمنٍ. هناكَ، كنتُ أرى عشرات الطالباتِ الفاتنات كلّ مساء؛ ومن كثرةِ ما صاحبتُ من الطالبات، وصلتُ إلى مرحلةٍ اكتفيتُ فيها منهنَّ، كرهت تواجدي الدائم في مساحةٍ مكتظَّة بهنَّ.. يتجوَّلن بزينتهنَّ لأجل مواعيد غراميَّة، يثرثرن عن مواضيع تافهة تتعلَّق بالطبخ والأحذية والرجال والماكياج. فقدتُ رغبتي بالتعرُّفِ على امرأةٍ جديدة، حتى قابلتُ ناريمان . إذا أردتُ أن أصفَها بجملٍ مناسبة تعبّر عن الزمنِ الذي احتلَّته من حياتي، سأقول: «كانت انتقامَ اللَّهِ لي على ما فعلتهُ سابقًا، تجسّد فيها كلّ الشرِّ الذي كان ينتظرني وأستحقّه..».

لن أحدِّثكِ عن تفاصيلِ علاقتِي الكاملة بها، سأحاولُ الاختصارَ قدرَ الإمكان.. لأنَّها لم تكن إنسانةً عزيزة بل مؤذية، لا تستحقُّ أن أضيّع وقتي في الحديثِ عنها.. في يومٍ لقائنا الأوّل، كنتُ واقفًا أمام بوَّابةِ الجامعة. دخَلتْ متأخِّرة بنصفِ ساعة، شابَّةٌ مُحجَّبة، جميلة، أناقتها لافتة إلى الحدِّ الذي تبدو فيهِ مضيفة طيرانٍ. وضَّحتُ لها كيفَ تسيرُ الأمور عندما تتأخَّر الطالبة، وفي أثناءَ ذلكَ الحوار، تعرَّفتُ عليها. سألتُها عن اسمِها، حدَّقت إليَّ كما تحدِّق القطَّة إلى فأرٍ تنوي اللعبَ به، ناريمان ..

لم تكن ناريمان فائقة الجمال، لكنَّ شيئًا فيها كان يجعلُ كلّ حواسِّي تتيقَّظ؛ روحها المتمرِّدة، جرأتُها، غنجها. كانت مثل عسلٍ محشوٍّ بالسمِّ لا تتعرَّفين على أثرِه إلَّا بعدَ التهامهِ كلّه. امرأة مراوغة وكاذبة، كذبُها كم كان مُغريًا حين تدَّعي الضعف مبرِّرة أسبابه بخوفها من فكرةِ خسارتي، وذلك الماء الذي يخرجُ من عينيْها، كم كان يبدو نقيًّا وطاهرًا، ولم يكن!

بدأنا نتواعد سرًّا.. تقولُ كي لا أخسرَ وظيفتي بسببها، ولم أفهم إلَّا متأخِّرًا خجلها أمامَ صديقاتِها. ستفعل المستحيل كي لا تكتشفَ إحداهنَّ بأنَّها تواعدُ الحارس! على الرَّغم من فقري، كنتُ كريمًا معها، وحاولتُ إسعادها.. آخذها إلى أيِّ مطعمٍ تشيرُ إليهِ بإصبعِها، أمنحها نصفَ مرتَّبي لتشتري حقيبة غوتشي وحذاءً من ماركةِ زارا، أصحبها إلى الشواطئ والفنادق، وهذا كلّه لأنَّنا تعاهدنا على الارتباطِ بعدَ تخرُّجها. كنتُ أراها فاتنة على الرَّغم من تشوُّهٍ يمتدُّ من أسفلِ وجهها إلى عنقها بسببِ حرقٍ قديم.. أرغمها على ارتداءِ الحجابِ لمداراتهِ.

في ذلكَ الحين، باعت أمِّي الذهبَ القليل الذي ادَّخرتهُ كي تقوم بجراحةٍ لإزالة المرارة. اختارت عيادة خاصَّة تُجري لها العمليَّة، لانعدامِ ثقتها في المستشفياتِ الحكوميَّة. وفي الوقتِ الذي كنتُ قلقًا على صحَّةِ أمِّي، لم تتركني ناريمان وشأني ببكائِها، وظلَّت كلّ ليلة تطلب منِّي المال كي تجريَ عمليَّة تجميليَّة تُعالجُ بِها التشوُّه في عنقها. قالت إنَّ ثمنُ التجميل سيكونُ مهرَها الوحيد. لم يكن بحوزتي المبلغ كاملًا،

فقرَّرتْ تَركي، لأنَّها لا تستطيع الارتباط برجل لا يمكنها الاعتماد عليه!

. كيفَ تصرَّفت؟

. طلبتُ من أمّي كلثوم أن ترافقني إلى بلعبَّاس لنخطبَ ناريمان. استاءت منِّي: «وهل ترى الوقت مناسبًا لنخطبَ الفتاة؟ أنا مريضة، دعني أتعافَ. وبعد ذلك نخطبُ لك العروس من تندوف إذا بغيت». انتابَها الفضول لتلقيَ نظرةً على الشابَّةِ التي سلبت عقلي. أريتُها صورةً لها، لم تعجبها: «واللَّهِ، لم يرتح قلبي لها. لا تبدو بريئة، تبدو صعبة ومدلَّلة ولا تشبهنا.. نحن بسطاء، ولا أظنُّك تقدر على أن توفِّر لها الحياة التي تطلبها».

لم أخجل من نفسي حين طلبتُ من والدِتي أن تُعيرني مالها لأستعيد احترام حبيبتي: «أُعيده لكِ بعد شهريْن من مرتَّبي، وما سأستلفه من الأصدقاء». اشمأزَّت من طلبي الوضيع، لم تصدِّق بأنَّني ابنها الذي شاركتُها معاناة الفقر والبؤس واليُتمِ والترمُّل، الابن الذي كانت تعمل في البيوتِ خادمة لتُطعمه من فضلاتِ الأثرياء، وتلبسه ما يعافه

أولادهم من ثياب. ذكّرتني بكلّ تضحياتها بصوتٍ يجرحه البكاء، فقلتُ لها: «أنتِ تبالغين كعادتكِ، تغارين من كنَّة مستقبليَّة وترينَها تنافسكِ في ابنكِ من الآن».

سرقتُ المال، وسافرتُ إلى مدينةِ سيدي بلعبَّاس. وسلَّمتُه لحبيبتي لتُعالج ندوبَ وجهها. عانقتني بقوَّة: «قلبي ما غلطش، كان يقولي لمين عمره ما راح يبخلك». في طريقِ عودتي إلى وهران، كنتُ أفكِّر في طريقةٍ أُراضي فيها أمِّي الطيِّبة. سأتدبَّر المال، وأُجري لها العمليَّة في أقربِ وقت. وعندما تتعافى سنذهب جميعًا لنخطب المرأة التي أحبّ.. وصلت إلى البيتِ معجونًا بخجلي، بحثتُ عن أمِّي وجدتُها مستلقية هناك على فراشها، عيناها متورِّمتان من البكاء، تهزّ رأسها خائبة الأمل، ولم تعاتبني بكلمة واحدة!

* * *

عادت ناريمان إلى الجامعة طالبةً أخرى، بالكادِ تعرَّفتُ عليها. تعافت من العمليَّة واختفت الندوبُ من أسفل وجهها. قابلتُ شابَّةً أكثر اعتدادًا بنفسِها، صفَّفت شعرَها في تسريحةِ ذيلِ الحصان، وأصبحت

ترتدي تلك السراويل الممزَّقة في الركبة وفساتين قصيرة ومكشوفة، كما أصبحت تتهرَّبُ منِي وتُصرُّ على المحافظة على سرِّيَّة علاقتنا والصبر حتى تتخرَّج ونتزوَّج. لم أتقبَّل هذا التغيُّر الجذريّ بسهولة، لكنَّها كانت تشرحُ لي بلطف وهدوء بأنّ هذا التغيُّر شكليّ ولا علاقة له بجوهرها من الداخل، وأنَّها فقط أطلقت العنان لأنوثتها، وسمحت لجمالِها بالظهور، وهذهِ ليست بجريمة أحاسبُها عليها.

في الأيَّامِ التي كنتُ فيها أقتلُ نفسي لجمعِ المالِ لأجلِ أمّي كلثوم، كانت حالتها الصحِّيَّة تزيد سوءًا، إذ لم تعد تغادر الفراش، كما أنَّني لاحظت لونًا أصفر في عينيْها. كانت تُعاني وتبكي من الألمِ الذي يمزِّق أحشاءَها. لم نكن نفهم هذا المرضَ جيِّدًا لنعرفَ بأنَّ مرارتها انفجَرت. وأخيرًا، جمعتُ المبلغ المسروقَ كاملًا.. وفي ذلك اليومِ السعيد، اكتشفتُ خيانة ناريمان التي كانت تحفظ برنامجَ عملي. طلب منِّي زميل المناوبة بدلًا عنه، ولم أُخبرها حتى رأيتُها تغادر ُ سيَّارة مرسيدس يسوقها شابٌّ ثريٌّ. طبعت قبلةً على خدِّه، ونزلت وهي مزهوَّة بباقة الورد وأكياسِ الهدايا.. عندما تفاجأتْ بي أشدُّها

من شعرها أمامَ الجميع، لكمتُها حتى نزف أنفها وخنقتُها بيديّ، كادت تموتُ من الخنق والهلع لولا تدخُّل زميلي رضوان الذي دفعني، وأبعدها وهو يصيح: «بعِّد، ما توسَّخش يديْك بهذي القحبة».

. هل أودَعتْ في حقّك شكوى؟

. لم تفعل.. لأنَّها تعرفُ فظاعة ذنبِها في حقِّي، منحتُها كلّ ما أملك لتصلح قبحَ وجهها وتجمّله لأجل رجلٍ آخر. في منتصفِ الليل، لم أكمل المناوبة، غادرتُ الإقامة الجامعيَّة إلى بيتنا في الحمري لأقبِّل قدميْ والدتي، وأسلِّمها المبلغ الذي جمعته، ونُجري لها العمليَّة في أقربِ وقت. تفاجأتُ بالكراسي مصفوفة خارج بيتنا، وصوتُ عبد الباسط عبد الصمد يرتفعُ من نوافذِ بيتنا. لقد قتلتُها، قتلتُ أمِّي الطيِّبة.. تسمَّمتْ بسبب انفجارِ المرارة، وماتت في فراشٍ بلَّلته بدموعها غضبًا منِّي وعليَّ. طردتني إكرام من البيت، ولكنَّني أمسكتُها من معصميها وأبعدتها، واقتحمتُ غرفةَ أمِّي، وأزحتُ عن وجهها الملاءة الزرقاء الخفيفة. كانت نائمة بوجهها الطيِّب الحنون الملائكيّ،

ورموشها مبتلَّة بدموعٍ لم تجّف بعد، كأنَّها ستصحو من النومِ بعد قليل..

. لمين، توقَّف عن البكاء.. أرجوك. أعلم أنَّكَ أخطأت واستخففتَ بحالتها الصحِّيَّة، ولكنَّك لو علمتَ أنَّ التأخُّر بإجراء العمليَّة سيودي بحياتها فما كنتَ لتتأخَّر، أنا واثقة من ذلك..

. لا أعرفُ كيفَ كنتُ أفكِّر.. كيفَ لم أقلق عليها؟ لأنَّني اعتدتها صامدة؟ قويَّة؟ واقفة؟ لا تمرض؟ ظنِّي بأنَّه لا يمكن لوالدتي أن تموتَ أبدًا، ستكون بخير ودائمًا حاضرة من أجلنا؟

لن أُسامحَ نفسي أبدًا. منذ وفاةِ أمِّي كلتوم، أصبحت دنياي مظلمة وبلا معنى، حتى اللَّه لن أقبل أن يسامحني على ما فعلته بها. تمنَّيتُ لو يعود بي الزمن إلى الوراء لأعيش حياتي بصورةٍ مختلفةٍ، ولكنَّ الزمن لا يعود بعجلاته أبدًا إلى الخلف..

. ستغفر أمّك الطيِّبة جهلكَ، صدِّقني.. إنَّها الآن في مكانٍ أفضل بكثير.

أحاطت ذراعها بذراعي، ووضعت رأسها على كتفي تحاول النوم، تغمض عينيْها الواسعتيْن لدقائق ثم تفتحهما مجدَّدًا، تفكِّر باللاشيء أو بكلِّ شيء.. خصلات شعرها الباردة تلامسُ ذقني، وضوءُ الصباح يفضحُ سواد شعرها. لم أرَ في حياتي شعرًا بهذا السواد. انتهيتُ من سردِ خطاياي، وستبدأ بقولِ حكايتها بعد قليل. تُرى أيّ اعترافٍ ستصدمني بهِ؟ كم عاشت من العمرِ جيم حتى تتخمَّر كلّ هذهِ الأحزان في قلبها؟ على دفء قربها وملاصقتها لي، ووشوشاتها تهدهدني، استسلمتُ للنومِ لأرى هذا الحلمَ الغريب:

أسيرُ في غابةٍ موغلة باتِّجاه ساقية لأشرب الماء، فأتفاجأ بجيم جالسة على العشب الأخضر بالقربِ من الساقية، ترتدي ثوبًا قبائليًّا يُشبه ثوب جدَّتها الذي وصفته لي، ومنشغلة بقميصٍ أبيض بين يديْها، تخيطه بأصابعها الدقيقة. عندما وصلتُ إليها، وقفتْ مبتسمة، وخلعت عنِّي القميص الأسود المتَّسخ، وألبستني القميص الأبيض الذي كان بين يديْها. مشينا معًا إلى كوخٍ تتصاعد منه رائحة الأكل الشهيّ. قلتُ لجيم لا يجوز أن ندخل بيتًا بلا إذن، فأكَّدت لي:

«صاحبته لن تُمانع». وهناك، رأيتُ حبيبتي كلتوم في المطبخ، حيويَّة، بشوشة، تربط رأسها بمنديل أسود. عندما رأتني، مسحت يديْها في مئزرها وعانقتني بحرارة: «توحشتك أوليدي».. وكدتُ أستسلمُ للبكاء، ولكنَّها أمرتني: «ما تبكيش، ما نبغيش نشوفك تبكي». قالت بأنَّها تُعِدّ وليمة لضيوفٍ أحبّهم، ورافقتها مع جيم إلى الغرفةِ المجاورة، وهناك رأيتُ أخويَّ وصديقيَّ مالك وسمير. رميت بنفسي عليهم، تعانقنا وتناولنا وجبة الغداءِ معًا، ولما غربت الشمس، وقفت جيم متوتِّرة:

ـ «لمين، لازم نروح.. تجي معايا ولَّا تقعد معاهم؟»، وددتُ أن أبقى، ولكنْ كيف لي أن أسمح لها بمواصلةِ الرحلةِ ليلًا بمفردها في هذا الظلام؟ ودَّعتُ والدتي وصديقيَّ، وخرجتُ معها.

- ١٣ -

لا أعلمُ إذا كان ما أفكِّر بهِ واقعيًّا، ولكنَّني أحسُّ بحقيقتهِ في داخلي. كنتُ رجلًا قبل رؤيةِ ذلكَ الحلم، وبعد استيقاظي منه عدتُ من النومِ رجلًا آخر! طوال الزمنِ الذي انقضى، عانيتُ ما أستحقُّ من الندمِ والأرقِ والقلقِ والتوتُّرِ المزمن، من نومٍ خفيفٍ ومتقطِّع، واحتقارٍ عميقٍ لنفسي يمنعني من تأمُّلِ انعكاسي في المرآة، ولمسِ الأطفال والحيوانات، والاقترابِ من الطيِّبين كي لا ألوِّثهم بي. مثل شخصٍ سقط في حفرةٍ مليئةٍ بالخراء وخرجَ منها هاربًا، يبحث بهوس عن وسيلةٍ ينظِّف بها نفسه ويطهِّرها من وسخهِ. عشتُ راغبًا في الموتِ والتعفُّنِ بعيدًا عن البشرِ، حتى ركبتُ هذهِ الحافلة إلى جانبِ جيم!

كانت حكاياتي مثلَ فضلاتٍ سامَّة عالقة في الروحِ، أرغبُ بطرحها بأيِّ طريقةٍ ممكنة. علمتُ بأنَّني أبحثُ عن إنسانٍ يمتلك أذنيْنِ صبورتيْن، وقلبًا عرفَ السوادَ أيضًا ليفهم السواد الذي لطَّخَ قلبي، قلبًا واسعًا بإمكانه الإصغاء إلى المزيد من دون أن يطلبَ منِّي التزامَ

الصمت، لأنَّ ما اقترفتهُ لا يشجِّعه على معرفةِ المزيد. بحثُ للجميلةِ بما كان يسمِّمني: طيشي في السياقة الذي أفقدني رفيقيْ عمري وطفولتي، وغرائزي الجنسيَّة التي سيَّرتني وأتلفت مبادئي الإنسانيَّة؛ وتلاعبي بشابَّةٍ بريئة لم أفعل شيئًا لأثنيها وهي تسيرُ نحو الموتِ.. بحثُ لها عن حبِّي الأحمق لناريمان، وسرقتي لمالِ والدتي والتسبُّبِ في وفاتِها.. ولم أكن أطمح سوى للتخفيفِ من أسرارٍ أثقلت قلبي حتى رأيتُ ذلكَ الحلم.

ماذا يعني أن تقابلَ عزيزًا ميِّتًا في حلم؟ ما الذي يجعلُ ذلكَ الحلم خاصًّا وثمينًا بالنسبةِ إلى الذاكرة؟ حين يموتُ شخصٌ نحبُّهُ يقتلنا الحزن، لأنَّنا نعرفُ بأنَّنا لن نقابله بعد اليوم، لن نراه، لن نسمعَ صوته، لن نلمسه، لن نخاطبه، لن نعتذر منه، لن نعانقه، لن نشمّ رائحته، نكتفي بالصورِ ومقاطع ڤيديو نكرِّر مشاهدتها، بذكرياتٍ قديمة نجترُّها فحسب. لن تجمع بيننا وبينه تفاصيل جديدة نستمتع بعيشِها إلى جانبه، ولكنَّ الحلم يوفِّر لكَ كلّ هذا. في الحلم، لستَ سيِّد نفسك، ولا تعرفُ أين ستذهب ومن ستقابل، وماذا ستفعل

وتسمع وترى. تسايرُ الأحداث حتى تنتهي، وتعودُ إلى واقعك. قابلتُ أمِّي كلتوم، كم اشتقتُ إليها، كم تمنَّيتُ أن أحلمَ بها ولم أفعل، كأنَّها عاقبتني بهذهِ القطيعة.. وبعد بوْحي لجيم، رأيتها تحتضن وجهي بيديْها، وتقول: «ما تبكيش، ما نبغيش نشوفك تبكي». آه يا ميمتي! كم أرغبُ بتصديق أنَّكِ سامحتني حقًّا!

- ١٤ -

أزاحت جيم الستارَ كاملًا عن النافذة لتستمتعَ بأشعَّةِ الشمس، سرَّحت شعرَها بمشطٍ كان في حقيبتها، وضعت كحلًا على رموشِها، ولوَّنت شفاهها بأحمرَ كرزيٍّ لامع.. بثلاث حركاتٍ فقط منحت الحياةَ الغائبة لوجهها الشاحب. فتحت جريدةً مطبوعة باللغةِ الفرنسيَّة، وألقت نظرةً سريعةً على العناوين، ثم خبَّأتها، والتفتت إليَّ وهي ترمقني بنظرتِها العميقة تلك: «سأحكي لكَ الآن حكايتي، يا لمين. لم أتخيَّل في حياتي بأنَّني قد أبوحُ بأسراري لرجلٍ غريب. وها أنا أعرِّفكَ باسمي الحقيقي وتفاصيلِ حياتي، معرِّضةً بذلك نفسي للخطرِ. فلتعلم بأنِّي أثقُ بكَ على الرَّغم من أخطائكَ، وأرى فيكَ الشهامة والقدرةَ على احتواءِ حكايتي».

عندما صعدتَ إلى الحافلة، انتابني فورًا الإحساس بالنفورِ منك. تبدو مثلَ قطَّاعِ الطرق، شابٌّ ترعرعَ في حيٍّ شعبيٍّ! بيئةٍ قاسية، فتشرَّب منها قسوتَها ليصبحَ سارقًا أو مدمنَ مخدِّرات.. أسلوبُ لباسكَ

ومشيتكَ العشوائيَّة وتعدِّيكَ على خصوصيَّتي، كأنَّه من حقِّكَ أن تخاطبَ من تشاء، أسنانك التي أتلف لونها النيكوتين، الهالات الغامقة تحت عينيْك، كلّ هذا لم يشجِّعني حتى على الابتسام في وجهك! أنا آسفة، ولكن..

ـ قولي ما تشائين ولا تُبالي..

كنتُ بدأتُ أفكِّر بتغيير مكاني حتى صرَّحتَ لي بقتلكَ لوالدتك، وهذا ما شدَّني لسماعك. أمَّا الحكايات الأخرى، فقد صبرتُ عليها وتعاطفتُ معها، لأصلَ إلى الحكايةِ الأمّ. أردتُ معرفة الطريقة التي آذيتَ بها أمّكَ. وفي حديثٍ آخر ـ إن كنتَ تذكر ـ قلتُ لكَ بأنَّ خطايانا متشابهة..

ـ من دون أن توضِّحي، كيفَ لخطايانا أن تكونَ متشابهة؟

خفضت جيم صوتَها، وبالكادِ أصبحتُ أسمعُ كلامها:

ـ أنا أيضًا قتلتُ والدي!

ـ غير معقول! تسبَّبتِ في موتهِ؟

ـ قتلتهُ بيديَّ، طعنتهُ في صدرِه، تأكَّدتُ من موتِهِ. وبعد ذلك، تركته غارقًا في دمائهِ وهربت..

ـ ولكنْ، لماذا فعلتِ ذلك؟ لماذا قتلتِ والدكِ؟

ـ لأنَّه لم يُحسن تربيتي.

ـ لم يُحسن تربيتكِ، فتقتلينه؟

ـ لقد دمَّر حياتي كلّها، كنتُ مخيَّرة بينَ قتلهِ أو قتلِ نفسي..

ـ يا مجنونة! لماذا لم تهربي فحسب؟ ورّطتِ نفسكِ في جريمة ستحبسكِ لسنوات..

ـ أنتَ لا تعرفه. أساسًا، هربتُ أكثر من مرَّة وعثر عليَّ..

ـ يا اللَّه.. لو أنَّكِ..

ـ أرجوك، لا تقاطعني.. سأقصّ عليكَ حكايتي لتفهم لماذا كنتُ مضطرَّة لقتلهِ، لستُ نادمة.. أنا الآن مطمئنَّة، لأنَّ جهاد ما عاد موجودًا في هذا العالم.

***

السنوات السبع الأولى التي عشتُها إلى جانبِ والدتي كانت الأسعد في حياتي. بعد موتِها لم أعرف غيرَ الشقاءِ.. كانت ماما بهجةَ البيتِ وروحها، امرأة لا تفارقُ الابتسامة وجهها، وصدرها دافئ أبدًا. أمَّا والدي، فكان الرجل الهادئ، الصارم. منذ بدأتُ أفهم الدنيا، لاحظتُ بأنَّه حنونٌ على أمِّي أكثر من حنانهِ عليَّ، يعانقها إذا بكت ولا يعانقني، بل يستاءُ منّي ويأمرني بالتوقُّفِ عن البكاءِ. احتفظ بهالةِ المعلّم الوقور الذي لا يتقنُ المزاح وخلقَ الأجواءِ السعيدة إلَّا في حضرةِ النبيذ والسهراتِ مع الأصدقاء.. ماما لم تظلمني إلَّا في ثلاثةِ أشياء، تسبَّبت بتعاستي لما جلبتني لهذا العالم، ولأنَّها وضعت يدها على بطنها تدعو بأن تحمل في رحمها رضيعةً تشبهها، أنتَ لا تدري إلى أيِّ حدٍّ عذَّبني الشبهُ بيننا! ظلمتني أيضًا بوفاتِها! ما كان عليها أن تموت لتتركني بين ذراعيْ رجلٍ تعرفُ بأنَّه يصلحُ لأن يكونَ أيّ شيءٍ إلَّا والدًا.

ـ أنتِ متناقضة يا جيم، قلتِ عن والدكِ إنّه اعتنى بكِ كما لم يعتنِ أبٌ بابنتهِ!

ـ البرود الذي أحدِّثك عنه كان قبلَ وفاةِ أمِّي، بعد موتها أصبحَ رجلًا آخر..

في أيَّامِها الأخيرة، تساقط الشعرُ من رأسها وحاجبيْها ورموشها. أذكرُ كم عذَّبها العلاج الكيميائيّ. رأيناها تذبل أمامَ أعيننا، ولم يكن في عينيْها غيرُ الألمِ والحزن. أصبحت شديدة العصبيَّة وسريعة البكاء.. وجهاد لم يقصِّر في وقوفهِ إلى جانبها حتى آخر لحظة. في الليلة التي ماتت فيها، نام إلى جانبها معانقًا إيَّاها، ولم يتوقَّف عن تقبيلها. وعندما أشرقت الشمس، سارع بتنفيذِ وصيَّتها وإنهاءِ الإجراءات اللازمة لدفنِها في بلدتها ـ الغزوات. وقفَ في الجنازةِ ثملًا ولم يصلِّ معهم، فاستهجنَ أقاربُها تصرُّفه، وحاولوا إقناعه بلطفٍ بالابتعادِ وأخذ قسطٍ من الراحة، ولكنَّه ردَّ عليهم بعنف. لم يترك كلمة بذيئة ولم يتفوَّه بها، فسبَّ اللّه والدين والناس الواقفين: «أنا ندفن مرتي، يهدر معايا واحد نبول عليه».

سافرَ بي إلى مدينتهِ بجاية، وطوال الطريق لم يقل كلمة. كان منشغلًا بقراءةِ كتابٍ بينَ يديْه. توتَّرتُ كما لو كنتُ برفقةِ رجلٍ غريب. تركني عند أمِّه وغابَ لأشهر، ستَّة أشهر تقريبًا، لم يعرف أحدٌ أينَ ذهبَ خلالَها.. وماذا فعل. وحتى بعد أن تحسَّنت علاقتي بهِ لاحقًا احتفظ بهذهِ الفترة لنفسه. سألتهُ كثيرًا عن مكانهِ خلال نصف السنة التي غابَ فيها، ولم يقل. جدَّتي الطيِّبة حاولت تلقيني اللغة القبايليَّة، وكنتُ أرفضُ التحدُّث بغير اللَّهجةِ العاصميَّة التي كان يتحدَّث بها والداي. لم تجد فيَّ أيّ أمل للتعلُّم. وفي النهايةِ، استسلمت وقالت بتأثُّر: «راسك خشين كيما هي، اللَّه يرحمها».

عادَ أبي من دون سابق إنذار حليق الذقنِ ومتوازنًا نفسيًّا عن آخر مرَّة. سمعتهم يقولون: «جهاد يوساد ساخّام»؛ أي جهاد أتى للبيت. لم أركض إليه كما فعلوا، بل اختبأت في غرفةِ جدّي، وجلستُ أقضمُ أظافري. سمعتُ صوته قريبًا يسأل عنِّي بلغته الأمازيغيَّة: «آندات جيم؟» أنار جهاد ضوءَ الغرفة، واقتربَ منِّي منحنيًا ليراني عن قرب: «ما تسلِّميش على باباك؟ ما توحشّتينيش؟» عانقتهُ باكية، وقلت:

«حسبتك ما تولِّيش». قبَّلني واحتضنني، وقال: «كيفاش ما نوليش؟ جيت ندِّيك معايا».

في أثناء العشاءِ، لم يتوقَّف عن النظرِ إليّ مشدوهًا، كأنَّه يكتشفني لأوَّل مرَّة. صعقه ذلكَ الشَّبه بيننا. لم ينتبه إلى تفاصيل وجهي وملامحي حتى غابت جنّات عن الحياة. كنتُ مثل حيوانٍ أليف في البيت جلبته زوجته ضدَّ إرادته، ووجدَ نفسه مجبرًا على الاهتمامِ به من أجلها. لم يبدأ اهتمامه الحقيقيّ بي إلَّا بعد موتها، وربَّما لولا الشبهُ المخيف بيننا لما أحاطني بكلّ ذلكَ الحبّ فيما بعد!

. هناكَ ما لاحظتهُ وأنتِ تتحدَّثينَ عن والدكِ، نادرًا ما تقولين أبي، بل تذكرينه غالبًا باسمِهِ، تفضِّلينَ ذكره باسمِ «جهاد» على قولِ «بابا».

. كنتُ أناديهِ papa قبلَ موتِ أمِّي، ولم تكن تعني لهُ الكلمة سوى أداةٍ للنداء. بعدَ انتقالنا، أوَّل ما فرضه عليَّ مناداتهِ بـ «جهاد» حتى أمامَ الناسِ والضيوفِ، وفضَّل مناداتي بجنّات، تخيَّل؟ في الطائرة ونحنُ في طريقنا إلى باريس، قال: «من اليوم اسمك جنّات». استغربت ولم

أرتح للأمر، وكنتُ أصغر من أن أفهمَ بأنَّه يسلبنِي اسمي وحقِّي في أن تكونَ لي هويَّتِي الخاصَّة كإبنة، وليس كتذكار تركتهُ لهُ زوجتهُ الراحلة.

في الطائرة، داعبَ وجهي وملامحي كما لم يفعل يومًا. تأمَّل يديّ وأظافري.. وتنهَّدَ مبتسمًا ومرتاحًا باستعادتي، أو بالأحرى استعادةِ جنَّاتهِ. وصلنا إلى بيتنا، وعادَ جهاد إلى كآبتهِ، فقد صفعه غيابُ أمِّي وحضور أشيائها. كلّ شيءٍ وجدناهُ كما تركناه؛ مئزرها الأزرق معلَّقٌ في المطبخ، ودفترُ الوصفات، وكوبُها الذي تشربُ فيهِ القهوة الصباحيَّة، والصالون ما زال يحفظ صوتَها، ورائحتها ما زالت ملتصقة بالجدرانِ والفراشِ والثيابِ والملاءات.. صورُها على الجدران.. ماكياجها وعطورها على المنضدة في غرفةِ النوم، حتى أنا كنتُ بحاجةٍ إلى المواساة، ولكنَّنا كنَّا ضعيفيْن وحائريْن، نجلسُ نتذمَّر من الطبقِ الذي أعدّه، ولم يكن هنالكَ خطبٌ في الطعام سوى أنَّنا نشعر بالحزن..

عشتُ طفولةً غريبة مع والدٍ غريبِ الأطوار! تشرَّبتُ من طباعهِ وأفكارهِ الكثير، بالإضافة إلى ما ورثته عن والدتي. بعد وفاتِها، تغيَّرت

معتقداته الدينيَّة كلِّيًّا، وما عادَ يؤمنُ باللَّه، بل وأجبرني على الكفرِ بهِ أيضًا. لم يُتِح لي فرصةَ اكتشافهِ بنفسي، واتِّخاذ قراري بالإيمانِ أو الإلحاد.. كلّ الأديانِ بالنسبةِ إليه كانت خرافات غبيَّة من اختراعِ الإنسان، وذلك اللَّه ليس سوى وهم اختلقه الإنسان ليبرِّر وجوده ويحتمي به من ضعفه. كنتُ أدرسُ أحيانًا برفقةِ شادي في بيتهم، زميل من أصول عربيَّة مسلمة. ومرَّةً، عندما أنهينا الدرس، فَرَش سجّادته أمامي وبدأ يتمتم، يركع ويسجد. طرحتُ عليهِ سؤالًا في أثناءَ الصلاةِ، فلم يجبني. شعرتُ أنّه منقطع عنَّا، جسده حاضر بالفعل، ولكنْ عقله في مكانٍ آخر. ولأنَّني أُفتن دائمًا منذ صغري بما لا أُجيدُ القيامَ بهِ، فلم أتوقَّف عن الاستفسار عن تفاصيل الصلاة. استغربت والدته جهلي، خصوصًا أنَّني ابنة جزائريّ، وراحت تشرحُ لي بسرور فكرةَ الخالق والغاية من وجودِ الإنسان، ولماذا نصلِّي وكيف، وما الآيات التي نقرأها في أثناء الصلاة.

عدتُ إلى البيتِ سعيدة بتجربتي الجديدة، فقد صلَّيتُ معهم العصرَ. عندما عدتُ، سألتُ جهاد، هل اللَّه يحبُّ الرجل أكثر من المرأة؟

أجابني: «إنَّه غير موجود». فلنفرض بأنَّه موجود، ونحن لا يمكننا رؤيته والاقتراب منه، لماذا قد يحبُّ الرجل أكثر من المرأة؟ قال: «قولي أنتِ، لماذا تعتقدين أنَّه يفضِّل الرجل على المرأة؟» لأنَّ الرجل يصلِّي بالمرأة، والمرأة لا تصلِّي به.. سرعان ما بدأ يفقدُ متعته بحديثنا في اللحظة التي أخبرته بأنَّني صلَّيتُ العصر في بيتِ شادي، وأنَّني أنوي أن أصلِّي الصلوات الخمس بانتظام في بيتنا. كانت ردَّة فعله عنيفة.. منع عنِّي الدراسة مع زميلي، كما تحدَّث مع والده، وقال له بأنَّ زوجته تغرس أفكارًا غير مناسبة في ذهنِ ابنته: «إذا أرادت أن تتلاعب بعقل ابنها فهيَ حرَّة، ولكن لا يحقّ لها التلاعب بعقلِ ابنتي». ومنذ ذلك اليوم، توقَّفتُ أنا وشادي عن مخاطبةِ بعضنا بعضًا، مكتفييْن بتبادلِ نظراتٍ خجولة وحزينة. ولأنَّني اكتشفتُ نقاط ضعفِ والدي، كنتُ إذا غضبتُ منه أو تشاجرتُ معه أدَّعي أنَّني أنوي ارتداءَ الحجاب، فيجلس ساعاتٍ يناقشني بعناد بأنَّني سأكون غبيَّة لو آمنتُ بما يؤمنُ بهِ القطيع: «سيقتلُ الدينُ روحكِ ويقضي على ذكائكِ. في الأصل، الناسُ مختلفون، كلّ إنسانٍ مختلف عن الآخر في ملامحه وبصماته ورائحته وطباعه وتفكيره، وما يفعله الدين هو محو ذلك الاختلاف،

مثل فيروس يهاجم العقل ويقيِّد تفكيره ليضعه في علبةٍ مغلقة فيها بابان لا ثالث لهما: واحد يؤدِّي إلى الجنَّة، والآخر إلى الجحيم. لن يصغي إليكِ إذا فكَّرتِ باحتمالِ بابٍ آخر، ولن يقبل أيّ احتمالاتٍ أخرى، وسيرغمكِ على تبنّي احتمالاته، وإلَّا يعاقبكِ بالموتِ بحجّةِ الكفر، فأنتِ ما عدتِ تستحقِّين جنَّته ما دمتِ تشكِّين وتتساءلين! يتحوَّل الناس إلى جيشٍ من الأفرادِ المتشابهين، يكرِّرون كالببغاوات الكلام نفسه على أنّه كلام اللَّه، وليس لديهم دليل واحد يؤكِّد بأنَّه كلامه حقًّا. يؤدُّون الحركات نفسها، ويصومون عن الطعامِ والملذَّات في توقيت واحد، ويعودون إليها في توقيت واحد، ويقتلون باسمِ الإله نفسه، ويتسامحون باسمه أيضًا..

ستصبحين مثلهم، امرأة مبرمجة على التعبُّد لإلهٍ لا نعرفُ عنه شيئًا، سترضخين لقوانينهم وتحترمين مقدَّساتهم ومحرَّماتهم، وتحرمين نفسكِ الكثير من مباهجِ الحياة، لأجل من؟ لأجل إلهٍ خلق الإنسان وتخلَّى عنه، وتفنَّن في امتحانه وتعذيبه وجرّه إلى الشيخوخةِ والخرفِ، ثم القضاءِ عليهِ بالموت، وبعد ذلك.. سيحقِّق العدالة في العالمِ الآخر،

بعد آلافِ السنوات من الظلمِ والأوبئة والحروب؟ بعد انتهاءِ كلّ شيء؟ ما الفائدة؟ وما الذي سيضمنُ أنّ كلّ ما يتحدَّثون عنه سيحدث حقًّا؟ ماذا لو كان كلّ شيءٍ كذبة، وعشتِ حياتكِ بين الحلالِ والحرامِ، وفاتكِ الاستمتاعُ بحياةٍ حرَّة وواقعيَّة، سطَّرتِها بأحلامكِ ومبادئكِ الخاصَّة والأخلاقِ التي ترينها معقولة وتخدمُ الإنسان ومجتمعه. أكرِّر سؤالي للمرَّةِ الألف: ماذا لو كان موجودًا؟ يُجيب: أفضِّل ألَّا يكون، لأنَّه إذا كان موجودًا سيكونُ خالقًا مستبدًّا، إلهًا كسولًا يجلس على العرش منذ ملايين السنوات الضوئيَّة ليتفرَّج على يوميَّاتٍ سخيفة تعيشها مخلوقات مثلنا.

. أستغفر اللَّه، ألا ترينَ أنَّه كانَ متطرِّفًا بعض الشيء؟

. كثيرًا، أحيانًا كنت أؤكِّد له إيمانه: «أنتَ تؤمنُ بهِ بطريقةٍ ما، لو لم تكن مؤمنًا به لما حقدتَ عليه، ولما كانت فكرة وجودهِ تستفزّك إلى هذا الحدّ».

. ماذا عنكِ أنتِ، يا جيم؟ في النهاية، هل آمنتِ أم ألحدتِ؟

ـ لم أؤمن ولم أُلحِد..

ـ لا أرى هذا الموقفَ مريحًا. أعتقد أنَّ على المرءِ أن يكونَ حاسمًا بهذا الشأن، ليكونَ واضحًا أمام نفسهِ أوَّلًا، بدلًا من الضياعِ بين معتقدات متضاربة.

ـ بالعكس، ليسَ مجبرًا على أن يكونَ حاسمًا إذا لم يتمكَّن من امتلاكِ أجوبة مقنعة.

ـ هل تعتقدين أنَّكِ ستعثرين عليها يومًا ما؟

ـ لا أظنّ، كيفَ سأعثر عليها؟ لو كانت موجودة لعثر عليها من طَرَحها قبلي.

- ١٥ -

.كم الساعة الآن؟

. «الواحدة إلَّا ربع».. سننزلُ بعد قليل لتناولِ الغداء، هل أنتِ جائعة؟

. قليلًا، السفر يزعجُ معدتي. بدأ الإرهاقُ يتمكَّنُ منِّي.. لم تخبرني عمَّا ستفعله في تمنراست؟

. صديقٌ دبَّر لي وظيفة عونِ أمنٍ بمرتَّبٍ جيِّد. لا أعرفُ كم من الوقتِ سأصمدُ في المنفى الذي اخترتُهُ لنفسي، هل تحبِّين أن آتي لزيارتكِ من وقتٍ لآخر؟

. لا.. إنَّها قرية صغيرة ومحافظة، وليس فيها مقاهٍ مختلطة ولا حدائق عامَّة. هذا ما أعرفهُ عنها. لا أريدُ أن أضايقَ من سيستضيفونني.

قبل النزولِ، لملمَتْ جيم شعرها في تسريحةِ الكعكة. بدت ملامحها أكثر وضوحًا وجمالًا، شعرُها الكثيف حجبَ الكثير من الشاماتِ بجانبِ أذنها، وعتَّمَ قليلًا على ضوءِ عينيْها. أحببتُها بوجهها المشرق الذي لا يُشبهُ وجهها المظلم الذي قابلتهُ ليلًا. نزلنا، واخترنا طاولةً بعيدة تُجنِّبنا ضجيجَ المسافرين لنكمل الحكاية. طلبتُ طبقَ مثوَّم وسلطة، أمَّا جيم، فطلبت شريحة كبد مشويَّة إلى جانب بطاطا مهروسة:

ـ «لا ينقصنا سوى نبيذ بوردو الأحمر».

ـ ها قد وجدتِ مشروبًا تحبِّينه، قلتِ لا تحبِّين ولا تشتهين أيَّ شيء..

ـ فلنقل بأنَّهُ تأثيركَ الإيجابيّ عليّ.. أنا مرتاحة للسفرِ برفقتك، لولاكَ لكانت هذه الرحلة جحيمًا، أنا ملولة بشكلٍ لا يمكنكَ تخيُّله.

ـ بصراحة، أستغربُ مغامرتكِ هذه وعودتكِ للبلاد. هل ترينَها مكانًا يستحقُّ أن تعودي إليه؟

. من يعتد العيشَ في بلدٍ متحضِّر يصعب عليهِ العودة إلى الوراءِ، وتحمُّل تخلُّف الوطنِ في كلِّ شيء.. ربَّما لا يعودُ المغتربون إلَّا حنينًا وتعلُّقًا بالماضي!

. وأنتِ، إلى مَ تحنِّين هنا؟

. كلَّا، لستُ هنا بسببِ الحنين. أنا مثلك هاربة، هاربة من القانون، ومن حياتي السابقة ومن نفسي. أحاولُ إنقاذ ما تبقَّى صالحًا في داخلي..

. ما زلتُ متحمِّسًا لسماعِ بقيَّةِ حكايتكِ مع جهاد. كيفَ تغيَّرت حياتكما بعد وفاةِ والدتكِ؟

. تغيَّرت كثيرًا، دعنا نصعد إلى الحافلة، وأحكي لك كيف تغيَّرت...

* * *

بعدَ بلوغي العاشرة من عمري بسنةٍ أو سنتين، قرَّرتُ الاستحمامَ بمفردِي لما بدأ القليل من شعرِ عانتي بالظهور. وقفتُ عارية في حوضِ

الاستحمام أخفيها خلفَ يدي، وأطلبُ منه السماح لي بغسلِ نفسي. راحَ يشرحُ لي بأنَّ الخجل منه غير مقبول، لأنَّنا أنا وهو واحد: إذا أصبحتُ شيخًا هرمًا وعاجزًا واحتجتُ إلى مساعدتكِ، هل تدعين ممرِّضة غريبة تُحرجني وتُغسلني؟ طبعًا لا، أنا سأهتمُّ بك وأحمِّمك.. أستمتعُ بانسياب المياه الدافئة على رأسي، وأسأله بعينيْن مغمضتيْن: «جهاد، ألا تفكِّر بالزواجِ مرَّةً أخرى؟» أنا متزوِّج بجنّات. وعندما أكبر وأتزوَّج؟ هل ستعيش بمفردك؟ ستعيشين معي، هذا شرطي الوحيد لقبول زواجكِ.

في صيفِ سنة 2003، اصطحبني إلى جزيرة إسبانيَّة اسمها بالما دي مايوركا. مكثنا فيها أسبوعيْن مجنونيْن، زرنا فيها متاحف وقصورًا وشواطئ رمليَّة رائعة، بعضُها مُخصَّص للعراة. مشيتُ بينَ نساءٍ مستلقيات بأجسادهنَّ العارية تحت الشمس، وبين رجال يتجوَّلون بأعضائهم المتدلِّية. كنتُ أرتدي ثوب سباحة، ولم أشعر بالارتياح بكشف جسدي وأنا ما زلتُ في بدايةِ مراهقتي المضطربة، سألته: «لماذا لا يرتدون ملابس سباحة؟»

. ليسَ هناكَ ما يدعو للخجل. هذا هو جسمُ الإنسان، وليس في الآخرين ما هو غريب عن أجسادنا. أتيتُ بكِ إلى هنا لترى بنفسكِ كيفَ يعيشُ المنفتحون، لتتعرَّفي على جسدِ الآخر، وتتحرَّري من عقدةِ الخجل..

. لكنَّني لستُ ملزمة بأن أعرِّي للناس جسدي لأثبتَ لهم بأنَّني منفتحة!

. يا حبيبتي، لستِ ملزمة لا بتغطيته ولا بتعريته، هذا القرار يعودُ لكِ.. لن أطلبَ منكِ يومًا الارتداء لا الكثير من الثيابِ ولا القليل منها، البسي ما تشعرين بالارتياحِ فيهِ.

قبَّلتهُ ونحنُ نغادرُ الشاطئ، كما لو أنَّني حصلتُ على هديَّة. لأوَّل مرَّة يخاطبني كامرأة ناضجة... بعد ساعاتٍ طويلة من السباحة، عدنا منهكيْن إلى بيتِ العمّ بشير. استحمّ أوَّلًا، وبعد ذلك، أعطاني المناشف الجافَّة وأغلقَ عليَّ الباب لأستحمَّ بمفردي. عجبتُ له. ها

هو جهاد يعاملني بطريقة طبيعيَّة، بلا اهتمامٍ مَرَضيّ ولا رعايةٍ مفرطة. في تلك الليلة، رافق العمّ بشير إلى ملهى ليليٍّ، بعد ساعةٍ من التردُّد والخوفِ عليّ من تركي وحيدة.

عادَ ثملًا وبوجهٍ سعيدٍ لا أعرفه، استلقى إلى جانبي وعانقني بقوَّة من الخلف: بشير المجنون حاول إقناعي بالتعرُّفِ على شابَّةٍ إيطاليَّة تودَّدتْ إليَّ، لكن كيفَ لي أن أخونكِ يا جنّات. التصقَ بجسدي أكثر، أحسُّ بأنفاسه الساخنة على عنقي ورائحة الشراب الكريهة تصلُ إلى أنفي. داعب شعري بحنان، ثم تحسَّس صدري بلطفٍ أربكني. أبعدتُ يده، فوضعها بينَ ساقيّ وبدأ يحرّك أصابعه هناك بخفَّةِ ساحرٍ. شعرتُ بالدغدغة والحرارةِ في جسدي، الإرباك والتوتُّر ونبضاتُ القلبِ تتسارع، أبعدتُ يدهُ بصرامة هذهِ المرَّة. تقلَّب إلى الجهةِ الأخرى ونام؛ أمّا أنا، فقضيتُ ليلتي حائرة أفكِّر بما حدث!

في الليلة التالية،لم يكن ثملًا، بل واعيًا وصاحيًا. أطفأنا الأنوار، ودخلنا السرير نستعدُّ للنوم، حينها داعب بظري فوقَ ملابسي حتى ارتعشت.. صرختُ في وجههِ أبكي وأُخبرهُ بأنَّني أكرهه، وسأهرب

من البيت إذا فعلها مرَّةً أخرى. لم تكن لديَّ فكرة واضحة عن الجنس، وعيي له كان بريئًا وسطحيًّا، أرعبتني تجربة اكتشافي للذَّة وبداية التعرُّف على جسدي، عضو صغير مجهول في جسدي يتسبَّبُ لي بكلِّ تلك الفوضى النفسيَّة! ولكي أهرب من التواصل مع جهاد، خاصمته لثلاثة أيَّام، كنت بحاجةٍ إلى الانقطاع عن الكلامِ معه لأفهم ما أَمُرُّ به.

ـ يا إلهي، كان بإمكانهِ مضاجعة أيّ امرأةٍ أخرى، استغلَّ غيابَ والدتكِ ليحتفظ بكِ لنفسهِ!

ـ بل كان يراني زوجته جنّات، ولم يكن بجانبي أحدٌ يرشدني إلى الصواب.

عدتُ إلى المدرسة مُشتَّتة، أفكِّرُ بكلِّ ما حدث في إسبانيا. وبعد شهرٍ من تلك الرحلة، أصبحتُ أكثر استقلاليَّة بنفسي مع استمرار تدخُّله في عاداتي اليوميَّة، بحجَّة أنَّه الأمّ والأب ويُسعده أن أتعلَّم منه ما أجهله. مثلًا، أهداني ماكينة ـ ماركة براون عندما لاحظ أنَّني أحلق شعر ساقيَّ بشفرة الحلاقة، علَّمني كيف أستخدمها، وشرح لي الفرق

بين الحلاقة بالشفرة التي تقصّ الشعر فينمو خشنًا، والماكينة التي تقتلع الشعر من الجذور فلا ينمو إلّا بعد فترةٍ طويلة.. لا أنكرُ أنَّني تعلَّمتُ منه الكثير على الرَّغم من كلِّ شيء.

. لا أصدِّق ما تحكينه لي يا جيم، ماذا فعلتِ بعد ذلك؟ هل كرهتِ العيش معه، لأنَّه ينتهك طفولتك كلّ ليلة؟

. بالعكس، أُغرمتُ بهِ.

- ١٦ -

أحيانًا, أتساءل: لو كانت امرأة أخرى مَنْ عاشت حكايتي، ماذا كانت ستفعل وكيف كانت ستتصرَّف؟ هل كانت لتعي بأنَّ الإحساس الغريب الذي تكنُّه لوالدها خاطئ وشاذّ، وينبغي إمَّا أن تصحِّحه أو تهجر والدها، وألَّا تتواجد معه في المكانِ ذاته؟ هل كانت لتُخطئ مرَّة أو اثنتيْن عن جهل، ثم تتوب وتتوقَّف حين يكتملُ عقلها؟ أم كانت لتنجرف مع الأحداث من دون أن تفعل شيئًا لتغيير مسارِها مثلما فعلت؟ ولكنْ لا.. قصَّتكَ لا يعيشُها غيرك أنت، ولن تفهم خطواتك سوى قدميْك القريبتيْن من الأرضِ.. لن أقبل من أحدٍ أن يلومني أو يحاسبني، لأنَّ كلّ الظروف التي أحاطت بي منذ ميلادي وحتى يومنا هذا دفعتني لارتكاب ما ارتكبته، على الرَّغمِ من أنَّني لم أجتهد كثيرًا في تحريفِ قدري، فقد كنتُ أنساقُ كلِّيًا لما يحدث لي..

. هل من الخطأ أن تُغرمَ ابنةٌ بوالدِها؟ أن تُعجبَ بهِ كرجل وليس كوالد، وتُفتنَ بجسدهِ بقدر فتنتها بأفكارهِ.. أن تغارَ عليهِ من النساء،

وتشتهيه وتتبادل معه الحبَّ؟ انظُرْ كيفَ تغيَّر وجهك وقطَّبتَ حاجبيْك، هو الاشمئزاز ما يسيطرُ عليك وأنتَ تتخيَّل. ستقول لا يمكن أبدًا، ولكنّ جهاد كان يردّ دائمًا: نعم، يمكن، نحنُ لا نؤذي أحدًا بحبّنا، ولسنا ملزميْن بالقوانينِ الغبيَّة التي وضعها أُناس مثلنا، وشرائع سماويَّة كتبوا نصوصها المتضاربة بأنفسهم، ونتَّبع أساطير رسلٍ ربَّما لم يوجدوا إلَّا في حكاياتِ أجدادنا.

. وكنتِ تُصدِّقينه؟

. أُصدِّقه بكلِّ خليَّة في مخِّي. إنّ طريقته في القولِ غالبًا ما كانت تقنعني.

. قلتُ لك سابقًا، في بداياتِ اقترابِ جهاد منِّي.. كنتُ خائفة ومرتبكة، لأنَّ التجربة جديدة عليّ، أساسًا كنتُ خارجة للتوّ من فصلِ الطفولة، وما كنتُ لأفهم حتى لو عشتُ التجربة معَ من كانَ في سنِّي. ولكنْ بعد مرورِ الوقت، أصبحَ ما كان غريبًا بيننا عاديًّا. في سنتي السادسة عشرة وأنا شابَّة يافعة، وبعد أن احتلمتُ ونضج جسدي ونهداي، وتخلَّصتُ من ثوبِ الطفولة، أصبحتُ أنا المبادِرة..

أفتحُ له الباب كما تفتحُ الزوجة لزوجها، أستقبله بقبلةٍ في فمهِ وعناقٍ حارّ..

. وهل مارستما الجنس في ذلك العمر؟

. كلّا، لم أكن جاهزة بعد.. وهو كان يكتفي بما أمنحه.

في شجاراتنا، لم يكن للاحترامِ وجودٌ بيننا، في لحظاتِ غضبي، أسبّه كما أسبّ شابًّا في عمري! ولقد كان يقول لي دائمًا: أنتِ تتغيَّرين إلى الأسوأ، ويقتلني بكلمات جارحة مؤدّبة أسوأ من كلماتي البذيئة.. جلبتُ مرّة صديقةً جميلة إلى البيت، ولاحظتُ أنَّه يستلطفها أو ربَّما تهيَّأ لي.. تصرَّفتُ بعدائيَّة مع كليْهم فلنقل تقريبًا طردتُها من البيت، وشاجرته، لأنَّه يعاكسُها أمامي. في اليومِ التالي، نشرت الصديقة الإشاعات لكلِّ معارفي.

. عفوًا، يا جيم، ولكنَّها لم تكن إشاعات.. قد قالت ما رأته.

. نعم، أنتَ محقّ. ومع ذلك، لم يكن من حقِّها إخبارُ الجميع بما رأته..

تطوَّعت جارة مسيحيَّة صالحة للتدخُّلِ في ما لا يعنيها، كي لا يعاقبها الربّ، لأنَّها رأت منكرًا ولم تحاول تغييره. قالت: يا حبيبتي، أنتِ صغيرة وربَّما تقومين بأشياء خاطئة ستندمين عليها لاحقًا. القانونُ يحميكِ في حالةِ إذا ما كان والدكِ يتحرَّش بكِ ويُقنعكِ بفعل تلك الأشياء القذرة معه. صرختُ بوجهها، ودافعتُ عن الرجل الذي أحبّ بشراسة: كيفَ تجرئين على التحدُّثِ عن والدي بهذه الطريقة؟ وكيف تأتين بوقاحة للتحدُّث معي في مواضيع كهذهِ، فقط بعد سماعِ إشاعاتٍ غبيَّة من صديقةٍ لم أتَّفق معها!؟

لن أكذِب عليكَ، يا لمين. حينها، بدأ الشكّ يحومُ في عقلي مثل ذبابةٍ عنيدة! لماذا لم أدافع عن جهاد بطريقةٍ أخرى؟ أي لماذا لم أقل لها ببساطة: نعم، أحبّه وأفعل معه ما أشاء، أنتِ ما شأنكِ؟ ذلك، لأنَّني في باطنِ عقلي أؤمنُ بأنَّ ما أقوم بهِ ليس لائقًا.. بدأتُ أبتعِد وأنفرُ ممَّا ينفرُ منه الناس، خاصَّة وقد توقَّفَ جهاد عن التمييز بيني وبينَ جنّات. كان يسمِّيني جيم من مناسبة إلى أخرى وأنا طفلة،

ولكن الآن كلّ ما يفعله هو إحياء ذكرى زوجتهِ الميّتة من خلالي، لم أكن سوى وسيلة للاستنساخ!

غيَّرنا مسكننا مرَّة أخرى بسببِ الشائعات. قال: كانت باريس من البداية خيارًا سيِّئًا، حتى الفرنسيُّون اللائكيُّون تشرَّبوا طباع العرب المتخلِّفين، وأصبحوا لا يختلفون عنهم في شيء. سنعيش فترة في لندن، وإذا لم ترق لنا الحياة هناك، سنعود إلى باريس. تدبَّر وظيفة في جريدة تنشر باللغةِ العربيَّة، ورتَّب كلّ شيء لنعيش في مجتمعٍ أكثر اهتمامًا بشؤونهِ الخاصَّة، معتقدًا أنّنا تخلَّصنا من عبء أحكامِ المجتمعِ. ولم يدرِ بأنَّها قد انغرست في ذهني وانتهى الأمر. أصبحتُ في بيتنا الجديد في (برانت)، أُغلقُ عليَّ باب غرفةِ النومِ بالمفتاح، وكان يحسّ بالمرارة كلَّما أدار المقبض ولم يُفتح الباب.. أجده في الصباحِ عابسًا حزينًا لا يفهمُ لماذا أتصرَّف بهذا الأسلوب من دون أن أمنحه حتى فرصة الشرحِ والتواصل..

. لماذا لم تناقشي معه مباشرة ذلك الخلط بينه وبين زوجتهِ جنّات؟

ـ لا، ابتعدتُ كلِّيًّا عن ذلك المكانِ من الحوار. لقد كان ذئبًا في النقاش ولديه حيلةُ في الإقناع.. كنت أرتعب من أن أقع في شِباكهِ مرَّةً أخرى، لذا تجاهلت ما أرغب بمناقشته حقًّا، واكتفينا بأحاديث هامشيَّة تخصّ اليوميَّات والمدرسة وعمله.. وما إلى ذلك.

ـ قلتِ.. بأنَّكِ لا تقبلين أن يلومكِ أحد على مشاعركِ لوالدكِ، ولم أشعر بأنَّكِ نادمة على الإحساسِ بها، لأنَّكِ حسبما فهمت ترينَها أقوى منكِ، وبدأت باجتياحكِ قبلَ نضجكِ ووعيك، فهي جزءٌ من طفولتكِ ومراهقتكِ.. كأنَّها علاقة طبيعيَّة، وإن كانت غريبة..

ـ هذا صحيح..

ـ لماذا إذن لم تمارسا الجنس.. كيف لا تكونين جاهزة إذن؟

ـ تعجبني يا لمين! أنتَ ذكيّ في تحليلاتك، ولكنْ هناك أسئلة لن أعرف كيفَ أُجيبك عنها، لأنَّه وضعٌ معقَّد أنا نفسي لا أفهمه. لستُ متخصِّصة في علمِ النفس لأحلِّل مشاعري وسلوكي.. لا

أدري! ربَّما كنتُ خائفة، أو هو تأثير الناسِ عليَّ، أو ربَّما لم أكن واثقة ممَّا أفعل.

. ولماذا انقلبَ موقفكِ لاحقًا، وتغيَّر تعاملكِ معه؟ تعاملكِ الجافّ معه فيما بعد.. لا يبدو لي مثل توبة أو إقلاع عن عادة سيِّئة، بل استفزازًا خالصًا. قد أكون مخطئًا.. أنا أتساءلُ فقط.

. هنا أنتَ مخطئ بالفعل، لأنَّ نيَّتي كانت بدء حياة جديدة. سأطرح عليكَ سؤالًا، وأنا بحاجةٍ إلى إجابةٍ صادقة. لا تكن خبيثًا ومنافقًا. إنَّني أثق بك وبتعارفنا هذا، وبحاجتنا إلى أن نقول كلّ شيء من دون كذب.. أخبرني عن رأيك فيما قمتُ بهِ؟ هل تتفهَّمُ السبب الذي دفعني لقتل والدي، أم أنَّك تجدُ بأنَّه ليس ثمَّة أيّ مبرِّرٍ للقتل أيًّا كان ذلك السبب؟

. من السهل التفوُّه بأحكام، أتفهَّم التأثير السيِّء لحضورهِ في حياتكِ، خاصَّة مع غيابِ الوالدة رحمها اللَّه، وأتفهَّم الدمار الذي ألحقه بكِ. تتحدَّثين عنه وأشعر بالكراهية اتِّجاهه والاشمئزاز منه، وأتخيَّل له عقوباتٍ أسوأ من الموت. مع ذلك، كنتُ لأفضِّل ألَّا تلوِّثي يديْكِ

بدمهِ، أن تهربي فحسب، ولكنَّني أُدركُ بأنَّكِ عانيتِ وتأذَّيتِ حتى لم تجدي خيارًا آخر. لقد اعتدى عليكِ منذ كنتِ طفلة، واستمرَّ بذلك حتى وأنتِ امرأة. أنا أسوأ منكِ بكثير، على الرَّغم من أنَّ قتلي لوالدتي لم يكن مباشرًا، إلَّا أنَّني تسبَّبتُ فيه لكائنة حنونة أحبَّتني أكثر من أيِّ شخص آخر. ألحقتُ بها الأذى، فقط لأنَّني رجل أنانيّ يفكِّر بنصفهِ السفليّ، ويلاحق عواطفه وشهواته. أتذكَّرُ الآن رواية الجريمة والعقاب للكاتبِ الروسي دوستويفسكي، وكم تعاطفتُ مع شخصيَّة.. ماذا كان اسمُها؟ المهمّ.. شخصيَّة القاتل.

. راسكولنكوف..

. نعم، تعاطفتُ مع تلك الشخصيَّة. كان رجلًا بائسًا ومديونًا، حين تتخيَّلينه يتجوَّل في بيترسبرغ بثيابه الرثَّة، يفكِّر في ديونه وعائلته، ويخطِّط لقتل السيِّدة وسرقتها، ستتفهَّمين عذره. وبعد ارتكابه الجريمة، عاش عقابًا نفسيًّا حقيقيًّا، غرقَ في حالةٍ من الحمّى والهلوسة وتأنيب الضمير. أنتِ تتمنَّين لو تكوني هناك لتخفِّفي عنه، وتتمنّين أيضًا ألَّا يكتشفَ جريمته أحد، لأنَّه كان مرغمًا على ارتكابها. ولو عاش في

ظروفٍ أفضل، لما فكَّر لثانية واحدة بارتكابها. إنَّني أحسُّ اتِّجاهكِ بما أحسسته اتِّجاهَ تلك الشخصيَّة، وأُريدُ أن أساعدكِ وأحميكِ بما استطعت، لأنَّكِ قتلتِ في لحظةِ ضعفٍ وانهيار لتُخلِّصي نفسكِ من الأذى.

. لا أعرفُ ماذا أقول لك.. أنتَ طيِّبٌ جدًّا، وأنا سعيدة لأنَّني سمحتُ لنفسي بالتواصلِ معك. أنا أيضًا أحببتُ رواية دوستويفسكي، الجريمة والعقاب، من أحبِّ رواياتهِ إلى قلبي. وذكَّرتني بروايةِ «نظافةِ القاتل» لإيميلي نوثمب، الروائي العجوز الذي يعيش آخر أيَّام حياته، ويستقبل صحفيِّين ليجروا معه حوارات، ثم يتعمَّد إهانتهم وإذلالهم واستفزازهم حتى ينسحبوا من تلقاءِ أنفسهم. صحفيَّة واحدة فقط تمكَّنت من أسر انتباههِ والتغلُّبِ عليه، أتعلمُ لماذا؟ لأنَّها كانت قارئة جيِّدة. لقد فهمت أعماله أكثر من أيّ قارئ آخر، بل وأجرت تحرِّيات وتحقيقات حول الرواية، لتكتشف أنّ هناك بطلة كانت شابَّة حقيقيَّة ماتت على يديْه، وفي النهاية تقتلهُ. وتجعلكَ

الكاتبة تستمتعُ بمشهدِ قتلهِ! أي تجد موته ضرورة حتميَّة ونهاية جيِّدة للرواية!

عمومًا، أن تقرأ عن تجربة شيء، وأن تعيشها شيء آخر. القتل الذي نقرأ عنه لا يشبه القتل الذي نقومُ بهِ. إنَّها تجربة لا يمكنُ للكلمات، لأيِّ كلمات، أن تعبِّر عنها.

- ...

- فلنعد إلى حكايتكِ، حدِّثيني عن حياتكِ في لندن.

- ١٧ -

أحببتُ لندن، تلك المدينة الغامضة التي لا تُشبه سوى نفسها، المدينة الفاتنة ببناياتها الشامخة وقصورها وباصاتِها الحمراء المزدوجة.. كان كلّ شيء فيها جديدًا ومختلفًا. وبينما كان والدي يُعاني من اكتئابِ الانتقال الجديد، كنتُ أستمتعُ بالاكتشافِ والتعرُّفِ على أصدقاء جدد.. بيتنا كان في الضواحي الغربيَّة، في منطقة هادئة اسمُها برانت، أخذت اسمها من النهر الجاري الذي يعبرها. هناكَ، تعرَّفتُ على صديقةٍ رائعة اسمُها آشلي، أُشبهها في الجزء الجامح منها. نعم، إنَّنا في النهاية نُغرمُ دائمًا بما يُشبهنا، وإن ادَّعينا اشتهاءنا للنقيض. آشلي هي تلك الصبيَّة الطويلة الرياضيَّة الرشيقة بفضل عشقها للركض والسباحة، صبيَّة شقراء وزهريَّة البشرة، بعينيْن صافيتيْن زرقاويْن، ووجهٍ دافئ وابتسامةٍ خبيثة تشي بأفكارٍ جريئة.

تتميَّز آشلي بشخصيَّتِها الجذَّابة، المتفجِّرة بالطاقة والحياة، وتتصرَّف وكأنَّها ستموت في اليومِ الموالي.. لذا، تسعى لإنجاز كلّ ما ترغب بهِ

في اليوم نفسه.. دراسة ورياضة، ومقابلة الأصدقاء، والتسوُّق، والسفر، وتسجيل ڤيديوهات لنشرها على اليوتيوب.. عكسي أنا، الكسولة التي تقضي نهارها في حوض الاستحمام أو قراءة كتاب أو مشاهدةِ فيلمٍ تافه، فقط لقتل الوقت.. صحيح، أنَّنا نتشابه، ولكنْ ليس في كلِّ شيء. نتشابه في جنوننا وجرأتنا وشغفنا وحبّنا للمغامرة.. نتشابهُ في لامبالاتنا اتِّجاه كلّ ما يحدث في العالم.

بعد أشهرٍ من معرفتي بها، شاهدنا أفلامًا إباحيَّة في غرفةِ نومها. سخرنا من ممثِّليها. وبعد ذلك، أغلقنا الكمبيوتر المحمول، واستلقينا نثرثر ونضحك، ثم انحنت نحوي بشعرِها الأشقر الحريريّ ونظرت بعينيْها الزرقاوين إلى عينيّ الخضراويْن، وبشفتيْها الرفيعتيْن طبعت على شفتيّ الممتلئتيْن قبلةً دافئة، ومرَّرت لسانَها إلى فمي. لم أشعر بالاشمئزاز منها. بالعكس، أحببتُ رائحة فمها.. ومع ذلك، لم أشعر بالنار التي تجتاحني حين يلمسني جهاد. حاولتُ الذهاب معها إلى النهاية، وسمحتُ لها بأن تعرِّيني وتداعبني، ولما حاولت إدخال إصبعها، منعتُها، وقلتُ لها: مهلًا، ما زلتُ عذراء ولستُ جاهزة لهذا. توقَّعت

منها جملة ساخرة تنهي الفوضى التي تسبّبنا بها، ولكنْ لا، ردّت بحنان: it's okay، وواصلت مداعبتي حتى ارتعشنا.

. لكنَّكِ قلتِ لم تشعري بشيء..

. لم أشعر بشيءٍ خاصّ، كانت متعة جسديَّة، استمتعتُ بها في لحظتها، وبعد ذلك، لم أرغب بالمزيد. في المرَّةِ الثانية، أخبرتها بأنَّني لا أراها فكرة جيّدة.

دعني أكمل لك عن المرَّةِ الأولى. بعد انتهائنا من التودُّدِ على فراشِها، فتحتُ لها قلبي.. هل تفهم تلكَ الثقة التي تمنحها على الفراشِ لشخصٍ انسجمتَ معه، كما عرَّيتَ جسدك، ترغب بتعريةِ أفكارٍ غامضة تقلقك؟ حدَّثتها عن المشاعرِ الشاذَّةِ التي أكنّها لأبي، ولم تطلق عليَّ حُكمًا سيِّئًا واحدًا، بل كانت مُصغية ومُتفهّمة:

. لماذا يزعجكِ الموضوع إلى هذا الحدّ؟ سأصارحكِ بذكرى، عادةً لا أحدِّث عنها الأصدقاء. لم يكن حبيبي جوش أوَّل من لاطف جسدي، بل أخي سايمن الذي يكبرني بسنة واحدة. كنّا مراهقيْن

حارَّيْن لا عشَّاق لهما، وكان يدخل غرفتي لنساعد بعضنا بعضًا على قضاء حاجتنا. وأحيانًا، كنتُ أستمتع مع سايمن أكثر ممّا أستمتع حاليًّا مع جوش.. ستكبرين وتنسين، وسيصبح كلّ شيء من الذكرياتِ والماضي..

- يا إلهي.. كم كانت فاسدة! تُمارس الحبّ مع شقيقها، وتخون حبيبها مع صديقتها؟

- هي ليست موضوعنا الآن.

- لكنْ لا بدَّ بأنَّها شجَّعتكِ، وأزالت الغمَّ عن قلبكِ؟

- نعم.. كثيرًا. لكنْ، كُنْ صادقًا وقلْ لي يا لمين، هل حدث وانجذبتَ إلى شابٍّ مثلك؟

- لم يحدث هذا ولا أتخيَّله يحدث..

- اممم.. أيُّها الجزائريّ المغلق، مجرَّد التفكير بالأمر يوتِّرك ويُزعجك. لماذا تعاملت مع هذا الاقتراح كأنَّه موقفٌ يهين رجولتكَ؟

. لم أتوتَّر.. كلّ ما في الأمر أنَّني أنجذبُ إلى الأنثى، ولم يحدث شيء من هذا.

. ربَّما لو حدث لَأَعْجَبك، من يدري!

. لا أعتقد.. لا لن يعجبني.

. لأنَّك ترفضه في عقلك ولاوعيك، لم تمنح لنفسكَ حتى فرصة التجربة!

. لأنَّني لا أُعاني من أيِّ نقصٍ في متعتي مع المرأة. أنا راضٍ عن تجاربي مع النساء، انظري لنفسكِ، لقد جرَّبتِ ولم تستمتعي..

. لكنَّني لم أخسر شيئًا، كما أنَّني كنتُ أعاني من مشكلةٍ أخرى، ولهذا لم أستمتع. أخبرني، يا لمين.. كيفَ ترى المِثْليّين، وكيف تتعامل معهم في مجتمعك؟

. ليس لديَّ صديق مِثْليّ مقرَّب. أعلم ما ستقولينه بأنَّني شكليًّا أقبلهم، ولكنَّني في داخلي لا أفعل. فليكن، لستُ منافقًا، هذا فعلًا موقفي منهم.

. وهل تعتقدُ أنَّهم طبيعيُّون أم مَرْضى؟

. طبعًا مَرْضى.. المِثْليَّة حالة معاكسة للفطرة والطبيعة.

. لا أتَّفق معكَ في هذا، أجدها حالة طبيعيَّة جدًّا، ولديَّ حجج قد تُقنعك، ولكنَّ الوقت ليس مناسبًا لمناقشتها.. إذن، حين كنتُ أروي لكَ ما فعلته مع آشلي، كنتَ تراني مريضة وبحاجةٍ إلى العلاج؟

. كنتُ أقول لنفسي أنتِ أكثر امرأةٍ مجنونة قابلتها.. وعلى الرَّغم من اعتراضي على جنونكِ في بعض الحكاياتِ، إلَّا أنَّه يستفزّ فضولي ويُثيرني.

* * *

سأُحدِّثكَ عن أغربِ هديَّةِ عيدِ ميلادٍ حصلتُ عليها.. في اليومِ الأخير من شهرِ مايو، استيقظتُ حزينة وخاوية مثل قصبة! أتجوَّل في البيتِ بشعرٍ لم أغسله منذ ستَّةِ أيَّامٍ.. أقضم أظافري، وأفكِّر في طريقةٍ جيِّدة أُنهي بها حياتي. هل أمزجُ الكحول مع الحبوبِ المنوِّمة وأموت كما تموتُ الفاتنات؟ هل أمزِّق شراييني؟ أرمي بنفسي من الجسر أو

أمام شاحنة تهرسُ عظامي، أم أشنق نفسي في حديقةِ البيت، ليجدني جهاد فجر عيد ميلادِي معلَّقة؟ وقد قرأ القصاصة التي كتبتُها له: هذا ما جناه عليَّ أبي وما جنيتُ على أحد؟ ولكنَّني جبانة مثلك يا لمين، وأنانيَّة جدًّا في حبِّ هذهِ الحياةِ الغبيَّة! إنَّني ما زلتُ أرغبُ بالمزيدِ من الخطايا والحماقات والمغامرات التي لم أقم بها بعد..

كهديَّةٍ لعيد ميلادي، وليرفع جهاد معنويَّاتي قليلًا، اصطحبني إلى ملهى ليلي اسمه (sunset)؛ مكانٌ يُشبه النادي لا يرتاده إلَّا عدد محدَّد ومعروفٌ من الزبائن، يفتح أبوابه من الساعةِ الخامسةِ مساءً وتُغلق أبوابه في منتصفِ الليل مع بقاءِ الزبائن الموجودين حتى صباح اليومِ التالي. ها نحن نسيرُ في رواقٍ مظلم، فيه إضاءة شحيحة تكفي لنرى أقدامنا، ولا نتعثَّر أو نرتطم بجدرانٍ. الجدران فيها أبواب خشبيَّة مقوَّسة.. طلبَ منِّي التلصُّص من خلالِ فتحةٍ مستديرة في الباب أكبر من العين الساحرة بقليل، لأرى ماذا يحدثُ في إحدى الغرف..

امرأة مقيَّدة على نحوٍ مؤلم بأشرطة تعصِر أطرافها ونهديْها، وفي فمها كرة مطَّاطيَّة حمراء تلزمها الصمت. أمَّا الرجل الواقف بين ساقيْها

المنفرجتيْن، والذي توقَّعتُ أن يضربها أو أن يولجَ فيها.. جلبَ عصا سميكة وبدأ يقحمها في فرجها، والمرأة تئنّ ودموعها تسيل مختلطة بالكحل.. ابتعدت. مَسَكني من يدي مرَّة أخرى، وقرَّبني باتِّجاهِ غرفةٍ أخرى، يسألني: ماذا ترين؟ رجلان مستلقيان على السرير في وضعيَّةِ الجنين ورأس كلٍّ منهما بين ساقيّ الآخر..

مرَّة أخرى: قولي ماذا ترين؟

رجلان يغتصبانِ امرأة! يضربانها، يبول أحدهما على رأسها، يكفي، لا أريد رؤية المزيد..

حبيبتي أنتِ لا تحبِّين العنف ولا العلاقات المثْليَّة، دعينا ننزع ثيابنا ونخرج إلى الساحة، الأجواء هناكَ ستعجبكِ.

أقفُ عارية، شعري الأسود يغطِّي نهديَّ.. سيضع جهاد ثيابنا في الخزانةِ ويسلِّم المفتاح إلى موظَّفِ الاستقبال العاري إلَّا من ربطةِ عنقه. قبل أن ندخل الساحة، نسمعُ أصواتًا صاخبة وأنينًا متواصلًا لأصواتِ نساء شبقات، وهمهمة مرتفعة لأصواتِ رجال شبقين.. الساحة

ليست مكشوفة تمامًا، سقفُها من الزجاجِ الشفَّاف الذي يعكس لونَ السماء.. تتوسَّطها نافورة من الرخام بُنِيت عليها تماثيل منحوتة ببراعة لرجليْن وامرأتيْن بالتناوب.. يسيل الماء من فمِ الرجل ومن مهبل المرأة المنحنية بظهرها وذراعها إلى الأسفل.

أحدِّق إلى كلِّ ما تقع عليه عيناي.. فقد تجنَّبتُ في البداية التحديق إلى الأشخاص المنشغلين بمداعبة بعضهم بعضًا بالتحديق إلى تفاصيل الساحة. والآن، بعد أن زال بعض الحياء، أتأمَّل الناس حولي يشبهون المجانين، غائبين عن الوعي.. هناك من يمارسُ العادة السرِّيَّة وحيدًا وهو يركِّز ببصره على ثنائيّ أعجبه، وهناك ثنائيَّات وثلاثيَّات ورباعيَّات.. للعضو مطلق الحرِّيَّة ليُمتِّع نفسه كما يشاء.. كلَّما يقع بصري على أحدهم يصيح وهو يتأمَّلني، ويناديني كي أنضمّ إليه، فأبعد نظري وأتأمَّل موضوعًا آخر. تمدَّد جهاد عاريًا يُداعبُ عضوه.. أفهم من حركاتِ فمهِ أنَّه يقول لي من بعيد: happy birthday.

اقترب منِّي رجلٌ ستّينيٌّ هائج، ولامس شعري بطريقةٍ مقزّزة. أُبعد يدَه عن شعري وأركض إلى جهاد، يقف ويهمّ بتقبيلي فأصفعه! أحسّ بالغضب والإذلال في هذا المكان، أقول له: اجلب ملابسي حالًا ودعنا نغادر مكان الخراء هذا. أرتدي ملابسي غاضبة على عجل، وأسبقه مهرولة في الرواقِ المظلم. أدفع بالحارس الضخم وأغادر الباب.. في الخارج، أتنشّق الهواء البارد وأقاوم الرغبة في التقيُّؤ. يلحق بي جهاد لاهثًا: ماذا حدث، يا جنّات؟ ألم يعجبكِ العرض؟ لم أجلبكِ لهذا المكان إلّا إصرارًا منكِ لعيش تجربة جديدة! حبيبتي، كنتِ مكتئبة طوال الوقت ومختنقة من الروتين، أردتُ أن تعيشي تجربة مختلفة، هذا كلّ ما في الأمر..

أحدِّق إليه بمرارة، وأطلب منه ألّا يلحق بي. أنا نفسي لم أصدِّق ردَّة فعلي العنيفة وانفعالي. كنتُ قد شاهدتُ العديد من أفلامِ البورنو، أشاهد ما يعجبني وأغلقُ الڤيديو إذا لم يعجبني، كما كنتُ أتلصَّص فعلًا على أشخاصٍ يمارسون الجنس بدافع الفضول، ربّما مزاجي كان

سيِّئًا منذ بدايةِ ذلك الصباح، وربَّما لا يمكن للواحدِ منّا بأن يتنبَّأ بردّات فعله حتى يعيش المواقف مباشرة!

. ماذا عنك، يا لمين؟ ماذا لو كنتَ أنت في نادي sunset؟

. ما أعرفهُ عن نفسي أنَّني أفضِّل الخصوصيَّة، ما كنتُ لأشعر بالإثارةِ بممارسةِ الجنسِ أمام الآخرين، ولا بالظهورِ عاريًا بينهم.

. هل كنتَ لتعيش تجربة مع شخصيْن؟ نسيت أنَّك..

. أعرف ما ستقولينه، جزائريّ مغلق.. في الواقع، مثل هذه التجارب لا تستهويني. أنا من مواليد برجٍ مائيّ. المياه تشكِّل شخصيَّتي، والمائيُّون عاطفيُّون وحسّاسون وإن أظهروا عكس ذلك. قد أرتكبُ حماقة، وأمارس الجنس مع عاهرة أو امرأة لا أحبُّها.. ولكنْ أن أرمي نفسي في الجحيم فقط لأشمّ رائحة جلدي يحترق كما تفعلين، لا، لستُ من ذلكَ النوع.. أنتِ جوزائيَّة هوائيَّة، والمزاج سيِّدكِ، أنتِ عبدة المزاج. أتمنَّى أن يأتي يوم تنتصرين فيهِ على مزاجكِ!

لماذا تغيَّر وجهكِ هكذا؟ ألم يُعجبكِ كلامي؟

ـ نعم، لم يعجبني...

رمقتني بنظرةٍ غاضبة، هي الأولى منذ ركوبنا. لستُ نادمًا على ما قلتهُ، قلتُ رأيي فيها بصراحة، ولا أعرفُ لماذا تجدُ الراحةَ في انتقادي كما تشاء ونعتي بالرجعيّ والمغلق، وتتحسَّس من ملاحظة صغيرة كالتي قلتُها؟ ربَّما ندمتُ لسببٍ واحد، أخشى ألَّا تجد راحتها في قولِ المزيد.. أفكِّر الآن كيفَ أستعيد انتباهها ورغبتها بالحديث.. بموضوعٍ يُعيدها إليّ، أبحث في ذاكرتي عن ذكرى غريبة عشتُها، عن تصرُّفٍ حقيرٍ قمتُ بهِ كي أوازن بهِ حماقاتنا ولا تشعر بغربتها عنّي، ولكنْ لا، سأحاربها بأسلوبِ والدها.. أتجاهلها، وأدَّعي أنَّني اكتفيتُ من حكايتِها.

- ١٨ -

غفوتُ لساعةٍ من الزمن، وبعدها وجدتُ الجميلةَ على حالها كأنَّها لم تتحرَّك مثل من يمارسون التأمُّل في صلواتهم الهندوسيَّة، والآن، أرغبُ باختراقِ عزلتِها بسؤالٍ يُذيبُ الصمتَ بيننا: قلتِ بأنَّك لا تحبّينَ أحدًا.. تحبِّين ما تكونين عليهِ برفقةِ الناس؟

. جميعنا لا نحبّ إلَّا أنفسنا، نحن نخادعُ قلوبنا وقلوب الآخرين بفكرةِ الحبِّ الوهميَّة. تلك ناديا جارتكَ التي كنتَ مفتونًا بها، ألم تكرهها في اللحظةِ التي رأيتَها تواعدُ رجلًا آخر؟ ووردة، ألم تتركها فقط لإحساسكَ بالضجر؟ وناريمان، ألم تحقدْ عليها بعد أن اكتشفتَ أنَّها كانت تستغلّك؟ الحبّ شيء آخر، أن تحبَّ إنسانًا ولا تنتظر منه جنَّته أو جهنَّمه، لا تحبُّه لأنَّه يسعدكَ ويهتمُّ بك ويلبِّي احتياجاتك، تحبُّه فقط لأنَّ قلبك الأعمى اختارهُ بقبحه، فقره وإعاقاته، بعيوبه، أخطائه ونقائصه. لكنْ، قلْ لي، في أيَّامنا هذه مَنْ بإمكانهِ أن يُحبَّ

بلا حسابات ولا مقابل، وبعطاءٍ كامل من دون استغلالِ حقّ الأخذ؟

ـ لقد قلتِها بنفسكِ، حقّ الأخذ، العلاقات كلّها أخذ وعطاء..

ـ إلّا علاقات الحبّ الحقيقيّة! أنت لن تحبَّ لتأخذ، بل لتمنح، وستكونُ سعيدًا بذلك المنح المجّانيّ الذي لا تنتظر منه المقابل من المحبوب.

ـ هل عشتِ علاقة كهذه؟

ـ عشتُها من طرفٍ واحد، وذلك الطرف لم يكن أنا، كنتُ المتلقِّية دائمًا في العلاقة. في الواقع، لم أكن يومًا المانحة..

ـ حتى مع جهاد؟

ـ منحته أكثر ممَّا منحتُ الآخرين فقط، ولكنْ ليس كلّ شيء.

ـ والآن، ألن تكملي لي حكايتكِ؟

ـ بما أنَّنا نتحدَّث عن علاقاتِ الحبِّ، سأحدِّثكَ عن نضال.

إنَّ حضور نضال في حياتي يمثِّلُ لي ما يمثِّله لكَ حضور ناريمان في حياتكَ، ليس من حيثُ الأذى، بل من ناحيةِ التأثير القويّ. كان حضورُها عاصفًا ومُدمِّرًا، أعاد تشكيلك وغيَّر مسار حياتك، فثمَّة أشخاص يعبروننا ليعرِّفونا على ما كنّا نجهله بشأنِ ذواتنا. نضال شابٌّ سوريٌّ من أصولٍ فلسطينيَّة، تعرَّفتُ عليه في الجامعة. كانَ أستاذي، عرفتهُ عربيًّا من ملامحه، من صفاءِ بشرته وسوادِ عينيْه وشعره الداكن الكثيف ولحيةٍ يشذِّبها ولا يحلقها كلّها. كان فاتنًا! رجلًا أراهُ، فأرغبُ بتقبيله وشمّه وتعريتهِ من ملابسه.

لم أتخيَّل نفسي سألفتُ انتباهَ رجلٍ مثله، في سنتي الجامعيَّة الأولى.. كنتُ أرى نفسي قبيحةً كالمسخ الذي يختبئ ولا يسمح لأحدٍ برؤيته، ثقتي بنفسي كانت صِفرًا، وهذا زاد من انطوائي وابتعادي عن الناسِ والرجال خصوصًا. هو أيضًا، من اللحظةِ الأولى، عرفَ بأنَّني لستُ بريطانيَّة، ولكنَّه لم يفهم إلى أيِّ بقعة جغرافيَّة أنتمي. يقول بأنَّني أمتلك ملامحَ متوحِّشة وغامضة، وأوَّل سؤال سيطرحه عليَّ في رسالةٍ على الفيسبوك: «قولي لي فقط في أيِّ أرضٍ نبتِّ؟»

عرفته إنسانًا ذكيًّا وسريع البديهة، رجلًا جميل الوجهِ والقلب، يعرفُ كيفَ يحتوي أيّ امرأةٍ كيفما كانت طباعها. بدأ الأمر بعلاقةٍ رسميَّة بين طالبةٍ وأستاذِها، ثم صداقةٍ قويَّةٍ قرَّبتنا حتى بدأنا لا نعرفُ كيفَ نُفسّرُ ما يجمعُ بيننا، علاقة ملتبسة بين الحبِّ والصداقة، نتواصلُ كتابةً باللغةِ العربيَّة الفصحى، وشفهيًّا باللغةِ الإنجليزيَّة، وذلك لأنَّني لا أفهم من لهجتهِ كلمة! ستسخرُ وأنا أُخبرك بأنَّني بعد معرفتي بقلبه، تلاشت جميع تخيُّلاتي الجنسيَّة، واكتفيتُ بالاستمتاع باكتشافه والتعرُّفِ على طيبته التي لم أعرف مثلها في رجلٍ آخر. لم أتلهَّف للتلامسات الجنسيَّة، بل كنتُ أؤجّلها قدر الإمكان خوفًا من أن تخبو العاطفة التي كانت تتَّقد بيننا، كأنَّني خشيتُ من الانتقال إلى المرحلة التالية! فالجنس هو مرحلة فاصلة في العلاقة، إمّا يقرّب بين اثنيْن أو ينفِّر بينهما بعنف كما تفعل الكهرباء. ظللتُ أتجنَّبُ ذلك حتى باغتني بالقبلةِ الأولى..

- كيفَ أحسستِ؟

ـ بالارتباك، بالدهشة! مثلما يتساقط المطر على رأسكَ فجأة في يومٍ مشمِس..

ـ وكيف كان تأثيرهُ قويًّا عليكِ؟ أقصد من أيِّ ناحية؟

ـ أعاد لي ثقتي بنفسي. قبل معرفتهِ، لم أكن أحبُّ المرايا لأنَّها تذكِّرني بمن أكون.. كرهتُ لسنواتٍ كيفَ أبدو من الخارج، كلَّما شردتُ في تأمُّلِ ملامحي وجسدي عاريًا، أشعر بالاختناقِ والانزعاج! الأمر يشبه أن تُقابل بالصدفةِ شخصًا تكرهه. بفضلهِ هو بدأتُ أصدِّق أنّني كائنٌ جميل ويستحقُّ الحبَّ والإعجاب.

ـ غريب!! ألم يُخبركِ أحدٌ قبله كم أنَّكِ جميلة؟ ألا تريْن كيف يلتفتُ الناسُ إليكِ ويتوقَّفون ليتأمَّلوا جمالكِ؟

ـ بلى! ولم أكن أصدِّق.. أحيانًا، أفكِّر بأنَّها نظرات تتأمَّل القبح وليس الجمال، أفكِّر بأنَّني مختلفة وجميلة على نحوٍ بشِع يدفع للفضول وليس الإعجاب.. وأحيانًا، أتلقَّى المديح على أنَّها مجاملات كاذبة. جهاد، حتى ثقتي بنفسي دمَّرها.. كان ينتقدني ويعتقد أنَّني أفتقرُ

للأنوثة! ولكنْ، نظراتُ نضال صادقة، مختلفة ومُحِبَّة، وكلامهُ العذب لا أرتوي منهُ أبدًا.. أحببتُ رؤية انعكاسي في عينيْه وطريقة معاملتهِ لي، يعاملني بلطفٍ بالغ وتفهُّمٍ عجيب، كما لو كنتُ طفلةً صغيرة لا يسمح لنفسه بتجريحها بالكلام... أصعب ما عشته معه كان التردُّد بينَ الاعترافِ لهُ عن العلاقة التي تجمعني بأبي، واجتهادي كي لا يعلمَ جهاد بعلاقتي بهِ! أفعل المستحيل كي لا يعرفَ أحدهما بشأنِ الآخر. لم أكن واثقة من ردَّةِ فعل

نضال، سأخسرُ رجلًا أحسبهُ قدوتي وأعدّه نبعَ توازني، وما كنتُ واثقة من ردَّة فعلِ جهاد الذي لن يتردَّد بأذيَّته.

في يومٍ غابَ فيهِ جهاد عن البيت، دعوتُ نضال ليقضي معي الظهيرة في بيتنا. هناكَ، على الأريكةِ الجلديَّة، استلقيت متحمِّسة لتذوُّقِ الحبِّ من جسدهِ وفهم ما يريدهُ قلبي. انحنى نضال فوقي يطبعُ القبلاتَ على عنقي، ويفتحُ أزرار قميصي حتى انكشف له صدري. تأمَّلته وداعبتُ رأسه. حتى ذلك الحين، لم أشعر بأيِّ رغبةٍ لمواصلةِ ما نقومُ بهِ، لكنَّني تحلَّيت بالصبر. وضع يده بين ساقيَّ يحاولُ استثارتي

أكثر، لا أحسُّ بشيء! بل احتلَّتني مشاعرُ الخيبة والانسحاب، أريدهُ أن يتوقَّف.. أسمعُ أكياسًا بالقربِ من الباب وصوت المفاتيح.. يا إلهي، إنَّه جهاد يفتحُ الباب! ينهض نضال بسرعة ويُعيد ضبط حزام سرواله، وأنا أزرِّر قميصي، ولكنَّ الوقت تأخَّر فعلًا لفعل ذلك.. سقطت الأكياس من يديْه، رأيتُ في عينيْه نظرة غضبٍ لم أرَ مثلها في حياتي، كأيِّ نظرةٍ حاقدة يرمقها رجلٌ لزوجته التي تخونه مع رجلٍ آخر، لكنَّ الفرق الوحيد هنا هو أنَّني ابنتهُ ولستُ زوجته.. يحاولُ نضال الاعتذار بخجل، جبينه يتعرَّق:

- سوري، كتير بعتذر منك، أستاذ جهاد.

أبي لا يقولُ شيئًا، لا أرى في عينيْه سوى الاحتقارِ لكليْنا. ينتظرُ رحيلهُ بصبرٍ نافد ليوجِّهَ الحديث إليَّ. أنا لا أعتذر! لن أعتذر منه، لأنَّني أواعدُ رجلًا يعجبني:

. من هذا؟

. أستاذي في الجامعة!

. ألا يعرفُ أنَّه ممنوعٌ عن مواعدةِ طالبتهِ؟

. الحبُّ لا يعرفُ الممنوعَ والحرام، أليس هذا كلامك؟

. أنتِ لا تعرفين ماذا تقولين، أنتِ لا تحبّينه..

. بل أعشقهُ.. إنَّه أفضلُ رجلٍ عرفتُه.

. جنّات.. كيفَ تقولين في وجهي بأنَّكِ تعشقينه! لا أصدِّق ما رأيته!

حطَّم المزهريَّة، وخرجَ منفعلًا ليعودَ في ساعةٍ متأخِّرة. جلسَ جهاد على الكرسيّ المقابل لي في المطبخ. لم يقلْ شيئًا، كان هادئًا جدًّا، ذلك الهدوء المخيف الذي تنتظرُ عاقبته. أخذتُ قنّينة ماء من الثلّاجة، وصعدتُ لغرفتي كي أخلد إلى النوم. وفي الساعة الرابعة صباحًا، فتحَ بابَ غرفتي، وتحتَ تأثير الغضب والخمر قامَ باغتصابي.

لم أستطع منعه، صفعني أكثر من صفعةٍ قويّة على وجهي، ينعتني بالعاهرة والحلّوفة الخدَّاعة. لم يتوقَّف عن مخاطبتي باسم جنَّات. أبكي، أقول له جيم، أنا جيم، لكنَّه لا يصغي. ومن دون أن يقبِّلني أو يتودَّد إليَّ، فتحَ ساقيَّ بقوَّة وثبَّت معصميَّ على السرير، وبكلِّ القسوة التي يمتلكها.. انتهكني. فضّ بكارتي بعنف حتى تخيَّلت من الألمِ بأنَّه يفعل ذلك بخنجر لا بعضوٍ من دمٍ ولحم. وبعد ذلك، قلبني على ظهري وواصل انتهاكه من الخلف، ليكون امتلاكه لجسدي كاملًا. في أثناء ذلك، كان يشدّني من شعري ويصيح: انتيا تاعي.. أمَّا أنا، لم أصدِّق بأنَّ هذا الرجل الذي يقوم باغتصابي وإهانتي هو الرجل نفسه الذي عشتُ معه حياتي كلّها في بيتٍ واحد. كنت مصدومة ومدهوشة، ولم أمتلك كلمة واحدة في فمي أردّ بها عليه، أو أدافع بها عن نفسي. كانت تلك أوَّل تجربة كاملة لي في ممارسةِ الجنس..

ـ القتل أقلّ ما يستحقّه! كان ينبغي أن يتعفَّن في السجنِ لسنواتٍ طويلة قبل أن يموت!!

عندما غطَّ في النومِ، غسلتُ نفسي من قذارتهِ، وخرجتُ في الساعةِ السادسة إلى بيتِ نضال. استقبلني في حالة سيّئة جدًّا وهو يرى وجهي متورّمًا من الصفع والضرب. ظنُّه ضَرَبني كأيِّ والدٍ شرقيٍّ لم يحتمل رؤية ابنته تمارسُ الزنا، من دون أن يعلمَ بأنَّ الحيوان يمارسُ الزنا مع ابنتهِ. لم أستطع أن أحكي لهُ ما حدث.. لم أملك الجرأة. كلّ ما كنتُ بحاجته هو الاستلقاءُ بينَ ذراعيْه بحثًا عن الطمأنينة والأمان. ظلّ يداعب شعري حتى أنام، وكنتُ أتشبَّثُ بصدرهِ مثل قطَّةٍ ترتعشُ من البردِ.

- ١٩ -

في مطبخِ نضال، جلستُ أتناولُ الحبوب مع الحليب بينما أفكِّر بكلِّ ما حدثَ مع جهاد وما يحدثُ معَ نضال، وما زلتُ لا أعرفُ ماذا أريد وكيفَ ينبغي أن أتصرَّف. انقبض قلبي لسماعِ جرسِ الباب! شعرتُ بأنَّه هو.. لا أحد غيرهُ خلفَ ذلكَ الباب، سمعتُه بعد ذلك يتبادلُ الكلامَ مع نضال، نضال يكذبُ كي يحميني منه، وأبي يصرّ بأنّني لا أملك مكانًا آخر أذهب إليه. أخرج من المطبخ وأطلبُ من نضال أن يدعنا لوحدنا قليلًا.. يغادرُ الصالون، ولكنَّه لا ينسحبُ كلِّيًّا، ما زلتُ أحسُّ بهِ يسترقُّ السمع ويشاهدُ محادثتنا. أعودُ إلى مقعدي وأحرِّكُ الحبوب في الطبق من دون أن أرفعَ عينيَّ إلى وجهه. يجلسُ جهاد على ركبتيْه:

- اسمحيلي!

- ...

ـ مش راح تتعاود، تعرفيني عمري ما درتها وعمري ما نعاودها.

أستمتعُ بتوسُّلاتهِ وما زلتُ لا أنظرُ إلى عينيْه. خلعَ الخفّ من قدميَّ وقبَّلهما:

ـ ما تخلِّينيش، جيم عندي غير أنتِ..

لم ينطق باسمِ جيم منذ فترة طويلة، تتكوَّن دمعةٌ حارَّة في عينيَّ، وأنظر إليه:

ـ ذلَّيتني!

ـ علابالي حبيبتي، أنا حمار.. ديري فيا واش حبيتي بصحّ ما تخلِّينيش.

ـ نحبّ نتزوَّج بنضال!

اتَّسعت عيناه حين لفظتُ جملتي الأخيرة، ولم يجد ما يقوله: قال بأنَّه يوافق في حال ما إذا وافقتُ على العودةِ معه إلى البيت.. الماكر يثقُ في نفسهِ إلى ذلك الحدّ، يظنُّ نفسه قادرًا على استعادةِ قلبي! مع ذلك، وافقت لأنَّني سأفوقه مكرًا.

ـ لا أصدِّق أنَّكِ وثقتِ بهِ بعد كلّ ما فعلَه بكِ!

ـ بل وثقتُ بنفسي.. جيم التي غادرت البيت في ذلك الفجر أصبحت امرأةً أقوى لن يكسرَها أحد، قلتُ لنفسي إذا حاولَ الاعتداءَ عليّ مرَّةً أخرى سأقتلهُ، وقد قتلتُه!

ـ قتلتهِ مباشرةً بعد عودتكما إلى البيت؟

ـ بعد أشهر من الحادثة..

* * *

هل تعرفُ أكثر ما أثَّر فيَّ في حكاياتك؟ عندما أخبرتني عن ذلك الشابّ الذي كنتَ تزور بيته ليعلِّمك فقامَ باغتصابكَ. لم أتمالك نفسي يا لمين، بكيت.. ولم أَبْكِ منذ فترة طويلة جدًّا، جفَّت عيناي وما عاد شيء يحرِّك قلبي ليتألَّمَ بذلك الشكل.. أرى أشخاصًا في نشراتِ الأخبار يموتون ويجوعون ويتألَّمون في كلِّ الأمكنة التعيسة ولا أحزن من أجلهم، ولا أتعاطف.. لأنَّني لستُ معنيَّة مباشرةً بتلك المعاناة، ولا أحسّ بالذنب، لأنَّني بخير وهم ليسوا كذلك، لأنَّها ليست

مشكلتي ولا يد لي في بؤسهم، وليس بإمكاني فعل شيءٍ من أجلهم، فلماذا أُتْعبُ قلبي! ولكنَّ حكايتك حرَّكتني، ربَّما لأنَّنا نتشارك في الآلامِ مثلما نتشارك في الخطايا، انظر إلى أيِّ حدٍّ متشابهة ومتشابكة طرقنا في الحياة؟ أنتَ أيضًا عشتَ هذه التجربة الأليمة.. تجربةَ الاغتصاب وما حفرته في نفسك لم يلتئم، ما زلتَ ترويه بالغصَّة نفسها كما لو أنَّه حدث أمس.. كما لو أنَّك لن تغفرَ أبدًا، وكيف تغفر؟!

جهاد كان كلّ عالمي، كنتُ مكتفية بهِ عن أيِّ أحدٍ.. مكتفية به إلى حدّ لا أريد معرفةَ أشخاص آخرين. كان رجلًا يعجبني، يضحكني، يعاملني جيِّدًا ويُعلِّمني كيف أعيش الحياة، لأنَّه يرى العالم بعينٍ مختلفة، بعين حقيقيَّة وشفَّافة، وبإمكانه أن يُعيد نظرك في أشياء كثيرة كنتَ تعتقدُ بأنَّك تحبُّها وتفهمها. عشتُ صراعًا لسنوات وأنا أحاول منع نفسي أن أحبّه كامرأة وأحبَّه كابنةٍ فقط، عشت سنوات أتعذَّب وأتألَّم بعد كلِّ متعةٍ جسديَّةٍ يقدِّمها لي. أحيانًا، أطمع في المزيد وأحلم بالليلةِ التي سيفتضّ فيها بكارتي، لأنَّه حبيبي ورجل حياتي، وأحيانًا

أهربُ منه وأعذِّبه عندما أكرِّس التركيز على أخلاقي، أو الأخلاق التي وضعها الناس، كما كانَ يقول.. عاش عمره يحاول حمايتي من كلِّ شيء حتى من نفسي، حتى تلك الليلة التي حطَّم فيها كلّ شيء ودمَّرني، دمَّرني تمامًا!

* * *

دمَّرني تمامًا، قالتها بعينيْن كبيرتيْن تغلِّفهما طبقة شفَّافة وسميكة من الدموع، بغصَّة كبيرة في الحلق، بصوتٍ بدأ يجرحه البكاء. مسحتْ بأطرافِ أصابعها الدموع تحتَ عينيْها، وسحبت من صدرها تنهيدة عميقة، لتقول:

. «دخل جهاد تلك الليلة والحقدُ يملأ عينيْه، الخوفُ هو ما شعرتُ بهِ، وبأنَّني أمامَ شخصٍ آخر لا أعرفهُ. مسكنِي من شعري وانهالَ عليَّ بالصفعات ودقَّاتُ قلبي تتسارع.. وأنا أفكِّر بأنَّه سيقتلني الليلة. الخوفُ منعني من الدفاعِ عن نفسي، ضرباته كانت موجعة، يضربُ ليوجع قدر الإمكان. نزع حزامَ سرواله وبدأ يضربني بهِ في كلِّ مكان، أخفيتُ وجهي أبكي، بينما هو لا يتوقَّف عن جَلْدي بذلك الحزام،

ثم مسكني من شعري مرَّة أخرى وأداري إليه. لم يقبِّلني بلطفٍ على فمي كما كان يفعل دائمًا، بل بصقَ على وجهي، وذلك البصاق الذي تطاير على وجهي ملأ نفسي بالإحساس بالإذلال، وبأنَّني لا أساوي شيئًا..

تذكَّرتُ بأنَّني يتيمة ووحيدة في هذا العالم وليس لي أحد.. وصفني بالخراء.

وأحسست أنَّني لست أكثر من قطعة خراء حقيرة. ثبَّت معصميَّ وفتح ساقيَّ، وبلا مقدِّمات وبلا مزلق وبلا تمهُّل، أنا التي لم تُمارس جنسًا كاملًا من قبل، أدخل قضيبه المنتصب بقوَّة دفعته إلى الداخل، أحسست من خلالها بأنَّه يخترقني ويؤلمني، يخترقُ قلبي بهِ ويثقبه. لم أتحمَّل ألم ذلك الإيلاج، تتالت الضربات وأنا أحسّ بحرقةٍ رهيبة في مهبلي. وعندما قلتُ انتهى، قلبني على ظهري وأقحم عضوه من الخلف.. أحسستُ هذه المرَّة بأنَّه يمزِّقني، تركني بعد ذلك مبلَّلة بقذارته، بوجهٍ ورَّمته الصفعات، بشفةٍ تنزف، بشعرٍ منكوش، بجسدٍ ملوَّنٍ بالكدمات وآثار الحزام. وقفتُ بساقيْن ترتجفانِ من الألم الذي

كان ينخرني من الأمامِ ومن الخلفِ. وقفتُ أمام المرآة أبكي على نفسي.. وأفكِّر كيفَ لإنسانٍ أن يكون بهذهِ الوحشيَّة وأن يتسبَّب بالأذى لابنته.. ارتديتُ الثياب التي أمامي، وهربتُ إلى بيتِ نضال.

. يا إلهي، ولكنْ، ما لا أفهمه كيف بعد كلّ هذا، تمكَّن من إقناعكِ بالعودةِ إلى البيت؟

. لا أدري، كلّ ما أعلمه أنَّني رغبتُ بالعودة، ربَّما هي رغبتي اللاواعية بالانتقام! قضيتُ أيَّامًا من الأرقِ، أدفنُ فيها رأسي في الوسادةِ وأبكي.. أحسّ بنفسي مهشَّمة من الداخل ومشوَّهة القلب.. أفكِّر في طريقةٍ أدمِّره بها كما دمَّرني. أردتُ أن أعود، ولا يهمّ الآن معرفة السبب الحقيقيّ.. هل عدتُ لجلَّادي لأنَّني أحبُّه أم عدتُ إليهِ لأقتله!؟ السبب الحقيقيّ لا يهمّ، ما يهمّ هو أنَّني عدت.. وبعد أشهرٍ، قتلته بيدٍ باردة. ولم أشعر بأنَّني مرتاحة وسعيدة وحرَّة حتى تأكَّدت بأنَّ قلبه توقَّف عن النبض، بأنَّه مات، ولن يكون موجودًا في هذا العالم بعد الآن.

- ٢٠ -

ما الذي أراهُ في عينيْها؟ لقد اختفى ذلكَ الضوء الجميل الذي يشي بأمل البداياتِ الجديدة، وأطفأ البوحُ الأليم فيها ابتساماتها، وأخمد صمودها. عادت متوتِّرة، حاقدة، مبدية رغبتها المتوحِّشة بإحراقِ العالمِ بما فيه، حتى معاملتها لي تغيَّرت بعد أن حكت لي كيفَ اغتصبها والدها، وكأنَّها كرهت الرجال جميعًا، وصار كلّ من لديه قضيب بين ساقيْه عدوًّا لها. أشاحت بوجهها للنافذة، وكلَّما فعلت ذلك، أشعر بالحزن وبأنَّني أفقدها..

الطريقُ إلى تمنراست خطٌّ طويل في الفراغ.. طريق موحش لا ينتهي. ليس هناك أشجارٌ ولا جبال ولا منعرجات، ولا القرى قريبة من بعضها، ليس في يدك سوى رحلة عكسيَّة تقوم بها إلى داخلك، والتفكير بما حدث أو بما تريدُ أن يحدث.. هل يشعرُ كلّ راكبٍ في هذهِ الحافلة بما أشعر بهِ من خوفٍ ووحدة؟ لا أدري. أصبحنا كلَّما أقبلنا على قريةٍ آهلة بالناسِ نفرح.. وكثيرًا ما يتحجَّج الرَّكّاب؛ فهذا

يُريد النزول لشرب قهوة، وذلك يشعر بالجوع، وتلك ترغب بقضاءِ حاجتها.. وأنا أريد أن أستعيد جيم فقط، ثقتها وابتساماتها وسخريتها الجارحة.

سننزل في محطَّة البنزين ـ قال السائق. أعرض على جيم التجوُّل في السوبر ماركت لنشتري أشياءً نتسلَّى بها في الطريق. نزلتْ معي غير مهتمَّة وأنا أتأمَّل تعابير وجهها المحايدة وطريقتها الغريبة في المشي، إيقاعها بطيء وفيه شيءٌ من الكسل، كما لو كانت تُرغم نفسها على المشي!

ـ كنتَ تصغي إلى موسيقى صاخبة حين كنَّا في الباص، ماذا كنتَ تسمع؟

ـ كنتُ أسمع الرّاي، موسيقى لا أظنُّها تُعجبكِ، لأنَّها أصبحت تُعرف بالموسيقى الهابطة.

ـ صحيح، الراي الجديد لا يُعجب في شيء، لا أدري كيف تحتملون سماعه!

ـ لأنَّه يغنِّي واقعنا، وواقعنا في وهران هابط أكثر من الموسيقى نفسها. وأنتِ عادةً ماذا تسمعين؟ أتخيَّل امرأة مثقَّفة مثلك تفضِّل الموسيقى الكلاسيكيَّة.

ـ لستُ امرأةً مهتمَّةً بالموسيقى، الموسيقى لا تحرِّكني، إنَّها بالنسبة إليَّ مجرَّد أصواتٍ تجيء وتذهبُ في الفراغ.. لستُ ممَّن ينغمسون في الإصغاءِ إلى أغنية حتى يجدوا رموشهم مبلَّلة بالدموع، كما لا أنهضُ من مكاني لأرقص إذا جذبتني موسيقى مبهجة. هناك استثناء واحد هو الذكريات، أصغي من الموسيقى فقط إلى ما يخصّني من الماضي؛ فيروز تذكِّرني بأمِّي، فكيفَ لا أحبُّها؟ سليمان عازم يذكِّرني بجدَّتي التي كانت تترك كلّ شيء وتجلسُ إلى جانب الراديو لتسمع أغانيه؛ آيت منقلات يذكِّرني بوالدي وبقصَّةِ حبِّه الأولى مع جنّات؛ معطوب لونّاس يذكِّرني بفترةٍ أخرى من حياتنا، الوقت الذي كان يعلِّمني فيه اللغة الأمازيغيَّة، ونتناقشُ في التاريخ والسياسة، لننهي النقاش دائمًا بأغنية له.

ـ أتعلمين؟ مثلما تستغربين حبَّ الناس لموسيقى الراي، أستغربُ حبّ القبائل لموسيقى معطوب لونّاس! يتحسَّسون من انتقاده حتى لو كان ذلك الانتقاد موضوعيًّا؛ أنا مثلًا، لا أكرهُ موسيقاه لأنَّني لا أفهم أغنياته. ثمَّة موسيقى كثيرة لا أفهمها، ومع ذلك أحبُّها.. معطوب لونّاس صوته مزعج جدًّا.

ـ ألم تقل بأنَّك تسمع الموسيقى الهابطة، لأنَّها تغنِّي واقعكم، للسبب نفسه نُصغي إلى معطوب لونَّاس صاحب الصوت القبيح كما تقول، هو لا يغنِّي لأجل أن يمتِّع أحدًا، بل يغنِّي فنًّا سياسيًّا، اختارَ وصفةً شهيَّة وسريعة يصلُ بها لقلوبِ الناس.. فاللغة الأمازيغيَّة هي لغة شفهيَّة أكثر ممَّا هي لغة مكتوبة، والناس هناك طالما تعطَّشوا ليسمعوا لغتهم الممنوعة مغنَّاة، فكيف وهي تُغنِّي همومهم اليوميَّة! كان معطوب الوسيم المتمرِّد الذي يزأرُ بشجاعة في وجهِ النظام، ويقولُ ما لديه من دون أن يخاف الاختفاء في الزنازن.

ـ ولكنْ لماذا يقدِّسونه؟ يتعاملون معه كما لو كان نبيًّا! عندما تدخلين مدينة تيزي وزو، عدا العَلَم الأمازيغيّ الملوَّن، ترين صوره على

الجدران في كلِّ مكان، وفي كلِّ حافلةٍ ركبتها يشغِّلون أغنياته ويصغون إليه بإخلاص، وإذا عبَّر الراكبُ عن انزعاجه من صوت معطوب يرفعُ السائقُ الصوتَ متحدِّيًا: أي اِقبل أو اِنزل.

. ليست مسألة تقديس، بل هو حبٌّ لشخصيَّة وهبت حياتَها لأجلِ قضيَّتهم. إنَّه ابن كلّ عائلة قبائليَّة، رجلٌ بسيط من الشعب يتحدَّثُ بما يتمنُّون قوله. هل تعرفُ ماذا فعل الناسُ لأجله في التسعينيَّات عندما اختطفته الجماعة الإسلاميَّة المسلَّحة؟ كان معطوب يشرب في حانة بمنطقة تاخوخت، دخل الإرهابيُّون يصوِّبون بنادقهم إلى الزبائن، ملأوا قلوبهم بالرعب، قتلوا بعضهم، خرَّبوا المكان واختطفوا المغنِّي الكافر لتتمّ تصفيته. خرج الناسُ غاضبين يملأون الشوارع كالجيوش في القرى والمدن، وبعد أسبوعيْن من الاختطاف، أطلقوا سراحه. ثمَّة ؟يديو مؤثِّر في اليوتيوب ستشاهدُ فيه كيف استقبل الشعب ابنهم المختطف بالزغاريد والفرح وترديد أغانيه، وڤيديو آخر يروي فيه معطوب الأيَّام التي عاشها في الجبل مع الإرهابيِّين.

قبل حادثة الاختطاف، كادَ معطوب يموتُ قتلًا في حادثٍ مختلف في الثمانينيَّات، عندما تجاوز حاجزًا أمنيًّا خوفًا من اعتقاله بسبب منشورات كانت بحوزته. أربع رصاصات أطلقها الدركُ الوطنيّ اخترقت بطنه ومثانته، وأخرى تسبَّبت لهُ بعرجٍ دائم، كما حرمته من الإنجاب. عندما تجمَّع الناسُ حول سيَّارةِ المصاب وعرفوا أنَّه فنَّانهم معطوب، حملوه إلى المستشفى، ووقفوا في طوابير ليتبرَّعوا لهُ بالدم، وبعد نجاتهِ، كتب الأغنية الشهيرة: «إذا كان رصاصكم يقتل فهو لم يقتلني..».

لم تكن حياته عاديَّة، نجا من الموتِ أكثر من مرَّة، واستمرَّ بكتابةِ أغنياتهِ الغاضبة. موته أيضًا لم يكن عاديًّا؛ ماتَ قتيلًا وكان يُدرك أنَّه لن يموتَ إلَّا بتلك الصورة، فقد كتبَ في سيرته: «أفضِّل الموتَ بسبب أفكاري على أن أموت بسبب المرض أو الشيخوخة». في اليوم الخامس والعشرين من شهر جوان من عام 1998، قُتِل بالرصاصِ في حاجزٍ مزيَّف، بينما كان بإمكانه العيش في أوروبا

وإرسال الكاسيتات لمحبِّيه من بعيد..

ـ ومع أنَّ الجماعة المسلَّحة تبنَّت اغتياله، إلَّا أنَّ الناس يتَّهمون النظام بقتله.

ـ ليس مهمًّا من قتله، المهمّ أنَّه تحلَّى بالشجاعةِ الكافية ليعبِّر عن آرائه في زمنٍ متطرِّف، زمن يُذبحُ فيه الإنسان كالخروف، فقط لأنَّه يفكِّر بطريقة مختلفة..

صعدنا الحافلة مجدَّدًا وقد اشترينا ما نحتاج، وعندما وصلنا لمرحلةِ الدفع، رفضت جيم قطعًا أن أدفع ثمن مشترياتها. لاحظتُ عندما فتحت محفظتها ببطء أنَّها لا تحمل سوى بضع ورقات من فئة الألف، لذا، ونحن نعودُ إلى أماكننا ونستعدُّ للإقلاع، أردتُ معرفة كيف تدبِّر أمورها منذ وصلت إلى الجزائر:

ـ أخبريني، يا جيم.. هل جئتِ إلى وهران مباشرةً بعد أن هربتِ؟

ـ ذهبتُ إلى العاصمة، ومكثت هناك شهرًا في بيتِ صديقة أمِّي التي بكت وهي تراني أحمل وجه صديقتها الميِّتة. أحبَّتني وعطفت عليَّ حتى أحسستُ بأنَّها تبنَّتني! كانت تُبقيني قريبة من غرفةِ نومها خوفًا

عليَّ من أبنائها، من دون أن تدري أنَّ من سيتحرَّش بي سيكون زوجُها. انهارت على الأرض حتى ظننتها ستموتُ من الهلعِ والحزن عندما قبضتْ عليه متلبِّسًا.. يتلصَّص عليَّ وأنا أستحمّ. قرأتُ نيَّتها بطردي في عينيْها، لذا قبل أن تقول شيئًا، سبقتها: سأغادر غدًا، أنا آسفة، وشكرًا على كلِّ شيء.

ـ ومن العاصمة، إلى أين انطلقت؟

ـ مباشرةً إلى وهران، لأبحث عن خالتي المتزوِّجة هناك. وجدتها توفِّيت بالسرطان، وطردَني أبناؤها بوقاحة بحجَّة أنَّهم سيُعيدون طلاء البيت وترميمه.

ـ لماذا تصرَّفوا معكِ هكذا؟

ـ لأنَّهم لا يعرفونني.. قريبة لهم غابت لسنوات، لا تعرفُ حتى عن وفاةِ أمِّهم، تعود فجأة هكذا من دون أن ترغب بالإفصاحِ عن أسباب زيارتها الحقيقيَّة..

. والآن، لماذا تمنراست؟

. لأزور أشخاصًا ينتظرونني.

. من ينتظركِ هناك يا جيم؟

. قلت لكَ، معارف..

. لستِ خائفة؟

. مِمَّ أخاف؟

. وكنِّني خائف عليكِ، ما رأيكِ بأن نعود معًا إلى وهران؟

. قطعنا كلّ هذهِ المسافة لنعود؟

. نعود بالطائرة إذا شئتِ، وسأساعدكِ على البدء من جديد..

. لديَّ ما أقوم بهِ في تمنراست، لا أدري كيف ستسير الأمور، إذا وجدتُ الحياة صعبة في الصحراء، سأفكِّر بعرضك.

لديها ما تقومُ بهِ في تمنراست؟ قالتها بكلِّ ثقة، هذه الشابَّة تعرفُ جيِّدًا ما تريد، كنتُ خائفًا عليها والآن خائفٌ منها.. تفكِّر بخبث

وتغمض عينيْها قليلًا مثلَ قطَّةٍ برِّيَّة، ماذا لو صارحتُها بوساوسي عنها؟ هل ستضحك، أم ستغضب منّي، أم أنَّها ستتضايق فحسب، لأنَّني أُقحم أنفي فيما لا يخصُّني؟ ما زلتُ ذائبًا في حضورها ومنشغلًا بما يدور في رأسها. منذ قابلتُها، نسيتُ ذاتي وهمومي، بل وجودي كلّه يبدو كما لو أنَّه أصبح مرتبطًا بوجودها ورغباتها. أشتهي فهمها، وأرغب بحمايتها وإرضائها، وأتخيَّل لو طلبتُ يدها بأيِّ طريقةٍ سترفضني، لأنَّني أتخيَّل أيّ شيءٍ سوى أن تقبل برجل مثلي. يبدو أنَّ الجولة في السوبر ماركت قد عدَّلت مزاجها قليلًا، لاحظتُ أنَّه كلَّما جرَّنا الحديث عن أصولها الأمازيغيَّة، تتحمَّس لتعرِّفني على تفاصيل أجهلها. أظنُّها مستعدَّة الآن لتروي لي الفصل الأخير من حكايتها، كيفَ قتلت جهاد؟

- ٢١ -

ماذا تريدُ أن تعرف؟ التفاصيل الكاملة لتلكَ الليلة؟ هل تريدُ أن أُحدِّثك عن طقسٍ تلك الليلة والعشاءِ الذي تناولناه؟ وكيفَ تسلَّلَ إلى غرفتي.. ترغبُ بمعرفةِ كلّ شيءٍ لتكوّنَ حُكْمًا جيّدًا عنّي: هل أنا مذنبة أم بريئة.. هل استحقَّ الموتَ بتلك الطريقةِ الشنيعةِ على يدَي ابنتِه؟ أم أنَّه كان ينبغي أن أُسامح وأمنحه فرصةً ثالثة ليتغيَّر؟ بعدَ عودتي إلى البيت، اكتشفتُ أنَّ جهاد يزورُ طبيبًا نفسيًّا ليتعالج. أخيرًا، بدأ يقتنعُ بحاجته للعلاج، وبأنَّ تلك الشقيَّة في بيتِهِ هي ابنته وليست زوجته. أنا لا أدري إن كان مريضًا حقًّا كما ادَّعى، أم أنَّه كان يعي ويتحرَّشُ بي عمدًا. حقًّا لا أدري. ما أعلمهُ أنَّ كلّ ما حدث ما كان ينبغي أن يحدث.

عدتُ لمواعدةِ نضال بقلبٍ مهشَّم، انسكبَت منه كلّ أشكالِ العاطفة، بقلبٍ ما عاد يفهمُ ما هو الحبّ أو ربَّما لم يفهمه قطّ. نضال الذي حاول أن يحتويني، وجدني كلّ مرَّة باردة بين ذراعيْه، كان

كمن يتبادل القبلات مع جثّة.. كم تمنَّيتُ لو أشرحَ له مأساتي، ولكنَّني كلَّما هممتُ بشرحها ارتعبت وفهمتُ بأنَّها مأساتي وحدي، ولا أحد سيفهمني. سيتعاطفُ الناسُ معي فقط، ولن ينجح أحد في ترميم ما انكسرَ في داخلي، يا لمين. لن ينجح أيّ أحد، حتى أنت.

في الصيف الذي مات فيه أبي، أو بالأحرى الصيف الذي قتلتُ فيه جهاد، زارتنا صديقة له، شاعرة من الجنوب. تعرَّفَ عليها من طريقِ الفيسبوك، وقرَّر استضافتها في بيتنا. الشاعرة جميلة جدًّا، سمراء وحلوة الملامح ولها ابتسامة مدهشة، جسدها شهيٌّ وممتلئ تمامًا كما يحبّه جهاد الذي طالما انتقد نحافتي المفرطة. عرَّفني عليها بصفتِي جنّات، استغربت ورفعت حاجبيْها وهي تراني أصغر من أن أكون زوجته! كما رأت في إطارات صورنا المعلَّقة على الجدار، صورة لامرأة تشبهني تكون جنّات الحقيقيَّة، وصورة أخرى تجمعني بأبي، فأدركتْ فورًا بأنَّ الموضوع يدور حول امرأتيْن وليس امرأة واحدة. أنا لم أصحِّح لها ولم أكلِّف نفسي عناءَ الشرح، بل تمسَّكتُ بحيادي وصمتي أراقبُهما بعينيَّ فقط.

أعترفُ بأنَّ الفضل يعودُ لها في أن يفكِّر بزيارةِ طبيبِ الأمراض العقليَّة. لقد كانت لماحة وفهمتْ كلّ شيء، وأحبَّته من قلبها، واحتوت جروحنا من دون أن تعبث بها. أرادت أن تُصلح قدر الإمكان ما يمكنُ إصلاحه. عاد الأمل إلى قلبي، وقلت ربَّما سيعرفُ هذا البيت أخيرًا حياة واقعيَّة، لكنَّني مع ذلك لم أطمئنّ، فاشتريتُ مسدَّسًا كاتمًا للصوت وغير مرخَّص، وتعلَّمتُ استخدامه، واحتفظتُ بهِ في غرفتي. قلتُ لنفسي إنَّني لن أستخدمه إلَّا في حالةٍ واحدة؛ إذا حاول اغتصابي مرَّةً أخرى، لن أتردَّد بقتلهِ. قد تفكِّر بأنَّني تعمَّدتُ القتل وخطَّطتُ للجريمة، ولكن قل لي، هل أنا الوحيدة في العالم من اقتنت سلاحًا لتدافع بهِ عن نفسها؟ ألا يحتفظ الناس بالأسلحة خوفًا من اللصوص والمجرمين الذين قد يقتحمون منازلهم؟ أَوَليس مجرمًا الأب الذي يفسد عقل ابنته؟ ويدفعها للإلحادِ والتعرِّي وزنا المحارم؟ وعندما يكتملُ وعيها وترفضه، يقوم باغتصابها بوحشيَّة؟ ألا يستحقّ رجلٌ كهذا الإعدام؟

مرَّ شهرٌ وهو يتعالج.. كلّ شيءٍ كان بخير حتى حدثت النكسة. مرَّةً أخرى شربَ حتى الترنُّح، مرَّةً أخرى، دقّ الباب وهو يطلبُ جنّات.. أُخبره بأنَّني جيم، يُجيب أنتِ كلّ حياتي. مرَّة أخرى، يختلط عليه الأمر.. يقترِبُ ويتمدَّد إلى جانبي، أعدِّل من جلستي وأطلب منه مغادرة غرفتي، يبدأ بتقبيلي ولمسِ صدري ودسَّ يده بين ساقيَّ. أرفع صوتي: جهاد، أخرج حالًا.. مرَّة أخرى يقفز عليَّ ويُحاول تثبيتي على السرير، تحرَّرتُ منه بركلةٍ بين ساقيْه، وأخرجتُ المسدَّس بسرعة من الدُّرجِ الأوَّل، وقف يضحك وهو لا يصدِّق ما يراه، أنتِ لن تُطلقي النار عليَّ.. أنتِ غاضبة فقط، أطلقتُ عليه الرصاصةَ الأولى في البطن، نظرَ إلى بطنه وهو لا يستوعب ولا يصدِّق الرصاصة التي اخترقت بطنه للتوِّ.. الدمُ يسيل وهو يلمسه بأصابعه، يُحدِّق إليه ثم يُحدِّق إليَّ بفمٍ مفتوح وهو لا يصدِّق أنَّني فعلتها! الرصاصة الثانية في الصدر، سقط فورًا على الأرض وهو يرتجف ويحتضر بعينيْن تغيبان عن الحياة. الرصاصة الثالثة في الوجه، في خدِّهِ الأيمن.. فجَّرت نصفَ وجهه..

(تسارع نبضي وشعرتُ بلذَّةٍ غريبة لم أختبر مثلها في حياتي، لذَّة جعلتني أحسُّ بحرارةِ الدمِ يتدفَّقُ في عروقي، وبأنَّني أرغب بلعقِ دمه والتهامِ جثَّته، ورغبة بالتحديقِ إلى ما فعلته، إحساسٌ بالقوَّة.. القوَّة المطلقة التي تخوِّلك إطفاء روحٍ عذَّبتك. أحسستُ كذلك بالحرِّيَّة! بأنَّني عشتُ كلّ حياتي في زنزانة مظلمة، ثم أخيرًا رأيتُ الضوء وصار بإمكاني أن أحلِّق، تلك الحرِّيَّة المرعبة التي لا تعرف هل تشعر بالسعادة بها أم الخوفِ منها).

. فجَّرتِ نصفَ وجهه؟ لماذا؟ لماذا لم تكتف بقتلهِ؟

. يا إلهي! هل تعتقد أنَّني تعمَّدت ذلك؟ كنتُ مرتبكة وأتجنَّب النظر إليه، أطلقت الرصاص من دون وعيٍ منِّي..

غادرتُ البيت، ولم آخذ لا هاتفي المحمول ولا جواز السفر ولا المحفظة التي تحمل بطاقات الدفع. أسقطت الأباجورة وثنيتُ السجَّاد، ليبدو الأمر كما لو أنَّه تمَّ اختطافي، وهذا فعلًا ما حدث. فبعد أيَّامٍ، أعلنوا أنَّني مفقودة. عشتُ مشرَّدة لأسبوعيْن كامليْن، أنامُ في الحدائق العامَّة وعلى الكراسي المعدنيَّة، وأتسوَّل أمام المطاعم والكنائس.

نظَّفتُ المسدَّس جيِّدًا وألقيتُ بهِ في النهر، وبعدها، اشتريتُ جواز سفرٍ مزوَّر هربتُ به إلى الجزائر.. والباقي تعرفه.

- ٢٢ -

ها هيَ جيم تتنفَّسُ بعمق، وتستعدُّ للرحيل..

تبدو متعبة جدًّا أكثر ممَّا كانت تبدو عليهِ في بدايةِ الرحلة. الهالات السوداء واضحة تحت عينيْها، والعينانِ ذابلتان والوجه من شحوبه يبدو ليس فيهِ نقطة دمٍ واحدة. ها هي تُعيد تسريح شعرها، وربط حذائها، وتقفُ على الرَّغم من التعبِ قويَّة وعازمة، لا أدري على ماذا؟ تسير في رواقِ الحافلة وتنزل لتستلم حقيبتها الخفيفة التي ليس فيها سوى القليل من الثيابِ للتغيير. جيم التي ظَلَمتْها الحياة بوالدها، امرأة لا تُشبه النساء في هواياتهنَّ، فهي ليست مهووسة بالثيابِ والماكياج والمظهر الخارجيّ، بل تفعل ما في وسعها لتدفن جمالها ولا ينتبه إليه أحد، ولكنْ كيف لها أن تحجب تلك العينيْن الواسعتيْن المضيئتيْن؟ كيف لها أن تمنع أيّ أحد أن يُبدي إعجابًا بتفاصيل وجهها المتناسقة وبابتسامتِها المثيرة؟ جيم التي غيَّرت طريقة تفكيري لمواضيع عظيمة في الحياة، خضتُ معها الحوار الأهمّ والأطول في حياتي.. يُخيِّم على قلبي حزنٌ كبير، حزن الانفصالِ والرحيل.. أفكِّر

بأنَّها ستستدير الآن لأرى ظهرها وخطواتها الأخيرة، وقد لا أراها مرَّةً أخرى. أمسك بيدها وأنا عاجز تمامًا عن إخفاء الحزن الذي طفا على وجهي، وأطلبُ منها رقمَ هاتف أو وسيلة للتواصل:

. ليس لديَّ أيّ وسيلة للتواصل حاليًّا. أنتَ أكثر من يعرفُ ظروفي..

. لا يمكنني أن أدعكِ تذهبين هكذا، كيف أجدكِ مرَّةً أخرى؟

. اكتب لي رقم هاتفك على قصاصة، وأنا سأتَّصل بك.

لا أكلِّف نفسي عناء البحث في جيوبي عن قلمٍ وورقة، فهي أدوات لا أستخدمها. أقفز إلى مقدِّمة الحافلة لأحدِّث السائق وأنا ألتفت لأطمئنَّ بأنَّها ما زالت موجودة وهي تبتسمُ ابتسامتها القاسية تلك.. أكتبُ رقم هاتفي بتركيز، وأضع القصاصة في يدها: لا تضيّعيها..

. لا تخف، لا يضيع منِّي شيء إلَّا إذا أردتُ ذلك!

السفر الثاني

(الجحيمُ الذي حسبناه جنَّة)

- ٢٣ -

أنا مجنونة!! لا أستوعبُ حتى هذهِ اللحظة كيفَ وثقتُ برجلٍ غريب وبحتُ لهُ بسرِّي. كان لمين أوَّل إنسانٍ يعرفُ بما ارتكبتهُ في ذلك البيتِ اللعين! لقد خرقتُ قاعدتي الذهبيَّة، أوَّل قاعدة للحفاظ على الأمان: ألَّا أثق! ومع ذلك فعلتُها ووثقت. ربَّما لأنَّني كنتُ متيقِّنة من أنَّه سيتعاطفُ مع الضحيَّة وليس مع الجلَّاد. إنَّ الدفاعَ عن النفسِ حقٌّ مشروع لأيِّ كائنٍ في العالم، أيّ امرأة تقتل رجلًا يهمّ باغتصابِها يُعَدّ ذلك القتل حقَّها في الدفاعِ عن نفسها، فكيف إذا كان ذلك المغتصبُ والدَها الذي دمَّر حياتَها وانتهك جسدها؛ الوالد الذي ضربَ الدين والأعرافَ بعرضِ الحائط فقط ليمارسَ نزواته الجنسيَّة، والذي تركَ كلّ نساءِ العالم ليعتدي على طفلة، وأيُّ طفلة؟ الابنة من

لحمهِ ودمه. من هذا الذي بلا قلب الذي لن يتعاطفَ مع ضحيَّةٍ مثلي.. العالمُ كلّه!

تكمنُ المشكلة في طباعِ الرجال الكريهة! فالرجل إذا أحبَّ امرأة وافتُتِنَ بها يغضّ تفكيره عن عيوبِها ويكتفي بمزاياها، وتتيقَّظ نزعة البطولة داخله لحمايتها واحتوائها، ولكنْ ما إن يتلقَّى رفضًا صادمًا منها، ما إن يتملَّكه اليأس بأنَّه لن يحصل عليها أبدًا.. حتى يبدأ بالتكشير عن أنيابه، مثل كلب بولدوغ تمَّ ربطه وتجويعه، ينقضّ على أوَّل غريبٍ خائف. هذا ما خشيته من لمين، أن يستخدمَ اعترافي ضدِّي في حال ما رفضته، ولكن ما حدث قد حدث، وأنا تلك الليلة كنتُ في حالةٍ سيِّئة ويائسة، ووجدتُ نفسي مستعدَّة لسماعِ حكايته وخطاياه، ووجدتُ نفسي أيضًا بحاجةٍ لأروي حكايتي.. وربَّما لأدرس انطباعه أيضًا، أردتُ أن أعرف كيف سيتلقَّى الناس حكايتي، وهل سيتعاطفون معي أم سيقسون عليّ..

السفر الثاني من تمنراست إلى وهران، اخترتُ أن يكونَ عبرَ الطائرة. ما كنتُ لأتحمَّل رحلةً بريَّة كالتي قمتُ بها. كانت إحدى المغامرات

التي أقوم بها مرَّةً واحدة. دامت الرحلة ساعتيْن، وجلسَ إلى جانبي طبيبٌ من مدينة عنّابة، وكما هيَ عادتي في السفر، أشحتُ بوجهي إلى النافذة منشغلة عن كلِّ شيءٍ بنفسي أتأمَّلُ الصحراء من السماء، حتى قاطع تفكيري ذلك الرجل الغريب؛ رجل خمسينيّ شعره رماديّ وناعم.. يبدو حريصًا على الظهور بمظهر أنيق من بدلته وربطة عنقه وعطره القويّ الذي أزعجني. يبدو من الرجال المتملِّكين الذين يحبُّون أشياءهم، من خلالِ لغة جسده وطريقته في التعامل مع أشيائه بهدوءٍ وحرص ليحافظ على نظافتها وشكلها. أمَّا أنا، فكنتُ أرتدي هذه المرَّة ملابس خفيفة، لأنَّ الجوّ في تمنراست ليس باردًا. أرتدي هذه المرَّة سروال جينز لا هو بالضيِّق ولا هو بالواسع، وقميصًا أسود فتحته على شكل حرف V ، وشعري قمتُ بتصفيفه فقط كي لا أبدو مشرَّدة، وأتعرَّض للمتاعب والسخرية في المطار، فالناس ينتبهون دائمًا إمَّا للأنيق جدًّا أو المهمل جدًّا، وأنا أكرهُ الانتباه.. أريد تجنُّب نظرات الناس واهتمامهم وتطفُّلهم والبقاء هادئة في عالمي.

يعمل الطبيب الغريب في وهران، وكان في تمنراست لحضور ملتقى سنوي. أوّل سؤالٍ طرحه عليّ، هل أنتِ جزائريَّة؟ قلتُ له: «ألا أبدو جزائريَّة»؟ قال: «لا..» ومع ذلك، لم يستطع التكهُّن بالمكانِ الذي جئتُ منه، لأنَّ ملامحي على حسب قوله غامضة! تحدَّثنا عن الأكل والسينما والأدب، كيف كان وكيف أصبح، وافترقنا بعد أن منحني بطاقته متمنِّيًا أن أتواصل معه. لكنَّني لن أفعل.. أنا امرأة تتبع حدسها في كلِّ شيء، وهذا الرجل الوسيم الثريّ خفيف الظلّ يبدو من النوع الذي يسبِّبُ الصداع والمتاعب.

وجدتُ لمين ينتظرني خارجَ المطار وقد جهَّز كلّ شيءٍ للزواج؛ عاد إلى وهران وتواصل مع معارفه، ودبَّر لي شهادة ميلاد مزيَّفة لقريبةٍ له في مثل عمري، ماتت طفلة منذ سنوات في ريفِ تيارت، ولم يُعلن عن وفاتها أحد. سأتزوَّجُ من لمين، لا مشكلة لديّ.. على الرَّغم من أنَّه لا يُعجبني. بإمكاني أن أتزوَّج من أيّ رجل.. والعيش مع أيِّ رجل، فأنا سريعة التأقلم، بإمكاني قبول رجل ليس فيه الصفات المفضَّلة.. بإمكاني التزوُّج من رجل بدين، قصير، أصلع، عجوز، داكن البشرة،

فقير، مشرَّد، يهوديّ، ملحد، برجلٍ من الجزائر أو من الكاميرون، من القطب الشمالي.. لا يهمّ، الصفات لا تهمّ، لا الشكليَّة، ولا المعتقدات تهمّ ولا المكان الذي جاءَ منه! كلّ ما أريده رجل أحسُّ معهُ بأنَّني لستُ مهدَّدة.

عندما تواصلتُ مع لمين عبر الهاتف وراح يعدني بحياةٍ أجمل، صارحته وكنتُ محدَّدة معه: لن أكون ربَّة بيت جيِّدة! لا أُتقن الأعمال المنزليَّة، طباعي سيِّئة ولا تُحتمَل، مزاجي ليس مستقرًّا، كما أنّني لا أفكِّر مطلقًا بإنجابِ الأطفال. كلّ هذهِ أمورٌ لا تحلم بأن تتغيَّر، أو أنَّك ستتمكَّن من إقناعي بعكسها.. فإذا قبلتني كما أنا، أكونُ لك زوجة مخلصة.

- ٢٤ -

وحدهُ اللَّه يعلمُ السببَ الحقيقيّ الذي دفعها للسفرِ إلى تمنراست! لا يمكنني تصديق أنَّ جيم قطعت كلّ تلك المسافة الهائلة لتقابل صديقةَ والدتها, وتحصل منها على تذكارات تحتفظ بها لوالدتها الميّتة في هذهِ الظروف. أنا أيضًا يتيم، وأُدرك فداحة أن يفقد الإنسان أحد والديْه قبل أن يرتوي من حبّه، ويعيش حياته معذَّبًا بذلك اليُتم والنقص.. لكنَّها لا تريدُ أن تقول شيئًا عن هذه الرحلة الشاقَّة التي قامت بها، ولا الحديث عن الشهرِ الذي قضته في الصحراء. اكتفت بالقول بأنَّها عادت، لأنَّها ملَّت ولم تُخلق لتعيش في بيئة قاسية وذات إيقاع بطيء، بيئة تصلح للمتصوّفين والزاهدين في الحياة، كما عبَّرت.. المشكلة أنَّها لا تقول شيئًا عمومًا منذ انتهى سفرنا تلك الليلة، ولا تتحدَّث إلَّا للضرورة، وإذا تحدَّثت تتحدَّث بجملٍ قصيرة ومحسوبة كجرعاتِ الدواء.

عندما وافقت جيم على الزواجِ بي، ظننتُني سأكونُ أسعد رجال العالم. لم أحلم قطُّ بأن تقبلَ بي. لقد جرَّبتُ حظِّي فقط، حظِّي الذي ما علمتُ أنَّه سيكونُ تعيسًا بهذا الشكل، أعيشُ مع امرأةٍ أحبُّها من دون أن أعرفَ كيف أكسبُ قلبها، أو أستمتع بوقتي معها على الأقلِّ. في الأيَّامِ الأولى، عذرتُها. قلتُ ربَّما هي لم تعتد عليَّ بعد، ولكنَّنا الآن معًا منذ سبعةِ أشهر، ولم يتغيَّر شيء في برودِها وشرودها الطويليْن.

تقضي جيم معظم وقتِها في الفراش، إمَّا تقرأ الجرائد أو الكتب، وإمَّا تُشاهد التلفزيون أو تستخدم الكمبيوتر الصغير الذي باعت عقدها الذهبيّ لتشتريه. نتسوَّق مرَّة في الأسبوع، أصحبها إلى السوبر ماركت لتنتقي الطعام سهل التحضير الذي ستأكلهُ خلالَ الأسبوع. إذا طبخت بكمِّيَّة زائدة، فإنَّها تترك لي ما تبقَّى من طعامِها، وإذا طبخت كمِّيَّة قليلة، فإنَّها تأكلها وحدها ولا تُبالي. أنا أصلًا لا أحبُّ طعامها، حتى طعامها لا أفهمه! فهي لا تستخدمُ أيّ توابل للطعام، فقط القليلُ من الملح، تطهو الطعام في الماء حتى ينضج ويصبح

صالحًا للأكل، وتلتهمه مستمتعة كأنَّها تأكل طعامًا لذيذًا! هي التي كانت ثريَّة في حياتها السابقة، لا بدَّ أنَّها عرفت الكثير من المطاعم، وتفرِّق بين الأكل اللذيذ والأكل الرديء! ولكنَّها لا تهتمّ.

جيم لا تهتمُّ أيضًا بالثياب ومستحضراتِ التجميل. في السابق، حين كنّا معًا في الحافلة، أبديتُ إعجابًا بهذهِ النقطة، واليوم لا يروقني أبدًا ما أراهُ فيها من إهمال. تغسل وجهها صباحًا بالماءِ فقط وتستحمّ مرَّةً في الأسبوع، وأحيانًا كلّ عشرة أيَّام. منذ وصلت إلى وهران وهي تغيِّر بين ثيابها القديمة؛ وعندما أقترح عليها الخروج لنشتري لها ملابس جديدة، ترفض. هي كذلك لا تُزيلُ شعرَ إبطيها ولا شعرَ عانتها إلَّا عندما يصبح الشعر غزيرًا فيهما. تزيل فقط شعرَ ساقيْها عندما تستحمّ. وحينها، أجدُ متعة في التلصُّص عليها أثناءَ حلاقتها لساقيْها، أرى في الحركة أنوثةً أخَّاذة! لطالما شاهدت ذلك في الأفلام؛ امرأة جميلة تستحمّ وترفعُ ساقها وتبدأ بهدوء جذّاب حلاقةَ ساقِها من تحت إلى فوق! وبعدما تزوَّجتُ بجيم، استمتعت وداعبت نفسي وأنا أشاهدها تفعل ذلك، وهي لم تمانع.

صارحتني زوجتي من البداية بأنَّها تكرهُ القيام بالأعمال المنزليَّة.. وهي فعلًا خلال هذهِ الأشهر لم تنظِّف البيتَ تنظيفًا حقيقيًّا سوى مرَّتيْن اثنتيْن. تكنسُ بكسل إذا اعتقدت أنَّ البيت يحتاجُ للكنس، أمَّا الأواني، فتدعها تتكدَّس وتغسلها في نهايةِ اليوم، وحين يكون مزاجها سيِّئًا تتركها ليومين، أو أغسلها عندما لا أكون متعبًا. لم أتذمَّر قطّ في حضورها من هذا السلوك، لأنَّني قبلتُ بشرطها ومضيتُ بقبولي حتى النهاية.

مشكلتانِ فيها حوَّلتا زواجنا إلى جحيم؛ صمتُها الذي تمسَّكت بهِ منذ دخولها بيتنا، إذ تتصرَّفُ كما لو كانت تعيشُ بمفردِها، وكأنَّها قالت كلّ شيءٍ ونحنُ في الحافلة، ولم يعد لديها ما تقولُه! وكلَّما فاتحتها في هذا الموضوع تقول: «ماذا تريدُ أن تعرف؟ حكايتي تعرفُها كلّها»، وكأنَّها انتهت المواضيع التي بإمكاننا مناقشتها، وإذا سألتها عن رأيها في حزبٍ أو فنّان أو حدثٍ، تُجيبني بكلمة واحدة وتعود لعالمِها. أمَّا المشكلة الثانية، فهي برودُها الجنسيّ معي! البرودُ الذي طالما حدَّثتني أنَّها عاشته مع عُشَّاقِها السابقين. أذكرُ جيِّدًا ما أخبرتني

بهِ في الحافلة. لم ينجح أحدٌ غير والدِها في تحريكِ شهوتها وجرِّها إلى ممارسةِ الجنس برغبةٍ وشبق، وأنا الذي ظننتني سأنجحُ في جعلها تذوبُ بين ذراعيّ، جرَّبتُ معها كلّ شيءٍ أعرفهُ بلا فائدة.

كم كان سلامُها عليَّ فاترًا وأنا أستقبلُها في المطار! سلَّمت عليَّ بقبلتيْن على الخدِّ.. كما تسلِّمُ صديقة على زميلها في الجامعة! قالت رأسُها يؤلمها، لأنَّها جلست بجانبِ محرِّك الطائرة، وصدَّقت. عرَّفتُها على شقَّتنا التي تتألَّفُ من غرفتيْن وبهو ومطبخ، وأريتها التعديلات التي قمتُ بها؛ الطلاء، والرفوف الجديدة، والمكتبة الصغيرة التي اشتريتها لها لتضع فيها كتبًا تحبُّها. بعد ذلك، جلبتُ العشاء من المطعمِ المجاور، وفرشتُ الطاولة وأضأتُ الشموع.. كي أبدو رجلًا رومانسيًّا. أمَّا هي، فقد تناولت عشاءها بسرعة ونهضت للنوم، لأفهمَ بأنَّها ليست معنيَّة بكلِّ الرومانسيَّة التي أقوم بها، وقلت لا بدَّ أنَّها تنتقد في صمتها هذا الجوِّ الأهبل، هي التي لا تأخذ الحياة نفسَها على محملِ الجدِّ..

كنّا في البلديَّة في اليومِ التالي لنوقِّع وثيقة الزواج، كلّ شيءٍ حدث بسرعة وسلاسة، وهي لم تتردَّد للحظةٍ واحدة، وقَّعت من دون أن ترتجف يدها. تبدو امرأةً تعرفُ جيِّدًا ما تقومُ به ولا مجال للندمِ في قلبِها. ليلًا.. حاولتُ التودُّد إليها وتقبيلها، لم تمانع، ولكن لم تتجاوب معي أيضًا. رحتُ ألمس بلطفٍ صدرها فوقَ الثيابِ، وما زالت مستلقية مثل دمية! نزعتُ عنها ثيابَها ودفنتُ رأسي بين ساقيْها أستثيرها، فانزعجت قائلة: لا أحبُّ هذا! قلتُ ربَّما بعد أن أولج فيها ستستثار، فثمَّة نساء لا يشعرن بالإثارةِ إلَّا إذا دُخل فيهنَّ.. ولكنْ راح عضوي يدخل ويخرج حتى قذفت، مسحتْ بين ساقيْها بالمناديل المبلَّلة، واستدارت لتنام: بون نوي لمين..

* * *

أسبوعٌ كاملٌ بعد تلك الليلة لم ألمسها، لأمنحها الوقت اللازم على اعتيادي معها في البيتِ نفسه. وكلّ ليلة، كانت تقرأ حتى تنعس، ثم تودِّعني بجملتها المعتادة وتنام. هي حتى لا تضعُ رأسها على كتفي أو صدري.. كأنَّها ليست بحاجةٍ لأيِّ نوعٍ من العاطفة. وحين قلتُ لها

هذا، قالت باقتضاب: «أنتَ مجنون! ما كنتُ لأتزوَّج رجلًا غيرك. اخترتك أنت، لأنَّني أصدِّق رجولتك وأحسّ معك بالأمان، وهذا حتى الآن يكفيني». قلتُ لها: «ويكفيني أيضًا، ولكنَّني أطمح لأن تحبِّيني، يا جيم». لم تقل شيئًا، لكنَّني رأيتُ في عينيْها شفقة، شفقة تفسِّر جملة مستترة:

أنا لن أحبّكَ أبدًا.

ظلَّت في الأيَّامِ الأولى تذكرُ جهاد، هو يحبُّ كذا، يكرهُ كذا، يعتقدُ كذا.. استغربت كيفَ أنَّها تربطُ كلّ معلوماتها وذكرياتها بهِ وآذاني ذلك. هل ما زالت متعلِّقة بهِ، بعد كلِّ الدمارِ الذي ألحقه بها؟ التحرُّش الذي اقترفه وهي طفلة، اغتصابها وهي شابَّة، تعنيفها وضربها، تشويه قناعاتها ومعتقداتها؟ لقد دفعها الرجل لارتكابِ جريمة من الأذى الذي ألحقه بها، وما زالت تتحدَّث عنه بحبٍّ وكأنَّه حاضر معنا. صارحتُها بأنَّني ما عدتُ أرغبُ بسماعِ اسمهِ في هذا البيت، قالت: «أنا آسفة، عشتُ حياتي كلّها مع هذا الرجل، والماضي لا

يمكنُ اقتطاعه من الذاكرة بهذهِ السهولة».. اعتذرتْ، وبعد اعتذارها، صمتتْ لأشهر.

- ٢٥ -

المعطف

قبل أن يحدثَ ذلك الشجار العنيف بيني وبينَ لمين بسببِ المعطف، كنتُ قد بدأتُ العملَ كمترجمةٍ في شركةٍ تركيَّة للبناء والمقاولات. لم أشغل وظيفةً في حياتي لوقتٍ طويل. وفي الواقع، أنا لم أحبّ يومًا فكرة العمل، فالعمل مُضجر وروتيني ومرهق.. الاستيقاظ في ساعةٍ مبكّرة من الصباح، وإجهاد النفس في العمل حتى المساء، ثم العودة إلى البيتِ بجسدٍ منهك وعقلٍ عاجز عن التفكير والتأمُّل.. ينامُ العاملُ الكادحُ مباشرةً وقد ضيَّع القسم الكبير من عمرهِ في الوظيفة من دون أن يستمتع بما يحبُّ أن يفعله حقًّا في الحياة. أمَّا اليوم، فأعمل لأنَّني مللت، وكذلك استجمعت شجاعتي، ولم أعد أرغبُ بالاختباء.. كما أريدُ اكتشافَ الناسَ هنا في وهران ومقابلة أفرادٍ جدد. لم أعد أُطيق فكرة البقاءِ حبيسة، وأن يكون وجه لمين الوجه الوحيد الذي أراهُ في الصباح والليل. ربَّما لم أقرِّر العمل إلَّا هروبًا منه،

فهو على الرَّغم من طيبته مزعج بفضولِهِ وتطفُّله. أشعر بأنَّني مراقبة طوال الوقت تحتَ عدسةِ المجهر، كلّ حركة آتي بها يلاحظها، ولو كان بإمكانه أن يفتح رأسي ليرى ما فيهِ لما تردَّد بفعل ذلك..

يُحزنه أنَّه لا يفهمني، وتُغضبني رغبته الملحَّة بفهمي. ما الذي يريده منِّي أكثر ممَّا منحت؟ أين يعثر على امرأةٍ مثلي تقبل بهِ؟ هو الذي يعيش بمرتَّب 30 ألف دينار شهريًّا في شقَّةٍ حقيرة.. في حيٍّ شعبيٍّ، مع جيرانٍ همجيّين أستغرب كيف قبلتُ بالتواجدِ بينهم! شابّ ليس فيه ما يُسرّ العينيْن؛ وجهٌ شاحب، وابتسامة منفِّرة، وجسدٌ نحيل، رائحته قويَّة كرائحة الحيوانات.. ما الذي يريده أكثر؟ أيريد اقتحام رأسي وملاحقة كلّ فكرة تعبره؟ هذا ما لن يحدث أبدًا.. عندما فاتحتهُ برغبتي بالعمل رأيتُ الخوفَ في عينيْه، الخوف من أن يفقدني، إلَّا أنَّني طمأنته، أنا لن أخونك أبدًا، ولو أنَّني أردت الهروب لهربت منذ الشهرِ الأوَّل. وفي اليومِ الذي ستكونُ فيه حياتنا مستحيلة، سننفصل، وإن كان أحد منَّا سيرغب في الانفصال فسيكون أنت..

فأنا لا نيَّة لي للبدء من جديد، لستُ طموحة ولا أحلامَ لي أُلاحقها، أترك حياتي تأخذ مسارها الطبيعيّ كالنهر الذي يخترقُ الأرض، ويأخذ طريقه إلى البحر، ولا أغيِّر طريقي إلَّا وقت الكوارث الطارئة، يا لمين. وهذا ما حدث في الماضي.. كانت كارثة عليَّ أن أحلّها وأرتِّب حياتي بعدها، كي لا أعيش عمري كلّه خائفة وهاربة.

قبل شجارِ المعطف، لم يرَ لمين قَطّ كيفَ أغضبُ وكيفَ أعبِّر عن غضبي. لا يعرفُ مطلقًا ذلك الجانب المتوحِّش في شخصيَّتي. طبيعتي هادئة عمومًا، ومن النادر أن أنفعل، وإذا انفعلت يحدث ما أكرهه في نفسي؛ أفقد السيطرة على أعصابي ويغيب وعيي كلِّيًّا. نعم، أتصرَّفُ بجنون، قد أفعل أيّ شيء.. قد أقول أيّ شيء خارج وعيي وإرادتي. ما حدث أنّ لمين كرهَ المعطفَ الذي قابلني بهِ أوَّل مرَّة، معطف الكاشمير الباهت والقديم والأكبر منِّي برقميْن، أصبح ينزعجُ وهو يراني أخرجُ بهِ للعمل! وليتخلَّص منه، قام بالتصدُّق بهِ على امرأةٍ مسكينة في الطريق. في الصباح التالي.. قلبتُ البيتَ بحثًا عن معطفي، في الخزائن لا يوجد، خلف الأبواب ليس معلَّقًا، ولا على

الأرائك، ولا في سلَّةِ الغسيل ولا حتى في المطبخ.. وبعصبيَّة واضحة، كنتُ أبحث عن معطفي. وعندما أنهى استحمامه، استغرب هَيَجاني:

. عمّ تبحثين؟

. لا أجدُ معطفي..

. صدَّقته، أعطيته لسيِّدة مسكينة، واشتريتُ لكِ معطفًا جديدًا وعلى مقاسك.. هذه هي المفاجأة التي حدَّثتكِ عنها البارحة، سيُعجبكِ. دفعتُ فيه عشرة آلاف دينار..

احترقت كلّ الأفكار في رأسي الذي بدأ يغلي كالقِدْر للتوِ، وأنا لا أصدِّق أنَّه تصرَّف بمعطفي من دون أن يعودَ إليَّ، فبدأتُ برمي الأشياءِ عليه وهو يتجنَّبها ولا يصدِّق ما أقوم به. كسرتُ كلّ شيءٍ كان قريبًا من يدي، وصرختُ في وجهه:

. كيف لم تستأذن؟ هل أنتَ غبيّ؟ معتوه؟ ألم يربِّك أحد أنَّه عليك أن تقول للناس قبل أن تتخلَّص من أشيائهم.. ثم من قال إنَّ ذوقك التافه سيُعجبني؟ تعلَّم كيف تلبس أوَّلًا، ثم تعالَ واختر ملابسي. انظر

إليك.. أناقتك صفر. انظر كيف تنسِّق الألوان، قمصانك كلّها أرغب أن أتقيَّأ وأنا أراك بها. ألوانك تزعج عينيّ، ومع ذلك، لم أجرحك يومًا ولم أتدخَّل في ذوقك ولم أمزّق قمصانك، ولم أتصدَّق بها.. وأحذيتك الرخيصة! التي لا تنزعها من قدميْك حتى تتلف.. بففف، اسمع كي لا أُكثر الكلام، لن تعود إلى البيت إلَّا بمعطفي.. وإذا لم تعد بهِ، سأغادر الليلة ولن ترى وجهي بعد اليوم.

- ٢٦ -

محطَّم القلبِ خرجتُ إلى شوارعِ المدينة، أبحث عن المتسوِّلة التي منحتُها معطفَ زوجتي. ما زلتُ أذكرُ وجهها, لأنَّني أتذكَّرُ فرحتها الكبيرةَ بهِ، وكيف لبسته فورًا، ورفعت يديْها للسماءِ تدعو لي. وأنا أمشي.. تمنَّيتُ لو كان بإمكاني الاختباء في حفرةٍ والبكاء قبل أن ينفجر قلبي من الحزن. وددتُ أيضًا لو أدخل إلى حانتي المفضَّلة، وأشرب كلّ ما يقدِّمه لي النادل حتى أفقد الوعي. تمنَّيتُ لو تدهسني شاحنة وتريحني من هذهِ الحياة. لم يعد بإمكاني تحمُّل الحياةِ إلى جانبِها، كم هي جافَّة وقاسية! أقسى امرأة عرفتُها، وأقسى امرأة قد أعرفُها على الإطلاق. في لحظة غضبٍ، تبخَّرت الملامح المحايدة، وتحوَّلت إلى أفعى مفترسة تبخّ السمَّ الغزير من فمِها. ما قالته يعني أنّها لا تحبّني ولا أُعجبها في شيء، ولكن لماذا لم تصارحني فحسب.. وتُنهي ما يضايقها كما أفعل معها؟ ثم لماذا ما زالت تعيش معي، هي ليست مجبرة حتى بعد ارتكابها تلك الجريمة.. القانون يغفر لها..

المجتمع يغفر، اللَّه، جميع الرجال سيغفرون لامرأة بجمالِها دفاعها عن جسدِها من الانتهاك.. لماذا أنا بالذات؟ لا أدري.. هل يُعقل أنَّها تسرَّعت وندمت.. كلَّا، ليست جيم المرأة التي تتسرَّع وتندم..

وصلتُ إلى شارعِ خميستي. وفي بدايةِ الشارع، رأيتُ السيِّدة تفترش الأرض وتدعو للمارِّين وهي ترتدي معطفَ جيم. ما أحسسته هو الحزن والفرحة معًا! قلتُ للمتسوِّلة ممازحًا كي تشفق عليّ: أختي، المعطف الذي أعطيتك إيَّاه البارحة عزيز على زوجتي، غضبت منِّي وطردتني من البيت.. عليَّ أن أُعيده لها.

تمسَّكت بهِ، وقالت:

ـ المعطف أصبح لي الآن.

ـ يرحم بوك!

ـ قلت لك اذهبْ وإلَّا جمعت الناس عليك.

ـ سأشتريهِ منكِ.. تفضَّلي ألفي دينار واشترِ معطفًا جديدًا.

ـ وأيّ معطف يبيعونه بألفي دينار؟

ـ خذي ثلاثة آلاف، هذا آخر كلام.

ـ خمسة آلاف، هاتها أو دعني أذهب من هنا.

ـ يا لطيف.. هاتي اللَّه يعطيك موت.

ـ الموت إلِّي تدّيك يا وليد الحرام، يا الشماتة، يا إلِّي تحكم فيك مرتك.

كأنَّ شتائم جيم لم تكن كافية، كم هي لئيمة هذهِ المتسوِّلة! من يراها وهي تتسوَّل بملامحها البريئة والشقيَّة لا يعرفُها وهي تفاصل مثل يهوديَّة، يبدو أنَّني سأكره النساء جميعًا! دخلتُ أحد بارات شارع خميستي، وطلبتُ ويسكي من غير ثلج. أردتُ مشروبًا يحرقُ حنجرتي وقلبي وذاكرتي، ويواسي كرامتي التي بصقت عليها جيم، بتعاليها وشتائمها. رميتُ لها المعطف على السرير بعد عودتي إلى البيت، ولم أنظر حتى إلى وجهها. قفزتْ لتتأكَّد منه، ثم لحقت بي لتعتذر: أنا آسفة، أنا حقًّا آسفة، وكلّ ما قلته لم أكن أعنيه، الغضب يجعلني أكون امرأة لا أعرفها، إنَّها إحدى طباعي السيِّئة! لم أردّ عليها،

خرجت لأتمشّى وأشرب الكيف مع الأصحاب، وما إن تنشّقت الهواء البارد حتى هدأت أعصابي وعدتُ إلى البيت بعد ربع ساعة، لأتفاجأ بآخر ما توقَّعتُ رؤيته! جيم فرشت المعطفَ على الطاولة، ومزَّقته بالمقصّ لتستخرج من بطانته الداخليَّة أوراقًا نقديَّة من فئة خمسمائة يورو. ارتبكت ارتباكًا واضحًا ممتزجًا بالخجل، فهي لم تكن تنتظر عودتي بسرعة. بدأت عيناها تجولان، بينما يبحثُ عقلها عن جملةٍ مقنعة تبرِّر بها..

. لن أكذب، خفتُ أن تعرفَ ما أحمله فتطمع بي، كما خفتُ أن تحاول الضغط عليَّ لنصرفه على ما لا أرغبُ به!

. أنا لستُ لصًّا، قد أكون أيّ شيء، ولكنَّني لستُ لصًّا ولا حتى متسوِّلًا. ضعي في رأسكِ بأنَّ والدتي رحمها اللَّه ربَّتني جيِّدًا، ربَّما أفضل ممَّا ربّاكِ والداك المتعلِّمان الثريَّان. ربَّتني على احترامِ النساء، وألَّا أمدَّ يدي لأحد.

- ٢٧ -

في أفخمِ قاعةٍ للأعراسِ، نجلسُ أنا وجيم نحتفلُ مع المدعوِّين بمراسم احتفالِ زميل لها، مهندس تركيّ يتزوَّج من شابَّة جزائريَّة جميلة. كانت لفتة لطيفة من جيم أن تطلب منِّي مرافقتها. في البداية، قلتُ لنفسي زوجتي تخجل بي وبمظهري، ومن الأفضل أن أتركها تذهب للحضورِ وحيدة، إلَّا أنَّها أصرَّت على مرافقتي لها. ذهبنا للتسوُّق، فاختارت فستانًا رخيصًا, لكنَّه أنيق ولا يُبدي سعرهُ الحقيقيّ، ثم إنَّ جيم تبدو جميلة في أيِّ ثيابٍ ترتديها. اختارت لي الملابس للسهرة وحذاءً جديدًا، ولاحظتُ أنَّها حريصة على أناقتي أكثر من حرصِها على أناقتها. تُريدني أن أكون الرجل الذي في مخيّلتِها، وأنا لم أمانع. استسلمتُ لها معجبًا باهتمامِها.

تبدو جيم جذَّابةً جدًّا في هذا الفستانِ الأسود البسيط، كما أنَّني أراها لأوَّل مرَّة بشعر منسدل، وهذهِ الغرَّة الجانبيَّة. ها هي جالسة بهدوءٍ خلَّاب، بعينيْن مضيئتيْن تلمعانِ بالفضولِ والدهشة. تقول بأنَّها

لا تحبّ الأعراس عمومًا، لكنَّها تحبّ الأعراس الجزائريَّة وتداخل الثقافات. تحبُّ كلّ ما هو أصيل وقديم ومختلف. لا ترغبُ بالرقص، ولا تأكل إلَّا القليل من الطعام الشهيّ الذي وُضِع أمامنا. ربَّما لم تأتِ إلَّا لتغادر عالمِها المظلمَ قليلًا..

يُراقصُ العريس عروسه الفاتنة، يُحيطها بذراعيْه، يقبِّل جبينَها، وأنا في هذهِ اللحظة، أتخيَّلُ حياتهما بعد عامٍ من الزواجِ؛ التعاسة التي تنتظرُ هذا العريسَ المسكين بعد أن تتبخَّر الدهشة بينهما، ويعتاد كلٌّ منهما على الآخر. ربَّما في تشاؤمي هذا شيءٌ من الغيرة، ليس لأنَّني لم أرتِّب لحفل زفاف.. هذا آخر ما فكَّرتُ القيام بهِ، فكلّ ما تمنَّيته حياة هادئة وهنيئة مع امرأةٍ أحبّها، ولكنَّها الكآبة كلّ ما أجده حين أُدير ذلك المفتاح وأدخل البيت.. أتذكَّرُ آخر ما قاله صديقي فاروق بعد أن حدَّثته عن جيم:

. «زوجتكَ ليست بحاجة للجنس!» هذا ما قالهُ فاروق الذي يدرسُ علمَ النفس منذ خمس سنوات. كيف لزوجتي ألَّا تكونَ بحاجةٍ للجنس؟ هل هناك من بإمكانه التخلّي عن هذهِ الحاجة البيولوجيَّة؟

ما أعرفه أنَّ الإنسانَ المحروم من هذهِ المتعة الجسديَّة، وإن كان يملكُ كلّ شيء، لن يعرفَ كيفَ يعيش حياةً طبيعيَّة! يكونُ عصبيًّا طوال الوقت ويُعاني من الخواءِ والحزن، كما أنَّ تفكيره سيكونُ منصبًّا على الجسدِ والشهوة والتخيُّلات الفاضحة. بينما الإنسان المكتفي يكون متوازنًا، وأكثر قدرة على القيام بنشاطاته واهتمامه بطريقة جيِّدة. ما أعرفه أيضًا أنَّ معظم الخيانات تحدث ومعظم العلاقات تنتهي، لأنَّ طرفًا لا يُشبع الآخر جنسيًّا.

أتأمَّلُ الآن نساءً في غايةِ الجمالِ والأناقة. كلّ واحدة تُنسى جمال الأخرى بحضورِها الذي حرصت على أن يكونَ كاملًا وطاغيًا، كلّ واحدة تعرض أجمل ما لديها، هذهِ ارتدت فستانًا فيه شقٌّ يفضح بياض ساقِها ورشاقتها، وتلك كشفت عن نهديها المكوَّرين من الفستان، والأخرى ظهرها العاري والمنقَّط بالشامات يفتح الشهيَّة للّمس والتقبيل، وأنا الرجل المتزوِّج بامرأةٍ جميلة حدّ الدهشة وليس بإمكانه حتى الاستمتاع بقبلةٍ واحدة منها.

أتذكَّر علاقةَ خالي عُثمان بزوجته، كم كانت متوتِّرة! يتشاجرانِ كلّ يوم ويغضبانِ من بعضهما بعضًا لأتفهِ الأسباب. لقد كانت زوجته تقلِّلُ من احترامهِ أمام أبنائه، ولا يعجبها أيّ تصرُّفٍ يقوم به. وفي النهاية، اكتشفتُ من حديثِها معَ والدتي بأنَّ زوجها عاجز جنسيًّا ولا يقومُ بشيء ليتعالج، وهذا كان بحسب فهمي السببَ الحقيقيّ لكراهيَّته. لاحظتُ في جميع العلاقاتِ حولي بأنَّ الرجل حين يكون مكتفيًا بزوجته يعاملها بحبٍّ، وتراهما يتلامسان أكثر في الأماكنِ العامَّة، تحسُّ بقربهما، وتفهم بأنَّ علاقتهما الجنسيَّة جيِّدة. والزوجة الراضية تراها تتسامح مع زلَّات زوجها، وتعتني بهِ، لأنَّه يقدِّر أنوثتها ويعزِّز ثقتها بنفسها، أمَّا في حالةِ العكس، فمن السهل ملاحظة أنَّ الشريكيْن متنافران في الواقع كما هما في السرير.

كلَّما أفكِّرُ بوضعِ جيم وبرودِها التامّ معي، أصبُّ لومي كلَّه على والدِها الذي شوَّه رغباتِها، فالاغتصاب وحده لا ينفِّر المرأة من الجنس فحسب بل من الرجل عمومًا، ولكنّ جيم تبدو طبيعيَّة ولا تبدو متوتِّرة في أثناء الممارسة، لا تبدو خائفة من الإيلاج.. أو عصبيَّة، بل

مسترخية وباردة كأنَّها قطعة من جليد. سألني صديقي فاروق الكثير من الأسئلة عن جيم قبل أن يكوِّن انطباعه النهائيّ عنها، سألني هل هي مهتمَّة بأفلامِ البورنو؟ قلتُ: «لا، لم أرها يومًا تشاهد أفلامًا إباحيَّة، وعندما نشاهد فيلمًا معًا ونصل إلى مشهدٍ ساخن، تشاهدهُ كما تشاهدُ المشاهد الأخرى بلا انفعال، وإذا التفتُّ لتقبيلها تبتعد، وتقول دعنا نكمل مشاهدة الفيلم».

سألني إن كانت تمارسُ العادة السرِّيَّة، قلتُ: «لا! لم أرها يومًا تداعبُ نفسها»، قال: «ولكن قد تكونُ تمارسها من دون أن تدري، أي في غيابك، وإلَّا لِمَ اسمها عادة سرِّيَّة؟» كنتُ قد تناقشتُ مع جيم من قبل في هذا، وسألتُها بالفعل ما إن كانت تمارسُها، فقالت بأنَّها لا تجدُ متعةً في لمسِ نفسها. يقول فاروق بأنّهُ ثمَّة تصنيفات للميولات الجنسيَّة في علمِ النفس؛ مثلما هنالك المثليُّون والثنائيُّون ممَّن يشتهون النساء والرجال معًا، ومثلما ثمَّة من يشتهي الأطفالَ فقط، فثمَّة أيضًا أشخاص لاجنسيُّون، أشخاص لا يعني لهم الجنس أيّ شيء، ولا يشعرون بحاجةٍ لممارستهِ، وهم قد يكونون مرضى، وقد يكونون

أشخاصًا طبيعيّين يعيشون حياتهم بصورة طبيعيَّة، قلتُ ربَّما! وأنا لم أكن كامل الاقتناعِ برأيه، وإن ما زلتُ مشوَّشًا وحائرًا، ولا أجدُ أيّ إجابة أو حلٍّ لمشاكلي مع جيم.

لا أشعرُ أنَّني أستمتعُ بهذهِ الحفلة الغبيَّة! يحاول الجميع إظهار أجمل ما فيهِ من لباقةٍ وأناقة، الكلّ يرتدي أقنعة في هذهِ القاعة، الكلّ يدَّعي أنَّه سعيدٌ في حياته والكلّ يكذب، أريد أن أعود إلى بيتي.. إلى تعاستي الحقيقيَّة، بدلًا من هذهِ السعادةِ الزائفة التي تزيدُني حزنًا على الحزن. بعد ساعةٍ من وجودنا في القاعة، أشارت جيم إلى طاولةِ المدير، صاحبِ الشركة، وعرضت عليَّ أن نذهبَ لنسلِّمَ عليه.

المدير رجلٌ يبدو أنّه تجاوز الخمسين بسنوات، رجلٌ تبدو واضحة عليه علامات الذكاءِ والثراء، وإن لم يكن وسيمًا، إلَّا أنَّ هالة الرصانةِ والثراء تضيفان لشخصيَّته الكثير من الهيبةِ والجاذبيَّة. من النظرةِ الأولى، لم يُعجبني. ترك في نفسي انطباعًا سيِّئًا، خاصَّةً بعد أن رأيته كيفَ يحدِّق إلى جيم بنظرةٍ مليئة بالافتتان، ويعاملُها بتهذيبٍ مبالغٍ فيه. لم أكن بحاجةٍ لأكثر من حدْسي الذكوريّ لأفهمَ بأنَّه يريدها،

وربَّما لم تصرَّ على مرافقتي لها إلَّا لتُظهر له بأنَّها امرأة متزوّجِة، أو ربَّما لتُثير غيرته، من يدري بما يجول في رأسِ هذه المجنونة؟!

ونحن في السرير نستعدُّ للنومِ، قلتُ لها: «ذلك المدير معجب بكِ، ولا تحاولي إقناعي بالعكس». توقَّعتُ منها أن تراوغ وتكذِّبني كما تفعل النساء، وتقول بأنَّني أتخيَّل وأغار وأحكمُ من نظرةٍ واحدة. قالت معجبةً بي: «كم أنتَ دقيق الملاحظة، أنتَ أذكى ممَّا تبدو عليه (لم أعرف هل عليَّ أن أفرحَ بمديحها أو أنزعج لأحكامها المسبَّقة عليَّ بالغباء؟) نعم هو معجبٌ بي، ولكن هذا لا يهمّ. ما يهمّ أنَّه لم يتعدَّ حدوده معي، وهذا جيِّد، لأنَّني مرتاحة في عملي ولا أرغب بتغييره بعد».

- ٢٨ -

أسمعُ كلّ يومٍ عن العديدِ من جرائمِ القتل.. ولا أهتمُّ بمعرفةِ التفاصيل، إلَّا إن كانت تتعلَّق بحكاية جديدة أو مروِّعة! ولكنَّ البارحة، وبالمصادفة، شاهدتُ ذكرى سنويَّة لشاعرة قُتِلت السنة الماضية في تمنراست. تلك السيِّدة كانت تدرِّسُ مناهج النقد في الجامعة إلى جانب هوايتها في نظم الشعر. قُتِلت في بدايات شهر جانفيه، أي في الفترة التي كان كلٌّ منَّا أنا وجيم في تمنراست. القاتل استغلَّ وجودها بمفردها في البيت، وذبحها في فراشِ نومها من الوريد إلى الوريد، ثم خرج بهدوء ولم يكتشفوا الجثَّة إلَّا بعد ثلاثةِ أيَّام. لم تتمكَّن التحقيقات من الوصولِ إلى ذلك القاتل حتى يومنا هذا. أحبَّاؤها وعائلتها، اجتمعوا ليقرأوا الفاتحة على روحها، يحملون صورَها، وما زالوا يتألَّمون، لأنّ القاتل ما زال يتنفَّسُ سعيدًا في الخارج، بينما ابنتهم ماتت ميتة بشعة من دون أن تفعل السلطات شيئًا للعثورِ عليه ومعاقبته.

شاعرة أربعينيَّة مغمورة اسمُها كوثر جيلاني، سمراء جميلة من مدينة تمنراست.. لا أدري لماذا ربطتُ كلّ هذا بالشاعرة صديقة جهاد التي حدَّثتني عنها جيم؟ وتواجد زوجتي الغامض في تمنراست تلك الفترة؟ وعلى الرَّغم من أنَّ جيم أرتني صورًا لها برفقة العائلة التي كانت تُقيم عندها، إلَّا أنَّني لم أتمكَّن من منع الشكِّ من التسلُّلِ إلى قلبي! ولكنْ لأيِّ سبب قد تقطع مسافة كتلك، ولأيِّ سبب تقتلها بتلك الطريقة، وماذا عن صديقة جنَّات التي استضافت جيم والتقطت معها الصور؟

أجلسُ على كرسيٍّ في غرفتنا، أشاهد جيم تُعيد ترتيبَ مساحتها في الخزانة، تطوي قمصانها شاردة ومحايدة كعادتها، لا هي باسمة الوجه ولا هي عابسة، خاليةٌ ملامحها من جميع الانطباعات والمشاعر. هي تكرهُ أن أقوم بهذا.. أعلم جيّدًا أنَّها تتضايقُ منِّي عندما أترك كلّ شيء وأتفرَّغُ لمراقبتها، ولكنَّها لغز كبيرٌ في حياتي أرغبُ بفهمه:

. ما اسمُ تلك الشاعرة التي زارتكما أنتِ وجهاد؟

قطَّبت حاجبيْها مستغربة، وأغمضت عينيْها قليلًا، وهي لا تفهم سبب سؤالي:

. اسمُها سامية، سامية بن عامر، لماذا تسأل عنها الآن؟

. أتساءل لماذا لم تتواصلي معها منذ أن جئتِ إلى الجزائر؟

. وهل جننتَ؟ لماذا أتواصلُ معها، هي ليست صديقتي، كانت صديقة جهاد.

. عندما كنتِ في تمنراست، ألم تسمعي بجريمة مروِّعة حدثت في المدينة؟

. سمعتُ أخبارًا كثيرة.. وأنا كنت مقيمة في بلدة عين صالح وليس تمنراست أنتَ تتحدَّث عن أخبارٍ منذ سنة! حدِّد ماذا تريد أن تسأل مباشرة.

لم تعجبها طريقتي في سؤالها، وأحسست أنَّها تجتهدُ في إخفاءِ غضبِها المشتعل منِّي:

. لم تسمعِي بشاعرة اقتحموا بيتها وذبحوها من الوريدِ إلى الوريد؟ ولم يكتشفوا جثَّة المسكينة إلَّا بعد ثلاثة أيَّام؟

. أها، نعم بالطبعِ سمِعت! لقد تحدَّثوا عنها أمامي، يُقال إنَّه لصٌّ دخل ليسرق، وعندما استيقظت ورأت وجههُ ذبحها. هل اعتقدتَ أنَّها الشاعرة صديقة أبي من قُتِلت؟

. نعم، هذا بالضبطِ ما اعتقدته، واعتقدتُ أنّكِ من قتلها أيضًا!

. فتحت عينيْها مدهوشة من اعتقادي ومن جرأتي في قوله! حزينة وخائبة الأمل، عادت لترتِّب خزانتها، وتقول بهدوء:

. يُحزنني أنَّك تفكِّر بي بهذا الشكل، أنا لستُ مجرمة يا لمين.. قتلتُ جهاد، لأنَّه دمَّر حياتي، وربَّما أيّ امرأة في مكاني عاشت ما عشتُه كانت لترتكبَ الجريمة نفسها. لماذا أقتل امرأة مسكينة لم تؤذني في شيء؟ ثم أنا قضيتُ عطلتي في عين صالح وليس تمنراست، تمنراست كانت تبعد عنَّا بـ 400 كلم! فضلًا عن أنَّني رويت لك تفاصيل إقامتي، وشاركتُ معك صوري مع خالتي عائشة التي استقبلتني بحبٍّ طيلة الشهر الذي قضيته عندها..

حيَّرْتني، لا أعرفُ، هل أصدِّقها أم أكذِّبها؟ كلامها مقنع بالفعل ومترابط، والجريمة لو حدثت في عين صالح لما شككتُ في غير جيم، ولكنَّها حدثت في مكانٍ بعيد، ولكن أيضًا أعرف أنَّ جيم مجنونة، مجنونة حقًّا، ومثلما قطعت مسافة من أوروبا إلى صحراءِ الجزائر، إلى آخر نقطة في الجزائر، فقد تكمل طريقها إلى تمنراست لتنفِّذ مخطَّطها الشيطانيّ. هي امرأة لا تحسّ ولا تبكي ولا تتأثَّر ولا تحزن.. لا أدري! إنَّها تبدو في هذهِ اللحظة صادقة، وإنَّني أميل لتصديقها أكثر من تكذيبِها، ربَّما عليَّ أن أوقف عقلي عن التصرُّف كمُحقِّق، هذه أمور لا شأن لي بها أنا الغارق في مشاكل فوق الاحتمال.. ربَّما عليَّ أن أركِّز في مستقبلي، وأفكِّر كيف أخرجُ من ورطتي المجسَّدة في إنسانة غريبة الأطوار اسمُها جيم!

* * *

ما زلتُ أحدِّثُ صديقي فاروق عن زوجتي وطباعِها. بإمكاننا تكوين رأي أو آخر، ولكنَّ التحليل الدقيق للحالة لا يكونُ إلَّا من خلالِ مقابلتِها والكشفِ عليها سريريًّا ونفسيًّا، والتحدُّث معها، ومراقبةِ لغةِ

جسدِها.. لاستنتاجِ المرضِ الحقيقيّ والبدءِ بالعلاج.. هناك من يعاني فقط من خللٍ في الهرمونات، يا لمين، وليس من اضطرابٍ عقليّ، خلل في الهرمونات يتسبَّب في الاكتئاب واختلال المزاج، وما إلى ذلك.

حاولتُ إقناعَ جيم بطرقٍ ملتوية.. ولم أنجح. في البداية، بينما كنتُ أناقشُها عن تعاستي في هذهِ العلاقة، وبأنَّه ربَّما علينا أن نستشير شخصًا بشأنِ ما نعيشه، رفضتْ رفضًا قاطعًا، وقالت: «أنا لا أروي حميميَّاتي أبدًا للغرباء». سألتُها حتى إذا كان ذلكَ الغريب طبيبًا، بإمكانه أن يُبسِّط حياتنا ويقترح علينا طرقًا جديدة نجرّبها لننقل علاقتنا إلى مستوى أفضل؟ أنتِ عشتِ حياتكِ كلّها في أوروبا، ولا أتخيَّلكِ تُعانين من عقدةِ الطبيب النفسيّ. «لستُ مريضة، أنا بخير وسعيدة، إن كنت تعيسًا وتريدُ حياةً مختلفة وعلاقةً من نوعٍ آخر، فهيَ مشكلتكَ أنت، وليست مشكلتي، فلتعالج نفسك إذن لتشعر بالرضى عن حياتك، بدلًا من الشكوى والتذمُّر طوال الوقت».

هذا ما قالتهُ لي بالكلمة! وأنا لم أجد ما أضيفه بعد كلامِها. بعد بضعةِ أشهر، عرضتُ عليها أن أعرّفِها على صديقٍ عزيزٍ لي، أعرفه من أيّامِ الثانويَّة، ورحتُ أمتدحُ فاروق، بأنَّه ذكيّ جدًّا وخفيف الظلّ، وستحبُّ مقابلته. لم تُبْدِ أيّ حماسةٍ لمقابلته، وقالت: «لا أريدُ معرفةَ أناسٍ جدد، ألا يكفي الإزعاج الذي أعيشه وأنا أتحمَّل تفاهة الناس حولي في العملِ كلّ يوم؟ إذا أردت دعوته إلى البيت، لا مشكلة، لكنَّني لن أقابله، سأمكث في غرفتي حتى يذهب».

بالإضافةِ إلى اعتقادِ فاروق بأنَّ جيم من الأشخاص اللاجنسيِّين، أضافَ لي بعد سهرةٍ من الحكاياتِ الطويلة بأنَّه يعتقد أنَّ زوجتي تعاني من اضطرابٍ في الشخصيَّة.. والمرضى بهذه الاضطرابات في بلدانٍ أخرى يدخلون المصحَّات ويُعالجون هذهِ الاضطرابات، ولكنْ هنا في بلادنا قد نعيش مع أشخاص مرضى يبدون طبيعيِّين، ولكنَّهم بحاجةٍ ماسَّة للجلسات، وأحيانًا إلى الأدوية أو النشاطات التي تناسب احتياجاتهم فقط، أي أنَّ زوجتك قد تتحسَّن إذا كانت واعية

بما تمرُّ بهِ، وإذا امتلكت الإرادة الكافية لقبولِ المساعدة في معالجة أزمتِها النفسيَّة.

- ٢٩ -

العشاء الأخير

فكَّرتُ بأن أطبخَ لكِ لمرَّةٍ واحدة. بحثتُ في الإنترنت عن وصفاتٍ جديدة قد تحبّينها، لكنَّني بعدما تذكَّرتُ أنَّه أنتِ أيضًا لا شيء يُعجبكِ، أنتِ التي لا تفرحين بأيِّ شيءٍ أقومُ بهِ من أجلكِ.. ألغيتُ الفكرة من رأسي، وقلتُ أدعوكِ لمطعمٍ تختارين فيهِ ما تحبِّين أكله. نسيتُ أنَّكِ لا تحبّين ولا تكرهين, والأكل لا يعني لكِ سوى وقودٍ لا يهمّ نوعه أو طعمه. لا يهمّكِ بشأنه سوى المهمَّة الأساسيَّة له، وهي إمدادكِ بالطاقة لعيش يومٍ آخر. والآن، ها نحن جالسان في هذا المطعمِ الجديد، الطاولات فارغة والموسيقى المنخفضة تناسبُ مزاج هذا المساء، مطعم افتُتحَ منذ يوميْن فقط، ويقدِّم طعامًا تركيًّا. أنتِ أكلتِ الطعام التركيّ في الشركة التي تعملين فيها، وامتدحتِ طرقهم في طهو اللحوم. كفى، على الرَّغم من زهدكِ في الحياة، لستِ نباتيَّة! قد لا تخطِّطين كثيرًا بما ستملئين بهِ بطنكِ، لكنَّنا معًا منذ عامٍ كامل

يكفي لأعرف كم تُحبِّين اللحوم، والحمراء على الأخصّ. أنتِ آكلة لحومٍ شرهة، وتفضِّلين منها الدسمة أيضًا. هل تعرفين لماذا دعوتكِ اليوم لنتناول هذا العشاء الرومانسيّ؟

. ومن أينَ لي أن أعرف؟ وحده اللَّه يعلم ما يدور في رأسك.

. لأتعرَّفَ عليكِ.

. الآن تريد التعرُّفَ عليّ؟

. هل كنتِ دائمًا هكذا؟ هل كنتِ دائمًا إنسانة تتصرَّف كما لو كانت خرساء، تعيش في عالمها الذي لا تسمح لأحدٍ بدخوله.. إنسانة لا تعيش سوى لتقرأ الكتب وتشرد في طريقٍ مجهول من التفكير، تأكل وتنام، وليس لها أيّ طموحٍ بأن تكون ناجحة في مجالٍ ما، أم أنَّكِ أصبحتِ هكذا بعد الأزمة التي تسبَّبَ بها جهاد؟

.كنتُ دائمًا هكذا، أنتَ تتحدَّث عن طباعٍ ترافقني منذ مراهقتي.

. لماذا تفضِّلين اللونَ الأسود في الثيابِ والأحذية والحقائب؟ لماذا تحبِّين الظهور قاتمة ومظلمة؟ مع أنَّكِ تضجرين بسرعة..

. لن تفهم.. أشعرُ أنَّ اللونَ الأسود يحميني ويعزلني، كما أنَّه مناسبٌ لطقوسِ كآبتي..

. أفهمكِ، لن تصدِّقي ذلك، إلَّا أنَّني أفهمكِ..

. وكيف ترينَ حياتنا معًا؟

. لن أقول ممتازة، وذلك لأنَّ ظروفنا المادِّيَّة سيِّئة، ولكن عمومًا جيِّدة. أخبرتك بأنَّني لستُ متطلِّبة، وكلّ ما أتمنَّاه أن أعيش ما تبقَّى لي من عمرٍ بسلام.

. ما تبقَّى لكِ من عمر؟ تتحدَّثين كعجوز، جيم عمركِ أقلّ من ربع قرن، الأمس فقط كنتِ طفلة.

. أنا لم أكن يومًا طفلة..

. سأكون صادقًا معكِ، يا جيم... لم أعد أحتملُ حياتنا معًا. إنَّها كذبة كبيرة أضحك بها على نفسي كلّ يوم، وكي لا ألفّ وأدور وأثرثر بتبريرات لا معنى لها، أعتقد أنَّه علينا أن ننفصل.

. هل أنتَ غاضب منِّي، أم أنَّك فكَّرتَ جيِّدًا بقرار الانفصالِ هذا؟

ـ أفكّر بهِ منذ شهريْن. حاولتُ التفكير بقرارٍ غيره، مع الأسف ليس ثمَّة ما يمكنني إصلاحه، هذهِ هي أنتِ.. عليَّ إمَّا أن أقبلكِ كما أنتِ، أو أن أدعكِ تعيشين حياتكِ بسلام.

ـ لم أتوقَّع أبدًا أن تقرِّر تركي، لا أعرفُ ماذا أقولُ لك!

ـ ماذا تقولين؟ أنا أعرفُ جيّدًا أنَّكِ لا تحبّينني ولن تموتي من الحزنِ على فراقي.. غدًا، أقابلُ محاميًا لنعدّ إجراءات للطلاقِ بالتراضي، وسأبقى صديقكِ.. آمل أن أبقى!

ظلَّت تحدِّق بي بغرابةٍ وفضول مثل قطَّةٍ تراقبُ حدثًا لم تشهد مثلهُ من قبل! وعندما قلتُ لها آملُ أن أبقى صديقك، وضعت كأس العصير من يدها، وداعبت يدي بحنان، وقالت:

ـ طبعًا ستبقى..

* * *

بعد عودتنا إلى البيت، لم نتحدَّث في ذلك الموضوع مرَّةً أخرى. دخلت جيم لتستحمّ وأطالت هذهِ المرَّة. لم ألحق بها لأتلصَّص عليها كعادتي، وجسدها لم يعد يعنيني. استلقيتُ على السرير ويداي خلف رأسي أشاهدُ فيلمًا. إنَّها ترتدي ملابسها أمامي الآن، وكأنَّنا لم نتحدَّث قطّ في موضوعِ الانفصال. وببطءٍ، تُدخل ذراعيْها في السوتيان، وبالبطء نفسه تدخل قدميْها في الكيلوت وترفعه. بدأتُ أشكّ في نيَّتها بإغوائي! أتجنَّب النظر إليها، أختلسه فقط وأسرقُ لقطات، انضمَّت إليَّ تستلقي جانبي، قريبة منِّي، تبدو حيويَّة وطازجة وشهيَّة، قالت بخبث:

. ما رأيكَ بأن نفعلها لمرَّةٍ أخيرة؟

تجاهلتُ عرضها بالسكوتِ، كما لو أنَّني لم أسمع، تمامًا كما تتصرَّفُ هي تصرَّفت، بدأت تداعب عضوي بيدها الصغيرة، وتحدِّق إليَّ بعينيْها الواسعتيْن لتُثيرني. هذه الحركة لم تفعلها مطلقًا منذ تزوَّجنا.. استغربت. ومع ذلك، لم تعبر الإثارة جسدي، أحسّ بخواءٍ رهيب وبالحزن، وبأنَّ كلّ ما تقوم بهِ متأخِّر جدًّا ولا معنى له. شهورٌ

أمضيتُها وأنا أعتني بها وأعاملها جيِّدًا، وأجرِّب كلّ الطرق لأكسب ودّها لنعيش حياة طبيعيَّة.. لماذا الآن؟ لتشكرني على قرار الانفصالِ عنها؟ أم لتستعيدني.. مستحيل. لا أصدِّق بأنَّها تريدني معها بعد الجحيم الذي عشناه لسنةٍ كاملة. ربَّما هي طبيعة في النساء، كلَّما خضعتَ لهنَّ عافتك قلوبهنَّ، وكلَّما صرفتَ قلبك عنهنَّ يتذلَّلن ليستعدن ما خسرنه.

لتستفزّ شهوتي أكثر، وضعت عضوي في فمِها وبدأت تمصّ، وتحدّق إلى عينيَّ. عضوي ما زال رخوًا، أنظر إليها بعيونٍ خالية من أيِّ عاطفة ومن أيِّ حبٍّ، تمامًا مثل عينيْها.. قفزت فوقي جاعلة جذعي بين ساقيْها وهي عارية، وبدأت تقوم بكلِّ ما تعرفه لتُثيرني، تمامًا كما كنتُ أجرِّب كلّ ما أعرفه لأُثيرها، إلَّا أنَّني باردٌ مثل جثَّةٍ متجمِّدة، تمامًا كبرودها الذي ذوَّقتني إيَّاه طيلة 365 يومًا. اشتعل الغضبُ في عينيْها، ابتعدت عنِّي بعصبيَّة، وصفعتني على وجهي صفعةً قويَّة: حمار أحمق!

- بون نوي جيم.

السفر الثالث

(الحكاية التي لم تقلها جيم)

- ٣٠ -

ستُقلعُ الطائرة بعد قليل.. باتِّجاهِ مدينة اسطنبول!

إنَّها المرَّة الأولى التي أُغادرُ فيها الجزائر. أربط حزام الكرسيّ، بينما أحاول تجاهل المشاعر التي تتضاربُ في داخلي. الفرح والحزن يتقاتلان، التوتُّر الشديد يعصفُ بهما معًا، وثمَّة نسمات فضولٍ لطيف لاكتشافِ تُركيًا. لا أستطيعُ منع نفسي عن التفكير بجيم، أنا المسافرُ إليها بعد سنةٍ كاملة من الغيابِ. ما أعرفهُ أنَّها تزوَّجت مرَّةً ثانية من مديرها، ذلك الرجل الستِّينيّ اللعوب الذي كان يُغازلها بعينيْه في حفلةِ الزفاف. لم أتخيَّل أن تدور الأقدار بهذا الشكل. المرأة التي كانت زوجتي في ذلك الوقت تصبحُ زوجتهُ هو في هذا الوقت، أحاولُ تخيُّل حياتهما معًا، وكيفَ يتحمَّلُ العيش إلى جانبِها؟ علمتُ بأنَّها أجرت عمليَّةً جراحيَّةً منذ شهر.. أُصيبت جيم بالسرطان، بالسرطان نفسه

الذي قضى على والدتها! ارتعبتُ عليها، توقَّعتُ لها أيّ شيء سوى أن تموتَ مبكرًا، هي التي لم تعرف في حياتها غير المصائب. اتَّصلت بي تُخبرني بأنَّها استأصلت رحمَها بسبب ورمٍ خبيث. تألَّمتُ لأجلها، ومع ذلك تساءلت فيما إن كانت تُعاني حقًّا من ورمٍ خبيث؟ أم هو قرارٌ مجنونٌ آخر كي لا تخاطر بالإنجاب، هي التي تمقتُ فكرة الأمومة، وترتعبُ من فكرةٍ أن تحملَ جنينًا في رحِمها!

رأيتُها آخر مرَّة بعد شهريْن من الطلاقِ، زارت شقّتي صباحَ يوم جمعة وهي تعرفني أقضي الصبيحة نائمًا حتى ينقضي الظهر. فتحت الباب بمفتاحِها، وأعدَّت قهوة لنفسها، وجلست تقرأ كتاب فلسفة باللغةِ الفرنسيَّة.. سلَّمتُ عليها ببرود، وعلى وجهي علامة التساؤلِ عن سببِ مجيئِها، وضعت جيم الكتابَ جانبًا، وتنفَّست بعمق كمن سيتحدَّث بموضوعٍ بالغ الجدِّيَّة:

- كيف حالك دوني؟

- كما ترين.. كما تركتني.

. ألم تندم لأنَّك تركتني؟

. أفضِّل أن أعيش وحيدًا على أن أعيش محكومًا بالوحدةِ مع امرأةٍ أحبُّها، وأنتِ؟

. لمين، أنا سأتزوَّج..

. ستتزوَّجين؟ من؟ بهذهِ السرعة!

. المدير. ما إن عرفَ بطلاقي حتى طلبَ يدي، وعرض عليَّ العيش معه في اسطنبول.

. وأنتِ، هل يعجبكِ؟ هل تحبِّينه؟

. ما زلتَ على الرَّغم من ذكائك تطرحُ أسئلة غبيَّة. الزواجُ منه قد يكونُ جيِّدًا.. لا أدري! أفكِّر بالتوقُّفِ عن العمل وعيش الحياة التي أُريد مع رجلٍ لديه ما يكفي ليوفِّر احتياجاتي.

. حسنًا! مبروك.. وجئتِ لتأخذي رأيي أم ماذا؟

. لا، جئتُ لأُعطيكَ هديَّة.

فتحتْ حقيبتها الصغيرة، وأخرجت منها مفتاح سيَّارة:

ـ اشتريتُ لكَ سيَّارة، لتبدأ عملًا جديدًا، سائق أجرة مثلًا..

ـ لماذا فعلتِ هذا؟ لماذا؟ ثم أنا لم أعد أسوق منذ أن تسبَّبتُ في موت صديقيَّ، لا يمكنني أن أضع يديَّ على مقود..

ـ لهذا السبب.. لتسوق مجدَّدًا، وكما قلت لك تنتفعُ بها.

ـ ولكنْ، لماذا هذهِ الهديَّة؟ أنتِ لم تكوني سعيدة معي، أنا حتى لم أكن أُعجبكِ.

ـ كنتُ مرتاحة معك وذلك كان كافيًا، وكنتَ نبيلًا معي. فلتعتبرها عربون صداقة وهديَّة شكر، لأنَّك ساعدتني على بدء حياة جديدة، ولأنَّكَ كتمتَ سرِّي، وحاولت الاعتناءَ بي.

وقفَت، فوقفت، ضممتُها إلى صدري متشكِّرًا:

ـ شكرًا، اعتني بنفسكِ، ودعينا نبق على تواصل. تذكَّري أنَّني دائمًا صديقكِ الذي تعتمدين عليه.

وهي تغادرُ ذلكَ الباب، وأنا أفتِّش في قلبي عمَّا أُحسّه اتِّجاهها. لم أعرف هل أحبُّ هذهِ المرأة أم أكرهها؟ بالطبعِ، شعرتُ بالغيرةِ والانزعاجِ من الخبرِ الذي أبلغتني عنه، فكَّرتُ بأنَّ جيم تتصرَّفُ مثل عاهرة، تبيعُ جسدها باسم وثيقة جادَّة معنونة بالزواج! تستغلُّ جمالها وفتنتها لتوقع بالرجالِ ثم تُذيقهم مرارة الأيَّامِ إلى جانبها، لأنَّها لا تكنّ لهم سوى الرغبة بالالتصاق بهم لأجل لقمة العيش، كما تعيش الطفيليَّات.. بعد ذلك، أحسستُ أنَّني أظلمُها بأحكامي. ألسنا نحنُ من نستغلُّ وحدتها ويُتمها وهروبَها لنكونَ معها؟ نقتربُ من الجميلةِ، لأنَّها وحيدة وضائعة، ونعلمُ جيِّدًا بأنَّه ليس لها أيّ ملجأ وأيّ عائلة، وما ستفعله هو الاستسلام لأوَّل رجلٍ يوفِّرُ لها لقمة وسقفًا؟ كلَّا، ولكنَّها ليست بحاجة. فماذا عن المالِ الذي كانت تُخفيه في المعطف والذي اشترت لي منه السيَّارة.. من أين أتت به؟ ولماذا لم تصرفه منذ البداية؟ كانت قادرة على استئجار شقَّة والعثور على وظيفة لائقة بدلًا من الزواجِ بأوَّل رجلٍ تلتقيه، ولكن امرأة تتَّخذ هكذا قرارات.. هي امرأة قويَّة ومتوازنة، وجيم امرأة على الرَّغم ممَّا تُبديه من صلابة.. مكسورة من الداخل، منهزمة، وربَّما تُعاني فعلًا من صدمةٍ نفسيَّة قويَّة

جعلتها تكونُ كما هي اليوم. في النهاية، وكلَّما أفكِّر بجيم، أجد أنَّ أفضل ما قد أقوم بهِ هو ألَّا أفكِّر بها، لأنَّ المشي في متاهتها مُرهق، ولا يُفضي إلى أيِّ مخرج.

* * *

يقفُ السائقُ بانتظاري في مطار أتاتورك، وهو يحملُ لافتةً عليها اسمي بخطٍّ كبير. ركبتُ معه سيَّارةَ فورد، ولم تكن لدينا لغة مشتركة نتواصل بها، فهو لا يُتقن غير التركيَّة، وأنا لا أتقنُ غير الجزائريَّة. أردتُ أن أطلب منه عبور المدينة لأتعرَّف عليها قليلًا، ثم فهمتُ بأنَّه يسلك الطرق السريعة، ليتجنَّبَ الازدحام ويصلَ إلى البلدةِ التي تُقيمُ فيها جيم بسرعة. ركن السيَّارة أمامَ ؟يلَّا صغيرة مقارنة بال؟يلَّات إلى جانبها، ولكنَّها من الداخل كانت في غايةِ الفخامة. عبرتُ الحديقة إلى داخل البيت، ولاحظتُ كوخًا صغيرًا من الخشبِ في الحديقة. في الداخل، شعرتُ بأنَّني لا أنتمي إلى ذلك المكان ولا إلى هؤلاء الناس.. الطبقة الأخرى من المجتمع، الأرضيَّة لامعة من الرخامِ، والثريَّا تزيِّنُ سقف الصالون، وهناك أرائك من الجلد، ومكتبة ضخمة في

الصالون تقابلُ الموقد الذي تشتعل فيه النارُ بالحطب، أو ربَّما هي نارٌ مزيَّفة، لا أدري.. دخلتُ إلى الحمَّام والأضواء تشتعل ما إن تدخل وتنطفئ من تلقاء نفسها ما إن تغادر، والحنفيَّة بلا مقابض.. أضع يدي تحتها فيسيل الماء. إنَّه عالم لا يشبه العالم الحقير الذي جئتُ منه، الحيّ الشعبيّ الذي يتشاجر سكَّانه بالخناجرِ، ويقضي شبابه خلف العمارات يدخِّنون الكيْف، ويشربون البيرة الرخيصة التي طعمها كبولِ الكلاب.

المفاجأة الكبرى هي جيم؛ توقَّعتُ أن أقابلها شاحبة ومتعبة من العمليَّة الكبيرة التي أجرتها، ولكنَّني وجدتُ امرأة مختلفة. بالكادِ تعرَّفتُ عليها! لقد قصَّت شعرَها الأسود الطويل والذي أعايرها به دائمًا مثل كتلة الصوف الأسود، قصَّته حتى غطَّى أذنيْها بقليل، وصبغته بلونٍ ذهبيٍّ أشقر ناسبَ بشرتها الفاتحة وعينيْها الخضراويْن، وكأنَّها وُلدت شقراء هكذا.. ولم تجرِ أيّ تغيير لتبدو بهذهِ الفتنة. إنَّها تبدو أجمل من أيِّ وقت بهذا الفستانِ الأبيض القصير، بهاتيْن الساقيْن الرفيعتيْن الناعمتيْن، وهاتيْن القدميْن الصغيرتيْن في الحذاء

اللامع بكعبه الحادّ. إنَّني أقف أمام امرأةٍ أخرى لا تشبه في شيء المرأة التي عاشت معي عامًا كاملًا.. وأكثر، إنَّها تسير بثقةٍ أكبر، بحيويَّة ودلال.. ما الذي غيَّرها لهذا الحدّ؟ أيُعقلُ أن يكونَ الحبّ؟ أيُعقل أنَّها امرأة لا تذوبُ إلَّا بين أحضان رجلٍ يذكِّرها بوالدِها؟

ـ الحمد للَّه على سلامتك، تبدين جميلة جدًّا.... ومختلفة.

ـ أنت أيضًا تغيَّرت.. لا أصدِّقُ أنَّك قطعتَ كلّ هذهِ المسافة لتراني؟ علمتُ بأنَّك تهتمُّ لأمري، وستقلق إذا أخبرتك عن السرطانِ، ولكنْ ليس إلى حدّ أن تأتي لزيارتي.

ـ أنتِ عزيزة جدًّا، ولا أتخيَّل أن يُصيبكِ أيّ مكروه.

ـ أخبرني عن حياتك قليلًا.. هل تواعد إحداهنَّ؟

ـ ليس بعد، لم أعثر على المرأة المناسبة.

ـ أصبحتَ انتقائيًّا؟

ـ الفضلُ يعودُ لكِ.. لكنْ أخبريني عن سرِّ هذا التغيّر، كلّ شيءٍ فيكِ تغيَّر! شعرك، ماكياجكِ، مشيتكِ، طريقة تدخينك، لم أعرفكِ وأنت تنزلين السلالم!

ـ السرّ هو أنَّني أخيرًا وجدتُ نفسي بعد رحلةٍ طويلةٍ من البحث. أنا مرتاحة بهذا الشكل، فقد تخلَّصتُ من وجهِ جنَّات الذي وُلدتُ بهِ، واخترتُ لنفسي ملامح تخصّني. اليوم، وأنا أقفُ أمام المرآة.. لا أرى أحدًا آخر، لا أرى غير جيم.

ـ ولكن، لماذا لم تُغيِّري شكلكِ منذ البداية؟ لماذا انتظرتِ كلّ هذا الوقت؟

ـ لأنَّ التغيير يبدأ من هنا، من الداخل، ولم أكن قد رمَّمتُ خرابي بعد..

ـ ما زلتِ ترتدين خاتمي؟ على الرَّغم من أنَّك تزوَّجتِ بآخر؟

ـ نعم، أحبّه! وزوجي لا يمانع.

ـ وهل يعرفُ كلّ شيءٍ عنكِ؟ أقصد، أنتِ تعرفين..

ـ لا! ولن يعرف.. أنا لم أخبر غيرك، حتى أنت كنتُ في حالةٍ بائسة حينما اعترفتُ لك.. ولا أخفي عليك أنَّني أحيانًا أندم وأخاف، ماذا لو كرهني لمين وباح بسرِّي؟

ـ هل جننتِ؟ أنا لن أخون تلك الاعترافات أبدًا، تلك الرحلة كانت أفضل ما حدث في حياتي. بعدها، تعلَّمتُ كيفَ أقبل الماضي وأتعايش معه، وتعلَّمتُ كيفَ أكون متسامحًا مع نفسي.

زوجُها الذي قابلتهُ لاحقًا.. يتميَّز بهدوءٍ لافت ورصانةٍ عجيبة، كان مثل إسفنجة يمتصّ كلامها الساخر وعصيانها، من دون أن يتأثَّر بتقلُّباتِ مزاجها، وكأنَّه درسها وفهمها ليقبلها كما هي. عندما أبديتُ لجيم إعجابي ببيتِها، قالت: «نعم هو بيتٌ مريح، لكنْ صدِّقني كلّ هذا الترف لا يعنيني. أنا كما تعرفني امرأة زاهدة، وأقضي معظم وقتي في ذلكَ الكوخ الذي بناه لي زوجي في الحديقة. في بداية زواجنا، لم يحتمل انطوائي على نفسي وطريقة عيشي. هو رجل مشغول دائمًا، وعندما يعود ليقضي معي الأمسية يجدني في عالمي، لكنَّنا وجدنا حلًّا وسطًا. قال لي أحترمُ عالمكِ، بل سأعدّ لكِ ملحقًا

للبيت لكِ وحدكِ تؤثِّثينه وتقضين فيه وقتكِ كما تشائين، ولكنْ عندما أكون هنا ستكونين معي، ستخصِّصين تلك الساعات القليلة لي.. وهذا بدا منصفًا ومعقولًا. في بيتي الخاصّ، ليس هناك تلفزيون ولا هاتف، فقط سرير ومكتبة وثلَّاجة صغيرة. تعال سأصحبك لتراه».

خرجنا من المنزل، وفي طريقنا إلى بيتها الخاصّ كما تسمِّيه، واصلت الحديث عن زوجِها:

«هو رجلٌ متفهِّم ومنفتِح ويستوعبني، وهذا أكثر ما يروقني فيه. عندما نتشاجر أغيب عنه لأيَّام، ولا يأتي لزيارتي إلَّا للضرورة. نادرًا، ما يخرقُ تلك القطيعة بالتواصل. يتركني حتى أهدأ تمامًا ويروق مزاجي، وأعود إليهِ بنفسي».

صعدنا السلالمَ الخشبيَّة. كنتُ منشغلًا بتأمُّلِ ساقيْها وهما تصعدانِ الدرج.. وعندما دخلت، تفاجأتُ بالمساحة التي خصَّصتها لنفسها! إنَّها تعبِّر بدقَّةٍ عن مزاجها ودواخلها، فالغرفة داكنة جدًّا ولا يشعر فيها الواحد بالارتياح، أجواؤها كئيبة، لون الملاءات رماديّ غامق،

والستائر أيضًا تغطِّي النافذة تمامًا. قالت إنَّها لا تحبّ الضوء، وتفضِّل أن تعيش حياتها في الظلِّ والعتمة. الغرفة بسيطة جدًّا ومناسبة للخلوة أو التعبُّد، ولا شيء آخر. فيها ثلَّاجة صغيرة وطاولة خشبيَّة مستديرة، تضع عليها دفاتر وأقلام. لم أعلم بأنَّها تكتب! ما الذي تكتبه؟ ينتابني الفضول لأتلصَّص على أفكارِها.. هناك مكتبة، ربَّما تَسَعُ مائة كتابٍ على الأكثر.. حين لم أجد ما أضيفه لدردشتنا، عدتُ لسؤالِها عن صحَّتها:

ـ هل اكتشفتِ المرض مبكرًا؟ أقصد، هل تخلَّصتِ نهائيًّا من هذا السرطان باستئصالك الرحم؟

ـ نعم، من حسن حظِّي. أنا بخير الآن وبصحَّةٍ جيِّدة.

ـ هل تعلمين؟ عندما أخبرتني عن استئصالك للرحم، قلت لنفسي لا هي مريضة ولا شيء، لا بدَّ من أنَّها لفَّقت الحكاية كي لا يضغط عليها زوجها للإنجاب.

. يدهشني كم تعرفني يا لمين، أنت حقًّا تدهشني، لم يتمكَّن أحد من التعرُّف عليَّ هكذا غير جهاد! كلَّا، لم ألفِّق الحكاية، ولكنَّني كنتُ سعيدة بالتخلُّص من رحمي.. فلنقل ضربتُ عصفورين بحجرٍ واحد؟

. لكن، لماذا لم تجرِّبي الأمومة؟ ربَّما ترتعبين من تجربة ستعشقينها، وستغيِّر حياتكِ!

. أنا أصلح لأيِّ شيءٍ إلَّا أن أكونَ أمًّا. إنَّ أقسى ما يمكنني أن أفعله في حقِّ إنسانٍ سألده هو أن أكونَ أمّه، ثم ألا ترى إلى أيِّ حدٍّ أنا عاطلة عن الحياة؟ لا أحسن حتى الاعتناء بنفسي، فكيفَ أوكل لنفسي مهمَّة تحمُّل مسؤوليَّة إنسانٍ آخر. لا.. قدراتِي محدودة جدًّا، وأنانيَّتي المطلقة ستُعيقني عن منح الحبِّ الذي أكنُّه لنفسي لإنسان آخر، حتى لو كان ذلك الإنسان قطعة منِّي.

قاطعت الخادمة حديثنا حين دخلت توشوش في أذنِ جيم باللغة الإنجليزيَّة. استاءت جيم ممَّا وشوشت بهِ الخادمة، واستأذنتني بأنَّها ستغيب لدقائق وتعود. أوَّل ما رغبتُ بالتلصُّص عليه هو الدفاتر.. فتحت الأوَّل بسرعة، وخاب أملي حين وجدتُ ما تكتبهُ باللغةِ

الإنجليزيَّة. الدفتر الثاني كان عليه رسومات لوجوهِ نساءٍ حزينات أو مريضات يحتضرن! مشيتُ نحو المكتبة، فوجدت كتبًا كتبت بلغات مختلفة، العربيَّة، والفرنسيَّة والإنجليزيَّة. لفتت انتباهي مفكِّرة خضراء، إنَّها مفكِّرتها القديمة نفسها التي سقطت منها في ساحةِ المحطَّة بوهران. كيف أنساها وقد كانت حجَّتي للتعرُّفِ عليها.. ها هي بين يديَّ مجدَّدًا في بلادٍ أخرى وزمنٍ آخر، وظروفٍ مختلفة، أتأمَّلها الآن بعينيْن مختلفتيْن، باهتمامٍ كبير كمن يحملُ الكنز بين يديْه. فتحتُها وفرحتُ، وعيناي تلتقيان بيوميَّاتٍ كتِبت باللغةِ العربيَّة وبخطٍّ واضح وجميل.. نصوص قصيرة بتواريخ تبدأ من سنة 2007 وتنتهي في سنة 2014، والمفاجأة هي ليست جيم من كتبتها، بل جهاد. قرأت بسرعة خاطفة جملًا من هنا وهناك: كلانا نُعاني، وكلٌّ منّا ضحيَّة الآخر/ لقد دمَّرتُ ابنتي كما دمَّرتني / أين أنتِ يا جنَّات لترَي ما فعلته بنا مصيبة غيابكِ؟

سأسرقُ المفكِّرة.. عليَّ أن أقرأها كاملة أو أستعيرها لأيَّام، وأعود متحجِّجًا بزيارة جيم لأُعيدها في مكانها. عادت جيم بسرعة تدعوني

لمرافقتها إلى الحديقة لنشرب الشاي التركيّ. وهناك، أكملنا حديثنا حتى انضمّ زوجها. في أثناء ما تبقَّى من اللقاء، لم أكن أفكِّر سوى بالمفكِّرة التي أحملها على ظهري! السرّ الكبير الذي لا أستطيع صبرًا لمعرفته. بدأت أتخيَّل ما سأقرأه! هل سأقرأ: غراميَّات رجلٍ منحرف عن ابنتهِ؟ أم رسائل ندم؟ ترى ما الذي كتبه؟ هل كتب حكايته الكاملة مع جنّات ثم مع ابنته، أم أنَّها يوميَّات تقتصر على الفترة الأخيرة من حياته؟

- ٣١ -

رسائل إلى جنّات

الثلاثاء 11 ديسمبر 2007

قلتُها لكِ وأنتِ تُصرِّين على إنجابِ طفلٍ يكمِّل عشقنا؛ أنا أصلحُ لأيِّ شيءٍ إلَّا أن أكونَ أبًا. لم أكن مخطئًا يا جنّات، انظُري ماذا فعلتُ بابنتنا؟ لقد أحببتُها بعد رحيلكِ أكثر من أيِّ شيء، ولكنَّ جيم تُسيء تقدير ذلكَ الحبّ. إنَّ تعلُّقها بي مرضيٌّ وأعمى. منذ تركتنا وهي لا تعرف كيف تنام إلَّا بينَ ذراعيّ.. أحاول أن أعوِّدها على أن تنام في غرفتِها المستقلَّة، وأفشلُ في كلِّ مرَّة. ابنتنا يزيدُ تمرُّدها يومًا بعد يوم، وهي تُعاني من مشكلة سيِّئة مع الغضب. تصبح هستيريَّة، تصرخ وتبكي وتخلقُ فوضى مخيفة في البيت. تصير أسوأ إذا عاقبتها، وليس لي ذلك القلب الذي يقسو عليها. لا أحسنُ فعل شيءٍ دونكِ، ساعديني يا جنّات كما كنتِ تفعلين دائمًا، ساعديني

على رؤيةِ الصواب والتصرُّفِ بحكمة، كما يتصرَّفُ أيُّ أبٍ جيّد مع ابنته، حتى لو كانت أكثر البناتِ صعوبةً وأشدَّهنَّ عنفًا؟

الجمعة 8 أوت 2008

تعالَي وتأمَّلِي وجهَها، وسيبدو الأمر وكأنَّكِ تتأمَّلين انعكاسكِ في المرآة. كم تشبهكِ وكم تشبهينها! ماذا فعلتِ خلالَ أشهرِ حملكِ؟ كنتُ أرى كفّكِ الحنون لا يغادرُ بطنكِ، توشوشين لها وتسمعينها الأغنيات، وتتمنّين أيضًا أن تكونَ نسخةً عنكِ. أهنّئكِ، ستُصْعقين عندما تريَنها، إنَّها لا تشبهكِ، أقولُ إنَّها أنتِ.. كلّ شيءٍ فيها منكِ، ملامحها، لون عينيها وكأنَّها شقيقتكِ التوأم، وليست ابنةً لكِ.. أحاولُ أن أكتبَ رسائل طويلة كالتي كنتُ أكتبُها في السابق قبل أن نتزوَّج، هل تذكرين كم كانت الكلماتُ غزيرةً بيننا؟ لم أعد قادرًا على ذلك.. تعبتُ من كلِّ شيء، وحتى الشِعر طلَّقتهُ بالثلاث. ماتت روحِي في اليومِ الذي رحلتِ فيه. والآن، لم أعد الرجل الذي علوتِ بحبّه كي لا أقول وقعت.. أصبحتُ رجلًا ميّتًا، وأرى كم موتي الداخليّ هذا يؤثّرُ على جيم. أصبحتُ رجلًا ستشمئزّين منه، رجلًا ضعيفًا يواسي نفسه

المعذَّبة بالشراب، أقول كلّ ليلة سأشرب كأسًا واحدة، ثم أقول كأسيْن فقط، حتى أجد نفسي فاقدًا للوعي.

الخميس 12 سبتمبر 2008

لا أدري متى تعودين من سفركِ يا جنّات؟ قلتِ لي سأبقى أسبوعيْن فقط في تلمسان، وها قد مرَّ شهرٌ وكلَّما أتَّصل بكِ تماطلين؟ إنّ العيش وحدي مع جيم في هذه الشقَّة صعب ومرهق. ستغضبين وأنا أُخبركِ بأنَّ ابنتنا شيطانة حقيقيَّة لا تتوقَّف عن ارتكاب الحماقات، ولا أعرفُ كيفَ أتعامل وأعتذر عن حماقاتِها مع معارفنا؟ قولي متى تعودين.. أطمح لأن يكون تأثيركِ عليها أفضل من تأثيري.

الأحد 15 فيفريّيه 2009

أخونكِ معكِ! هل تتخيَّلين هذا؟ كيفَ ستغفرين لي؟ كيفَ ستنظرين إلى وجهي بعد اليوم؟ كيفَ سيبقى في قلبكِ أيّ احترامٍ لهذا الرجل الحقير الذي أدهشكِ في البداياتِ بنبلِه؟ وحده العار أحسّ به ينخرُ

قلبي، برجولتي قد ذابت وتحلَّلت، بإنسانيَّتي تعفَّنت، أرغبُ برمي نفسي تحتَ عجلاتِ القطار حتى تنكسر عظامي ويُفرم لحمي، وتتحطَّم جمجمتي ولا يتعرَّف على جثَّتي أحد. جيم تستغلُّ وحدتي وإدماني، وتقوم بتصرُّفاتٍ قذرة. أدخل السرير فأجدها عارية فيه، تلتصق بي وتقوم بحركاتٍ تجعلني أهتاج وأغرق في اللذَّةِ معها. تقول بأنَّني رجلها الوحيد، اكتشفتُ أنوثتي على يديْك وفتَّحت عينيّ على العالمِ معك، فكيفَ تريدُ منعي عن حبّك واشتهائك. وإذ نتشاجر، أطردها من غرفتي وأرغمها على المكوث في غرفتها، تغلق الباب على نفسها بالمفتاح، تنتحب وتؤذي نفسها، تجرح معصمها، تشربُ الأدوية.. تهدِّدني بالانتحار، المشكلة وأنا ثمل أكون خارج وعيي، ويصعب عليَّ التفريق بينكما، تصبحين وجيم امرأة واحدة.

الأحد 7 جوان 2009

علمتُ بأنَّها غاضبة، ولكن ليس إلى ذلك الحدِّ! في الواقع، أصبحتُ إذا رأيتُها تعبِّر عن غضبِها أطمئنّ، وعندما لا تفعل.. ياه كم تصبحُ مرعبة! تجلسُ هناك في الزاوية متوتِّرة.. تشتعلُ حرفيًّا من الغضب،

أراها تتنفَّسُ بسرعة بعينيْن جامدتيْن لا ترمشان، ولون خدَّيْها الشاحب يتحوَّل إلى أحمر. تقضمُ أظافرها أو تحكّ ساعدها مثل المدمنة التي تنقصها جرعة من المخدّرات.. كان القطُّ «آلي» صديقَها الوحيد، وكان أكثر ما تحبّهُ بعدي، وتخيَّلتُ أيّ شيء إلَّا أن تُصيبَه بالأذى. لقد قَتلتْه! في لحظةِ غضبٍ وطيش قتَلت قطّها، صرعت رأسَه بالمطرقة التي جلبَتْها من القبو، ومات في اللحظةِ نفسِها، بعد ذلك أدخلته في كيس ورمت به في القمامة، بهذهِ البساطة وبذلك البرود. كنتُ أراها تستمتع في طفولتها باصطياد الحشرات ومطاردة الفئران وتعذيبهم، ولكنْ آلي مخلوق آخر، هو حبيبها ودميتها والصديق الذي تداعبه وينام معنا في السرير.. بعد ما فعلته، عادت أخيرًا إلى طبيعتها الهادئة، كأنَّها تخلَّصت من عبء كبير، وبعد ما فعلته، أدركتُ بأنَّها لا تحبُّ أحدًا، ولا تحبّني ولا تحبُّ حتى نفسها.

الجمعة 20 نوڤمبر 2009

ولأنَّ قلبي ما عاد قادرًا على احتمال هذهِ التعاسة، لم أعد أستخدم عقلي.. أصبحتُ عبدًا لهذهِ الشيطانة التي تسكنُ بيتي، عبدًا مطيعًا ينفِّذ الأوامر، ويفكِّر كلّ ليلة بطريقة جديدة للانتحار..

الأربعاء 17 فيفريّيه 2010

لم أعد أفكِّر! تخيَّلي.. الإنسان يفكِّر طوال الوقت، أليس كذلك؟ حتى لو كان تفكيره منصبًّا على أشياء تافهة، حتى الغبيُّ يفكِّر.. حتى الذي ليس لديه ما يفكِّر بهِ تجدينه يتساءلُ عمَّا يرغبُ بتناولهِ وقت الغداء؟ هل يقابلُ صديقه؟ أيّ فيلم يشاهده الليلة؟ ماذا عليهِ أن يرتدي غدًا؟ هل زاد وزنه؟ هل ما زال يبدو يافعًا؟ هل يستحقّ هذهِ الحياة؟ هل هو سعيد؟ هل ما تبقَّى في جيبه يكفيه ليكمل هذا الشهر؟ هل يسافر إلى بلدٍ آخر.. هل اللّه موجودُ حقًّا؟ هل النفس حقًّا أمَّارة بالسوء؟ هل آدم من أكل الثمرة المحرَّمة أم حوَّاء من دفعته لأكلها؟ هل هو بحاجةٍ للجنس حقًّا؟..

تساؤلات لا تنتهي، إلَّا أنَّني لم أعد أستخدمُ رأسي، صدِّقيني.. لا في أفكارٍ عميقة ولا في أفكارٍ تافهة! رأسي فارغ تمامًا، فارغ من أيّ

فكرة. أسيرُ شاردًا طوال الوقت في اللاشيء، مثل من يتأمَّل لوحةً بيضاء حتى يغطّ في النوم.. كنتُ أُعاني من الأرقِ سابقًا كما تعلمين، لأنَّني لا أتوقَّف عن التفكير حتى وأنا متعب وأهمّ بالنوم، ولكنَّني وجدتُ علاجًا سحريًّا.. يتمثَّل في طردِ كلِّ الأفكار من رأسي.. أهشّها كما يُهشّ الذُّباب، سواء كانت فكرة سامية أو فكرة رديئة.. بدأ الأمر وأنا أعالجني من الأرق، ثم تطوَّر إلى التوقُّف عن الشرود في الصباح.. أكره الاستيقاظ بأسئلة وجوديَّة لا أجوبة لها.

بدأت ببساطة أقضي نهاري كلّه من دون أن أفكِّر.. أُنهك نفسي في عملي حتى أنسى من أكون.. آكل ما أجدهُ متوافرًا، ثم أعود وأشرب كأسًا ترخي أعصابي وأنام. قولي لي، هل ترين شلل تفكيري هذا أمرًا إيجابيًّا أم سلبيًّا؟ أترين كيف أصبحت؟ أصبحتُ أسوأ من رجلٍ غبيّ، رجلًا فارغًا من كلِّ شيء..

الاثنين 07 جوان 2010

لا أصدِّقُ ما أراه.. تبدو مخيفة حتى وهي نائمة وكأنَّها تطلقُ ذبذباتِها الخبيثة حتى في أثناء نومِها. ما عدتُ أعرفُ من يكونُ كلٌّ منّا، وكأنَّنا لسنا حقيقيّين، بل من عالمٍ آخر؛ كائنان ضبابيَّان داخلَ حلمٍ طويلٍ يغطُّ صاحبه في سباتٍ أو غيبوبة، وكلّ شيءٍ سينتهي بيقظتهِ.. أعيش كلّ يوم وأنا أحسُّ بغياب الحياةِ في أيَّامي، وليس بيدي فعل أيّ شيء لأخلقَ من اللاجدوى معنى. أفكِّر بالقيامِ بنشاطاتٍ مختلفة، برحلاتٍ إلى بلدانٍ لا أعرفُ عنها شيئًا. ولكنْ لا شهيَّة لي، وإنَّما أتكاسل طوال الوقت مثل رجلٍ مشلول، يقضي وقته على كرسيِّه المتحرِّك، يحلم بالركض والقفز والسباحة ويخطِّط لفعل ما يريد، إلَّا أنَّ الحزن يُخيِّم على قلبهِ حين يتذكَّرُ بأنَّه لا يستطيع.

الأحد 31 أكتوبر 2010

أحاولُ أن أتذكَّر متى وأين رأيتُهُ أوَّل مرَّة؟ هذا الرجل الذي ألتقي بهِ في كلِّ مكان؛ رجلٌ خمسينيّ لديه صلعة مستديرة في رأسه، وما تبقَّى من شعرهِ على الجانبيْن رماديّ، ويضع غالبًا قبَّعة تخفي صلعته، ويلبس دائمًا نظَّارته الطبِّيَّة لِيُشغل نفسه بقراءة الجريدة التي يتأبَّطها. لاحظتُ خلال الأسبوع الماضي أنَّه يتناول طعامه على الطاولة المقابلة لطاولتي.. وبعدها بأيَّام، تقابلنا في الحانة.. رأيته في الجهةِ الأخرى من الكونتوار، كنتُ أشربُ ؟ودكا، وكان يشربُ ويسكي، وكلانا كان يدخِّنُ.. أمس، كانَ واقفًا في طابور المخبزة، واليوم، قرَّرتُ أن أشربَ قهوتي في وسطِ المدينة.. في مكانٍ بعيدٍ عن بيتي هذا وأنا أفترضُ أنَّه يسكنُ في حيِّي، اليوم وأنا في هذا المقهى البعيد.. بعدما دخلت تأمَّلتُ الزبائن، لم يكن هناك. شعرتُ بالارتياح والتحرُّر، فأنا أشكّ منذ أسبوعيْن بأنَّني مراقب. عندما وضعت النادلة طبق البيض المخفوق وعصير البرتقال وقطعة الكاب كيك على الطاولة، بدأتُ آكل بشهيَّة مفتوحة، حتى دخل المقهى وجلس يتصفَّحُ كتابه من

دون أن يرفع عينيْه إليَّ، وكأنَّه لم يأتِ إلى هنا متعمِّدًا. هذا لا يُحتمل.. ماذا يريدُ منِّي؟ هل عليَّ تجاهله فحسب.. فأنا لم أرتكب أيّ جريمة ولا مخالفة لأخاف، فليراقب كما يشاء إذن، حتى يضجر ويتوقَّف عن ذلك.

السبت 6 نوڤمبر 2010

إنَّه أستاذ تاريخٍ متقاعد. ذهبتُ لمخاطبته لأجد أنَّ الصدفة وحدها ما جمعت بيننا في المكان والوقتِ نفسه عدَّة مرَّات. كم ضحكَ منِّي وأنا أشرحُ لهُ ارتيابي منه بأنَّه أحد رجالِ المخابرات! أصبح صديقًا عزيزًا ونحن نتقابلُ تقريبًا كلَّ يوم، في الحدائق أو البارات، ونتحدَّث عن جميع مواضيع الحياة. إنَّه الوحيد الذي أفكِّر وأنا معه، يحرِّضني لأُناقشه في الحروبِ الأهليَّة التي حدثت في العالم.. الحرب العالميَّة، حرب ڤيتنام، حرب العراق، ثورة الجزائر، الاحتلال في فلسطين، نتحدَّث عن المرأة واختلافِها.. ماذا تريدُ من الرجل وبأيِّ حكمة بإمكانه أن يعيش سعيدًا إلى جانبها؟ في البداية لم يرغب بذكرِ اسمهِ لي. يريدُ أن يظلّ صديقًا غريبًا، أعرف أفكاره من دون أن أعرف شيئًا

عن تفاصيله الشخصيَّة.. لكنَّني ألححت، لا يمكنني أن أُصادق رجلًا لا أعرفُ حتى اسمه، قال في نهايةِ الدردشة: اسمهُ بنجامين، هو لا يرغبُ بالتحفُّظ على أسراره فحسب، يرفضُ قطعًا معرفةَ أسراري.. لا يريدني أن أحدِّثه عن زوجتي أو عاهراتي كما سمَّاهنَّ، يريدنا أن نتحدَّث عن شؤونِ العالمِ، ونفترق كلّ مرَّة كصديقيْن غريبيْن، وأنا لم أمانع. إنّ بنجامين يمنحني فرصة للتفكير، قبل لقائه لا أفكِّر، وبعد لقائه لا أفكِّر.. لا أنشِّط خلايا ذهني إلَّا إذا تقابلنا، وإذا لم نتقابل يظلُّ ذهني خاويًا كما درَّبتهُ.

الثلاثاء 1 جوان 2011

البارحة، كان عيد ميلادكِ يا جنّات! لطالما أحببتِ المفاجآت والعوالم الغريبة التي تُلهمكِ لكتابةِ رواياتك.. لطالما عبدتِ الجنون الذي ينقذك من رتابة الضجر وكآبةِ الحياة. أخذتكِ إلى الملهى الجنسيّ كما طلبتِ منّي منذ سنوات لتكتبي الرواية الفضائحيَّة التي حدَّثتني عنها، وشجَّعتكِ على كتابتِها، ولكنَّني تفاجأتُ بكِ تغضبين وتغادرين

المكان باستياءٍ مُحيِّر؟ اشرحي لي.. ماذا يحدث بيننا، حتى ما عاد يفهمُ أحدنا الآخر؟

الأربعاء 2 جوان 2011

منذ وفاةِ ابنتنا جيم في ذلك الحادث اللعين وأنتِ ما عدتِ أنتِ، يا جنّات.. إنَّني أفهم جيِّدًا هذهِ الخسارة، أنا أيضًا كنتُ والدها وشاركتكِ كلّ لحظاتِ حياتها، وقت ظهور السنِّ الأولى، والخطوةِ الأولى، وأعنتكِ على تنشئتها، وكم ركضنا خلفها كي لا ترتطم وكي لا تحترق.. وكم توتَّرنا ونحنُ نرسلها للمدرسةِ أوَّل مرَّة، ولكنَّها رحلت.. ابنتنا ماتت، وعليكِ أن تتعلَّمي قبول هذهِ الحقيقة. نحن لم يتبقَّ لنا إلَّا بعضنا، وهذهِ الخسارة الفادحة كان من المفترضِ أن تقرِّبنا

لا أن تحفر الهوَّة العميقة بيننا. أنا مستعدٌّ لفعل أيِّ شيء لأرى الابتسامة على وجهك مرَّة أخرى. أفتقدُ نشاطكِ وحيويَّتكِ ورغبتكِ الدائمة في الضحكِ والرقص ومشاهدةِ الأفلام.. لم أعد أطيق رؤيتكِ بهذهِ الكآبة. مرَّت سنوات وأنا أنتظرُ التئام هذا الجرح بلا فائدة، ويبدو أنَّ هذا الجرح لن يلتئم أبدًا!

الخميس 15 سبتمبر 2011

تشاجرتُ اليوم مع متطفِّلة عجوز في المترو. كانت تجلس في المقعد المقابل لمقعدنا. أمَّا أنا، فكنتُ مستمتعًا بالنقاش مع صديقي بنجامين عن أفضل شاحنة تقدِّم الوجبات السريعة في وسط المدينة، وأفضل طبق تناولناه، ووصفاتٍ غريبة من اختراعنا. اكتشفت أنَّنا نتشاركُ شغفًا آخر، فأنا إنسان يحبُّ أن يفهم الطبق الذي يأكله؛ التوابل التي استُخدمت، وتركيبة الصلصة، ومدَّة طهي السمك، والأعشاب التي

رُشَّت عليه، وما إلى ذلك. في السنواتِ الأخيرة فقط، فقدتُ هذا الشغف، أصبحت آكل ما أجده ولا أسأل نفسي عمَّا آكله. تلك السيِّدة قطَّبت حاجبيْها، وبدأت تُصغي إلى حديثنا مستغربة.. تحمَّلتها لدقائق ثم صرختُ في وجهها: كم تستمرِّين بالتحديق؟ ألا تعرف سيِّدة في سنّك بأنَّه من الوقاحة أن تحدِّق إلى أُناس لا تعرفهم؟ لا بدَّ من أنَّها عربيَّة؛ إنَّه تصرُّفٌ عربيٌّ خالص.

الأحد 1 جانفيه 2012

إنَّني أفقدُ عقلي، من منكما توفِّيت؟ أنتِ أم ابنتنا جيم؟ من هذهِ المرأة التي تعيش معي؟ أنتِ جيم، أم حبيبتي جنَّات؟ إنَّ المرأة التي تعيش معي تشبهكِ إلى حدٍّ مرعب! تتصرَّفُ كما لو كانت أنتِ،

تقلّدكِ وترتدي ملابسكِ القديمة، معاطف الكشمير التي تخصّكِ، تترك شعرها بريًّا وغجريًّا كما تفعلين، وتقول أنا حبيبتك جنّات، أنا زوجتك.. تُذكّرني بلقاءاتنا الأولى.. تحفظ رسائلنا عن ظهر قلب. ولكنْ ثمّة شيء في قلبي يشبه الحدس يقول لي إنَّ هذه المرأة القاسية والجافّة ليست أنتِ.. ربّما تشبهكِ شكلًا إلى حدٍّ يجعلني أذوب فيها كما أذوب فيكِ، ولكنَّ طباعها حادَّة ولا مكان للرحمةِ في قلبها، روحها ملعونة. كلّا، مستحيل أن تكون أنتِ.

الثلاثاء 3 جانفيه 2012

لا تحزني، يا حبيبتي. لا يهمّ من تكونين، لا يهمّ من أكون، هل أنا حبيبكِ؟ زوجكِ؟ والدكِ؟ كلّ هذا لم يعد مُهمًّا. لقد وُجِدنا في هذا العالمِ لنكونَ معًا، وليس بإمكان أيّ أحدٍ أن يمنعنا من حبِّ بعضنا بعضًا بحجّةِ الدين والعاداتِ والتقاليد. أنا كلِّي لكِ، قلبي وجسدي،

وما أعرفه بأنَّ العيش بعيدًا عنكِ مستحيل، والبدء من الصفر مع امرأةٍ أخرى مستحيل.. ضعي رأسكِ على صدري ونامِي، يا مشاغبة، وإيَّاكِ أن تفكِّري بإيذاءِ نفسكِ مرَّة أخرى كما فعلتِ اليوم. لا أتحمَّل أن أرى دمعة واحدة من عينيْكِ الساحرتيْن، ولا قطرة دمٍ تسيلُ من جسدكِ البريء بسببِ غبائي.

السبت 25 جانفيه 2014

(مهلًا! 2014؟ ماذا حدث في 2013؟ سنة كاملة غائبة هنا أو محذوفة؟ بل سنتيْن، فهو منذ بداية 2012 لم يكتب خواطره. هل مزَّقتها جيم من المفكِّرة؟ كلَّا، يبدو الدفتر الصغير كاملًا.. هل عاش أثناءهما علاقة هادئة وطيِّبة مع جيم، أم ماذا؟ هذا الرجل عاش السنوات الأخيرة مدمنًا مضطربًا ومنعزلًا، وربَّما مجنونًا. سأواصل القراءة وأرى).

السبت 25 جانفيه 2014

تخونينني؟ بهذهِ البساطة تخونين؟ بعد كلِّ ما عشناه معًا من أيَّامٍ حلوةٍ ومُرَّة؟ بعد العهدِ الذي قطعناه؟ ما زلتُ مصدومًا ولا أصدِّق ما رأته عيناي.. لا أصدِّق أنَّني رأيتكِ هناك على الأريكة تحت جسدِ رجلٍ آخر؟ أيّ امرأةٍ حقيرةٍ أنتِ.. بلا شرف، بلا مبادئ، بلا التزامٍ لأيِّ شيءٍ سوى نزواتها وحماقاتِها! أعترفُ أنَّني فقدتُ صوابي عندما شددتكِ من شعركِ ووجَّهتُ لكِ تلك الصفعة القويَّة. كانت ستكونُ صفعة واحدة، وبعدها على أحدنا أن يغادر البيت، إمَّا أنا وإمَّا أنتِ.. وكان سيكونُ أنا على أيِّ حال، فأنا على الرَّغم من دناءتك لن أُلقي بكِ إلى الشارع..

كنتُ سأحزمُ حقيبة واحدة وأرحل إلى مكانٍ بعيد لا أسمع فيهِ عنكِ، ولكن آخر ما توقَّعتهُ أن يحدث بيننا ما حدث بعد تلك الخيانةِ

القبيحة! وجَّهتُ لكِ صفعة قويَّة.. وكان وحده الاحتقار ما يشعّ من عينيَّ.. أحببتِ الصفعة! توهَّجت عيناكِ وتورَّد خدّاكِ، وآخر ما توقَّعته أن تدفعيني لاغتصابكِ بعنف. لم أركِ بذلك الهيجان من قبل. ظللتِ تصرخين أن اضربني، هيَّا ادفعه بقوَّة، هيَّا أرني ما يمكنك فعله، افعلها كما يفعلها الرجال! كنتِ تستمتعين بالعنفِ وتتلذَّذين بالضربِ والأذى، والآن، بعد أن انتهى كلّ شيء، لماذا أشعر بأنَّني فارغ وتافه، وبأنَّ كلّ ذلك الجنون الذي حدث على السرير لا معنى له؟ لا أُريد أن أعيش ما عشته معكِ مرَّة أخرى. نحنُ نسيرُ في متاهةٍ ضيّقة ومظلمة وخاسرة، ولن نخرجَ منها إلَّا بثمنٍ باهظ ندفعه. ترى أيّ ثمنٍ سترغمينني على دفعه لأحصل على خلاصي منكِ؟

الجمعة 11 أفريل 2014

غيرتُها متوحِّشة وفضولها لا حدود له. تجلسُ على الأريكة المقابلة، تمثِّل أنَّها لا تُبالي بينما أنا منشغل بحاسوبي أتصفَّح. بإمكاني فكَّ شيفرتها بسهولة.. هي الآن لا تحتملُ إهمالي لها، وتريدُ أن تعرف من أحدِّث وأبتسم، ولماذا أطقطق على لوحةِ المفاتيح بحماسةٍ وسرعة. تريدُ أن تعرفَ فقط من هذهِ التي اقتحمَت عالمي، وهل هي في مكانٍ بعيد أم قريب؟ سيطمئنها أن تبقى صديقة افتراضيَّة أحدِّثها في أوقاتِ الملل، وسيزعجها أن تعلم بأنَّ صداقتنا الافتراضيَّة هذهِ جادَّة وعميقة، عميقة كما لا يخطرُ على بالِها. إنَّها تنهض بسرعة كما الأطفال، وتأتي وتذهب لتلفتَ انتباهي إليها بلا فائدة. وكما أعرفها جيِّدًا، أعلم أنَّها ستثور بعد قليل، وتتسبَّب في شجارٍ كارثيّ. إنَّها مسألة وقتٍ فقط! فلتشاجر كما تشاء، هذا السرّ بالذاتِ لن تعرفه.

السبت 31 ماي 2014

اليوم عيد ميلادِها. لم أشتر هديَّة ولم أحضِّر مفاجأة كما أفعل من أجلِها كلّ عام، ولا حتى هنَّأتُها. هي كانت تقولُ دائمًا إنَّه من الغباءِ الاحتفالِ بأعيادِ الميلاد، أنتَ تحتفلُ بتاريخٍ تعيسٍ يخصّني، اليوم الذي تواجدتُ فيه في هذا العالم من دون أن أختار قرار وجودي فيه. ومع ذلك، كنت أجتهد لأرى الابتسامة على وجهها، تلك الابتسامة الكئيبة المائلة. هذهِ السنة، نفَّذتُ مشيئتَها واحترمتُ رؤيتها للحياة، توقَّعتُ منها أن تتساءل فقط، ولكنْ حدث أكثر من ذلك. انهارت تمامًا، لم أرها مجروحة وحزينة كما رأيتها اليوم، قالت فهمتُ كلّ شيء، لم تعد تحبّني، وكلّ هذا بسببِ ماذا؟ قلتُ ربَّما بسبب حماقاتك وخياناتك؟ قالت بل بسببها، تلك التي تقضي وقتك معها، تظنّ أنَّني لا أسمعك تحدِّثها بعد منتصفِ الليل، تضحك وتقهقه وتغنِّي لها بالأمازيغيَّة؟ ثم هل عدت لكتابةِ الشعر؟ لا يا عزيزتي.. لم أكتب قصيدة واحدة منذ عشرين سنة، أنا أُلقي عليها فقط ما يروقني من قصائدِ الآخرين.. من هي؟ تدفع عمرها لتعلم. هي لا أحد، مجرَّد أنيسة، لا تكترثي لها، ولا علاقة لها لما يحدث بيننا.

الأحد 29 جوان 2014

لم نتحدَّث طيلة شهرٍ كامل..

الصمتُ يُخيِّمُ على بيتنا، يا لعنادِها وكبريائِها!

هي تحترقُ في كلِّ لحظة، ولكنَّها تكابرُ.

تفضِّل أن تموت عطشى على أن تطلب قطرة ماءٍ منِّي..

الخميس 03 جويليه 2014

تعتقدين أنِّي أستضيفُها لأؤجِّجَ غيرتكِ وأستفزّ كبريائكِ؟ لأُرغمكِ على النطق والكلام والشجار بعد خصامٍ دام شهرًا ونصف الشهر؟ أتيتُ بها عمدًا إلى عُشّنا، لأضرم النيران في قلبكِ؟ كلَّا.. لم أخطِّط

لمجيئِها، هي أتت خصِّيصًا لتراني ولا تعلمين.. كم كانت صعبة ظروفُ مجيئها. لم يقبل والدُها بأن تغادر البلادَ وحدها لا لأجل السياحة ولا حتى لأجل العمل، ولكنَّها عاندته وحملت جواز سفرها وحلَّقت إليَّ..

تقولُ تدفع عمرها مقابل أن تقضي ليلةً واحدة بين ذراعيَّ، مقابل أن تمحو فكرة الصديقة الافتراضيَّة، وأن يكونَ الحلم حقيقة والحديثُ خارجَ الحواسيب وشاشاتِ الهاتف. قطعتْ كلّ هذهِ المسافة لتلمسني فقط، وتلمس رجولتي الغائبة. هذهِ المرأة الشجاعة، على الرَّغم من المسافاتِ وعلى الرَّغم من العقدِ وعلى الرَّغم من خرابي كلّه، تحبّني كما لم يحبّني أحد قبلَها. حتى أنتِ يا جنَّات، أحببتِ نفسكِ أكثر ممَّا أحببتني في البداية، وبعدها أحببتِ ابنتنا حتى لم يبق في قلبكِ مكانٌ لي.. ومع ذلك، عبدتكِ حتى لطَّختِ كلّ ما كان نقيًّا بيننا. لا أظنّني قادرًا بعدُ على تحمُّل ما تحمَّلتهُ منكِ، وأعتقدُ أنَّنا نقتربُ من النهاية!

الأحد 6 جويليه 2014

الصديقة التي نستضيفُها من الجزائر، ما زلتُ أُسمِّيها الصديقة ولا أحبِّذ ذكرَ اسمِها، فهذا الدفتر الصغير هو رسائل إليك يا جنَّات،

وبعضها الآخر إلى ابنتنا جيم ثمرة جنوننا. لا أريدُ أن أذكر اسمَها النقيّ إلى جانب اسمكِ، في دفترٍ يحملُ الخرابَ الذي في داخلي، لأنَّ الصديقةَ هي ملاكي، الملاك الذي يعالجُ جروحي، ويعلِّمني كيفَ أكونُ إنسانًا من جديد. هذهِ اليمامة المسالمة، الطيِّبة.. القادرة على رؤيةِ القبحِ من دون أن تشمئزَّ منه، وتنظيف القذارةِ من دون أن تتلوَّثَ بها.

هذهِ الصديقة جمعت الصور من الصالون، وبدأت تسألني: أين التقطت هذه الصورة؟ هذه في وهران؟ ومن تكون هذه المرأة؟ إنَّها زوجتي جنّات.. أرتني صورة، وماذا عن هذه، أين؟ هذه في باريس. ومن التي معك؟ ما بك؟ جنَّات، دائمًا. ولكنْ، ألا تلاحظ أنَّها أصغر عمرًا، كأنَّ جنَّات تصغر بدلًا من أن تتقدَّم في العمر؟ ألا تجد هذا غريبًا.. لا أعرف عمَّا تتحدَّثين. جنَّات هي جنَّات.. من هذه التي تعيش معك، يا جهاد؟ جنَّات. أعتقد أنَّها جيم.. ابنتك وليست

جنَّات. جهاد، عزيزي، أظنّ أنَّك تُعاني من ورطةٍ صعبة، فكلّ ما رويته لي من معاناة مع زوجتك، أنت تعيشه مع ابنتك وتخلط بينهما! علينا أن نذهب لطبيب نفسيٍّ متخصِّص في أقرب وقت.

الأربعاء 23 جويليه 2014

يقول الطبيب إنَّني أُعاني من الفصام، وإنَّ عقلي يتخيَّل ويتوهَّم ويختلق أحداثًا لم تحدث.. ذاكرتي كلّها مشوَّشة، والأشخاص في حياتي ضبابيُّون جميعهم. ثمَّة أحبَّاء موتى، ما زلت أتعامل معهم على أنَّهم أحياء، وأحياء أتعامل معهم على أنَّهم موتى وحقيقيُّون من لحمٍ ودم أمحو وجودهم تمامًا في واقعي، وآخرون خلقتهم بنفسي ووضعتهم في الأمكنة المناسبة لأواسي وحدتي. أكتب هذه الكلمات بينما أنا في مصحَّة، مستسلمٌ للجلسات الطويلة وأشرب الأدوية بانتظام. جيم طيلة هذهِ السنوات، تستغلُّ مرضي.. لفَّقت ذكريات لم تحدث قطّ، وأقنعتني بأنَّها جنّات، وبأنَّ ابنتنا جيم ماتت في حادث سيَّارة، وأنا أعيش بهذه الذاكرة منذ سنوات.

الخميس 25 سبتمبر 2014

أعتقد أنَّ جيم بحاجة أيضًا إلى علاج..

لقد دمَّرتُ ابنتي كما دمَّرتني، وكلٌّ منَّا ضحيَّة الآخر.

الأحد 30 نوڤمبر 2014

لن تنجو جيم إلَّا إذا افترقنا.. ولن نجدَ نهايةً لمعاناتنا إلَّا إذا عاش كلٌّ منَّا بعيدًا عن الآخر. كنتُ قد شاهدتُ مشهدًا كهذا في فيلمٍ لويل سميث وتشارليز ثيرون؛ بطلان خارقانِ للطبيعة، بإمكانهما فعل الكثير لأجل هذا الكوكب، ولكنْ ليس وهُما معًا، لأنَّهما كلَّما اجتمعا، تضعفُ قدراتهما ويفقدانِ التركيز على مواهبهما، ويتحوَّل ذلك الحبّ إلى طاقةٍ مدمِّرة لكلٍّ منهما. في المشهدِ الأخير، كانت تشارليز ثيرون تحتضر بنبضاتٍ تقلُّ شيئًا فشيئًا، وكان ويل سميث مُصابًا وضعيفًا.

وفي اللحظةِ الأخيرة فقط، فهمَ الدرس بأنَّه ينبغي أن يختار بين أن يكون معها ويراها تذبل أمامه، وبين أن يبتعد ويسمح لها بالتنفُّس. غالبَ هانكوك وجعه، وبدأ يرمي خطواته المتثاقلة ابتعادًا، خطوة فخطوة. ومع كلِّ شبرٍ يبتعد بهِ عنها، تستعيد حبيبته نبضاتها وأنفاسها ويستعيد هو قوَّته، حتى اختفى تمامًا واكتفى بمراقبتها من كوكبٍ آخر! إنَّ هذا الفيلم يلخِّصُ علاقتِي بالصغيرة، ويلخِّص علاقاتٍ كثيرة يدمِّر فيها الطرفانِ بعضهما بعضًا، قبل أن يفهما بأنَّ ما بينهما مستحيل ولا يُعقلُ لهُ أن يستمرّ بأيِّ طريقة..

هذهِ الليلة، سأُسدلُ الستار وأُنهي مسرحيَّتها السخيفة، فأنا ما عدتُ المريض المخبول الذي تملأ رأسه بحكاياتها الكاذبة. سأُخبرها بأنَّني عائدٌ إلى بلادي، إلى القريةِ التي جئتُ منها، وإلى حبيبةٍ تنتظرني في الجنوب، أعدّ نفسي لأولد من رحمِ حبّها من الصفر. ما الذي تعرفينه أنتِ عن الحبِّ، يا جيم؟ كم أشفقُ عليكِ يا صغيرتي! عشتِ حياة تافهة، وستموتين ميتة تافهة ما دام قلبكِ لم يتذوَّق من ثمرةِ الحبّ. ستقولين ولكنَّني أحبّك، بل تحبِّينني كما لو كنتُ شيئًا من

أشيائكِ، تتخلَّصين منه إذا تعطَّل ولا صبر لكِ على معرفة عطبه لإصلاحه، بل تحبِّين نفسكِ فقط ولا أحد آخر، تحبِّين ما يمنحه لكِ الناس، وإذا توقَّفوا عن المنح أو تصرَّفوا بطريقةٍ تُزعجكِ ترفضين وجودهم في حياتك. لا تقولي شيئًا، فأنا الذي أعرفكِ أكثر من نفسكِ وأكثر من أيِّ أحد، ولا يمكنك أن تخدعيني بأقنعتكِ المتعدِّدة مثلما تخدعين الجميع.

أيَّتها العاهرة الصغيرة! كم تشبهين الحياة، ذكيَّة وفاتنة وشهيَّة، لكنْ باردة وخاوية وعاجزة، تحملين قلبًا خبيثًا لا يعرفُ الرحمة، حتى ابنتكِ قتلتِها بيدٍ باردة بعد يومٍ واحدٍ من الولادة! ظلَّت تبكي وترتعش وأنتِ لم ترضعيها ولم تضمِّيها إلى صدرك، وضعتِ يدكِ على وجهها، وظللتِ تحدِّقين إليها بعينيْك القاسيتيْن حتى توقَّفت عن التنفُّس، وقلتِ مقتنعة في الصباحِ الذي تفاجأتُ بهِ بموتها: ستشكرني إذا كان بإمكانها ذلك! لماذا أعود إلى الوراء وإلى أمورٍ ينبغي عليَّ محوها من ذاكرتي ونسيانها لأتعافى من سمومِ حضورك في حياتي؟ كما ترين، يبدو بأنَّنا لا نملكُ حلًّا سوى أن ننسى بأنَّ كلًّا منَّا يعرفُ الآخر. أنا منذ

اليوم، لا ابنة لي ولا زوجة ميِّتة أعيش مع شبحها، أفضِّل العيش مع روح جنَّات الطاهرة على جثَّتها الحيَّة في بيتي!! فلتنسي بأنَّكِ عرفتني، كما سأنساكِ، ولتعتبري نفسكِ يتيمة لا والدَ لكِ.

ربَّما تتساءلين عن مشاعري اتِّجاهكِ، وربَّما لا يهمّكِ الأمر. سأقولُ لكِ بأنَّكِ أخيرًا ما عدتِ تعنين لي أيّ شيء.. كما لو أنَّني لم ألدكِ! قد يبدو تعبير الولادة سخيفًا، لأنَّه مرتبط دائمًا بالمرأةِ ورحِمِها، ولكنَّني ولدتكِ أيضًا، يا جيم، ليس بما دفقتهُ في رحمِ والدتكِ فحسب؛ لقد كرَّستُ نفسي لرعايتكِ، وحاولتُ أن أمنحكِ تربية جيِّدة، أعلِّمكِ كلّ ما تعلَّمتهُ في الحياة لتكوني الأنثى الجميلة والأنيقة والمثقَّفة، الأنثى التي تُبهرُ أيّ إنسانٍ يقابلُها، ولم أُدرك بأنَّني أنجبتُ مسخًا من جيناتي. انظُري إلى نفسكِ كم أنتِ قبيحة! ملامحكِ على الرَّغم من جمالكِ مظلمة، لأنَّها تعكسُ القبحَ الذي داخلك. سيذوبُ أمام فتنتك أيّ رجل، وتلك الفتنة سرعان ما ستذوب أيضًا وتختفي، عندما يكتشفُ من أنتِ من الداخل. اسمحي لأيِّ أحد بالتعرُّف عليكِ من الداخل لتُدركي بأنَّه لا يُعقلُ لأيِّ إنسانٍ أن يحبّكِ إلَّا ليستغلّ جسدكِ، عدا

ذلك روحكِ ملعونة، ستعيشين وحيدة بعقليَّتكِ المريضة وتموتين وحيدة.. عجوزًا نتنة وغريبة تموت، بينما تحدِّق في الفراغ وتفارق الحياة بعينيْها المفتوحتيْن الجامدتيْن..

لا أحبّكِ، يا جيم، لا أحبّكِ! أحبُّ كلّ من في الأرضِ عداكِ، أحبُّ الأشجار والبحار والقطط والعصافير والأطفال وجميع النساءِ حتى أقساهنَّ أطيبُ منكِ.. لا أكرهكِ أيضًا لأنَّك، لا تستحقِّين الكراهية، الكراهية مرهقة، إحساسٌ سلبيّ يؤذي صاحبه ويلوِّث قلبه وروحه، وأنتِ لا تستحقِّين أن أتلوَّثَ بكِ. كلّ ما أريدهُ أن أبتعدَ عنكِ فقط، ألَّا أقابل أيّ امرأة تشبهكِ ولو قليلًا.. أن أحذف حرفَ الجيم من الأبجديَّة! أن أنسى نصف عمري الذي عشتهُ مريضًا إلى جانبكِ، وبينما أتحدَّث عن مشاعري لكِ، كم أرغبُ بالتحدُّثِ عنها.. المرأةِ الأخرى التي كنتِ تموتين من الغيرة منها في الفترةِ الأخيرة.. وكنتُ أكذبُ عليكِ كي أحميها منكِ..

قلتُ لكِ هي بمثابةِ أختٍ لي، ولا يُعقل أبدًا أن أشتهيها.. ولكنَّكِ، لم تكوني هناك عندما مارسنا الحبّ. ليتكِ كنتِ هناك لتري وتفهمي

وتعلَّمي كيف للقبلاتِ وحدها أن تضرم الشبق في جسديْن والشغف في روحيْن. حملتُ ديوان شعري اليتيم، وطرقتُ باب غرفتها.. لأُلقي عليها بعض قصائدي القديمة، وفي منتصفِ القصيدةِ، قاطعتني بقبلةٍ أنستني من أكون، قبلة دافئة من فمِها الحلو.. سَرَت برودة في جسدي، ثم بدأت حرارتي ترتفع ولساني يداعبُ لسانها. لم أشعر بذلك الدفء منذ سنواتٍ طويلة.. عانقتُها وشممتها وقبَّلتها، كان أكثر من اشتهاءٍ، يا جيم. عندما عرَّيتها وبدأتُ أتلمَّسُ جسدها وأوزِّعُ عليهِ قبلاتي، وأضع رأسي حينًا، وألتقم حلمتها حينًا ثم أدفن رأسي بين ساقيْها لأشمّها وأقبّلها بحبٍّ كما لو كنتُ أقبّلُ شفتيْها، كنتُ أشعر بالحياةِ تسري في عروقي مجدَّدًا، وبرجولتي تنتعش وبقضيبي ينتصب، وأسمع صوت ضربات قلبي، أنا حيّ! هذا ما شعرتُ به وأنا أدخل جسدها. الأملُ يتفتَّح في قلبي من جديد، واللذَّة لم أعتقد أنَّني سأعثر على سرِّها مجدَّدًا في جسد أيِّ امرأة، ولكنْ ها هي بين ذراعيَّ بجسدها الأسمر وبدفء قلبها ومحبَّتها، بعد أن قذفتُ في جوفها مائي، تمدَّدتُ إلى جانبها وعانقتها بقوَّة، كما لو كانت ستهربُ منِّي. وبعدها، غرقنا في النوم، ورغبتُ بأن أموت، لأنَّني ما عدتُ أريد أكثر

ممَّا حصلتُ عليه منها. رغبتُ بأن أمضي ما تبقَّى لي من أيَّامٍ إلى جانبِ هذهِ المرأةِ الحنونة والطيّبة.

لا أعرفُ كيف أودّعكِ الآن. هل أودِّعكِ بنصيحة؟ ولكنَّ الوقت تأخَّر كثيرًا على النصائح، يا صغيرتي.. انتهت صلاحيَّتها ولقد تمرَّدتِ وتعَّفنتِ. وإصلاحُ ما فعلته بنا الأيَّام لم يعد ممكنًا. لا أعرفُ من منَّا ظلم الآخر أكثر.. ولم تعد معرفة ذلك مهمَّة. أنا مسافر غدًا. التذكرة اشتريتها منذ أسبوعيْن وحقيبتي جاهزة! أكتبُ الآن هذهِ الرسالة الأخيرة، لأنَّني لا أعرفُ كيف سيجري حوارنا، سأودّعكِ وأقبّلكِ في جبينكِ قبلة أخيرة كما نودّع الموتى، وبعدها أضعُ في يدكِ مفكّرتي، وأحمل حقيبتي وأرحل.

سارة النمس

روائية جزائرية مواليد 1989 حصلت على الليسانس في الأدب الإنجليزي من كلية الآداب واللغات

صدر لها

ماء وملح - رواية - عن دار الآداب 2016

الحب بنكهة جزائرية - 2012